الطريق إلى سايكس - بيكو

الحرب العالمية الأولى بعيون عربية

تأليف: مجموعة من الباحثين تحرير: رشيد خشانة



مركز الجزيرة للدراسات
ALJAZEERA CENTRE FOR STUDIES

هذا الكتاب

بينما كان البريطانيون يُفاوضون الشريف حسين، باشروا سرا مفاوضات موازية مع فرنسا وروسيا القيصرية لتقاسم تركة الدولة العثمانية، وتحديدًا الولايات العربية. قاد المفاوضات التي استمرت أشهرًا عبر تبادل الرسائل، السير إدوارد غراي، وزير الدولة للشؤون الخارجية من الجانب البريطاني، والسفير بول كومبون، سفير فرنسا لدى بريطانيا من الجانب الفرنسي. أما التوقيع فتم في «داونينغ ستريت» يوم 16 مايو/أيار 1916 بقلم كل من مارك سايكس، الموظف السامي في وزارة الخارجية البريطانية، وفرنسوا جورج بيكو، السكرتير الأول في السفارة الفرنسية بلندن. وأسفرت المفاوضات عن الاتفاق على تقاسُم ما أصبح يُعرف لاحقًا بالشرق الأوسط بعد تجزئته إلى خمس مناطق. وكان يُقصد بـ«الشرق الأوسط» الفضاء المُمتد من البحر الأسود شمالًا إلى المتوسط جنوبًا، ومن البحر الأحمر غربًا إلى المحيط الهندي شرقًا فبحر قزوين، مع المحافظة على الوضع القائم في شبه جزيرة العرب..

نبذة عن المحرر



رشيد خشانة، إعلامي وباحث تونسي. ترأس تحرير عدة صحف تونسية وكتب في صحف ومجلات دولية من أبرزها «النهار العربي والدولي» و«الحياة» و«لوموند ديبلوماتيك». بين سنتي 2007 و2010 عمل محررًا لقسم المغرب العربي في «التقرير الاستراتيجي السنوي» الصادر عن معهد العلاقات الدولية والاستراتيجية (IRIS) بباريس. نشر أبحاثًا عن المغرب العربي في المجلة الفصلية الصادرة عن معهد أسبن الأمريكي (Aspen Institute) في روما، ومجلة Confluences méditerranéennes وفي مؤسسة «المبادرة العربية للإصلاح». يعمل حاليًا باحثًا في مركز الجزيرة للدراسات.



مركز الجزيرة للدراسات
ALJAZEERA CENTRE FOR STUDIES

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.


ISBN 978-614-01-1880-5
9 786140 118805

جميع كتبنا متوفرة في موقع www.neelwafurat.com | www.nwf.com

الطريق إلى سايكس - بيكو

الحرب العالمية الأولى بعيون عربية

الطريق إلى سايكس - بيكو

الحرب العالمية الأولى بعيون عربية

تأليف: مجموعة من الباحثين

تحرير: رشيد خشانة




مركز الجزيرة للدراسات
ALJAZEERA CENTRE FOR STUDIES

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1437 هـ - 2016 م

ردمك 978-614-01-1880-5



الدوحة - قطر

هواتف: 4930181 -4930183 -4930218 (974+)

فاكس: 4831346 (974+) - البريد الإلكتروني: E-mail: jcforstudies@aljazeera.net



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص. ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

المحتويات

مقدمة

قوَّضت الحربُ العالمية الأولى أركان المشرق العربي بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية، وتقاسُم ولاياتها العربية بين القوتين الأوروبيتين المُنتصرتين: بريطانيا وفرنسا. هكذا جلس السير البريطاني، مارك سايكس، والدبلوماسي الفرنسي، جورج فرنسوا بيكو، حول مائدة في مقر وزارة الخارجية بـ "داونينغ ستريت"، ورَسَمَا خارطة النفوذ الجديدة في المنطقة، فكانت حصة بريطانيا تشمل فلسطين والعراق والأردن، إلى جانب مصر، أمَّا سوريا الحالية ولبنان وشمال العراق (الموصل)، إضافة للمغرب العربي، فكانت من حصة فرنسا. و لم يستند تقاسُم مناطق النفوذ هذا إلى منطق جغرافي أو مُبرِّر تاريخي أو مُقوِّم اقتصادي أو ديمغرافي؛ إذ كان أساسُه حرمانَ ألمانيا من الكعكة. ومَرَدُّ ذلك إلى أن دخول الإمبراطورية الألمانية (أُنشِئت في 1871) إلى الساحة العثمانية كرَّس بداية عهدٍ جديدٍ في السياسة الدولية جعل ألمانيا تَحُلُّ محل روسيا باعتبارها الخطر الرئيس على مصالح بريطانيا. وستُهيمن هذه المنافسة، بين ألمانيا من جهة وفرنسا وبريطانيا من جهة ثانية، على مُجمل التحولات التي شهدها النصف الأول من القرن العشرين، إلى أن بدأت تتجلّى في السنوات الأربع الأخيرة بوادر تغييرات كبرى في الخارطة التي رُسِمت للمنطقة العربية قبل مائة عام.

ومن أكبر التحولات في العالم العربي اليوم أن تلك الحدود الموروثة من القرن الماضي، والتي كانت محل انتقادٍ ورفضٍ من النخب العربية، بصدد الاندثار والزوال. واستطاع "تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام" المعروف إعلاميًّا بـ (داعش) اعتبارًا من يونيو/حزيران 2014 محو الحدود بين ثلاث محافظات في شمال سوريا،

هي: الرقة والحسكة ودير الزور، وبين المحافظات الغربية في العراق، أي: الأنبار وديالى وصلاح الدين ونينوى؛ ما مكّنه من الاستيلاء على ثلث المدن العراقية، ومنها الموصل المدينة الثانية، وتغيير الحدود التي رسمها اتفاق سايكس - بيكو بين سوريا والعراق. وبرغم استعادة بعض المناطق والمدن من "داعش" فإن الانهيار السريع لحدود سايكس - بيكو يؤكد أن المنطقة مُقبلة، لا محالة، على خارطة جديدة لم تتبلور ملامحُها بعدُ، خاصة بعد حركات النزوح والهجرة التي شملت الملايين من السوريين والعراقيين. وليس واضحًا من هي القوى التي ستفرض الخارطة الجديدة مع نهاية الصراع، لاسيما أن الولايات المتحدة اختارت خط الانكفاء الاستراتيجي عن المنطقة، وسط تنامي الدور الروسي وتعاظم النفوذ الإيراني.

من هنا، تأتي ضرورة معاودة النظر في سياقات الحرب العالمية الأولى ونتائجها، وهو ما يفرض العودة إلى الجذور، أي إلى دوافع ذاك النزاع الكوني، ثم قراءة مشاهِدِهِ بزواياها المختلفة، القتالية والاستراتيجية والاقتصادية والإنسانية، بعيون عربية، بُغية رصد تداعياته على مُجمل البلاد العربية. فعلى رغم وعود الاستقلال التي أُعطيت للعرب، مقابل نُصرة الحلفاء أثناء الصراع، خرجت البلدان العربية من الحرب صفر اليدين، بل رفض مؤتمر الصلح الاستماع إلى وفودها. وعلى قدر تهميش العرب وتقاسُم أراضيهم بعد الحرب، انقادت غالبية الكتابات التأريخية التي تناولت تلك الحقبة إلى نظرة المُنتصرين، عدا بعض الكتابات الموضوعية العربية والأجنبية القليلة.

1- تباين الرؤى حول دوافع الحرب

رسميًّا، اندلعت الحرب العالمية الأولى في 28 يونيو/حزيران 1914 في أعقاب اغتيال فرانسوا فرديناند، ولي عهد الإمبراطورية النمساوية - المجرية في سراييفو. تتكرر هذه القراءة الأوروبية لأسباب الحرب في جميع كتب التاريخ تقريبًا، لكن، هل هذه الرواية الغربية هي الصحيحة؟ يجوز القول إنها قراءة غير دقيقة؛ إذ يُمكن اعتبار حادثة اغتيال ولي عهد النمسا انعطافًا نحو حرب شاملة، لكن دوافعَ تلك الحرب وجذورَها بدأت في العالم العربي مع الاجتياح الإيطالي لليبيا، والصراع

الألماني - الفرنسي على المغرب الأقصى. وعليه، فتأريخ الحرب اعتبارًا من ساعة الاغتيال فقط هي قراءة تنبع من رؤية مركزية أوروبية.

لقد كانت الحرب الإيطالية - العثمانية في ليبيا سنة 1911، التي أطلقت يد إيطاليا لاستعمار هذه الأخيرة[1]، والصراع الألماني - الفرنسي على المغرب الأقصى، وهي المنافسة التي انتهت بفرض الحماية الفرنسية على المغرب في 1912، كانتا من العناصر التي أسهمت في تسخين أجواء الحرب. ألم يضع اجتياحُ ليبيا السلطنةَ العثمانية، حليفة ألمانيا، في مواجهة مفتوحة مع إيطاليا؟ كما أن المنافسة الألمانية - الفرنسية - البريطانية على المغرب شكّلت أيضًا مقدمة حاسمة لتلك الحرب الشاملة، فقد حاول البريطانيون الاستيلاء عليه، كما انخرط الألمان بقوة في هذا السباق؛ إذ زار الإمبراطور غليوم الثاني (1888-1914) طنجة أواخر 1905، وألقى خطابًا عارض فيه بشدة فرض حماية فرنسية على المغرب؛ ما أدّى إلى أزمة عالمية لم تتسنَّ تسويتها، مؤقتًا، إلا في إطار "مؤتمر الجزيرة" الدولي (conference Algesiras) الذي أطاح بوزير خارجية فرنسا تيوفيل دالكاسي (Théophile Delcassé) استجابة لرغبة ألمانيا. مع ذلك تجدَّدت الأزمة بعد سِتِّ سنوات، لكن هذه المرة في أغادير (جنوب المغرب) على نحو صعَّد من التوتر إلى درجة أوشكت معها الحرب على الاندلاع بين باريس وبرلين. ثم توصل الغريمان إلى اتفاق استطاعت فرنسا أن تنتزع بموجبه المغرب من منافسيها في آخر المطاف، وفرضت معاهدة فاس (30 مارس/آذار 1912)، في مقابل التخلي عن مصر لبريطانيا، بينما خرجت ألمانيا خالية الوفاض. وكان واضحًا أن فرنسا ضَمِنت بضمٍّ تلك القطعة الثمينة إلى تاج إمبراطوريتِها، امتدادًا جغرافيًّا لمستعمَرَتيها في شمال إفريقيا: الجزائر وتونس. غير أن ذلك التقاسم خلّف كثيرًا من المرارة لدى صُنَّاع الرأي العام الألمان، وسرعان ما قاد إلى اشتعال فتيل الحرب.

أمَّا في المشرق العربي ففيما كان البريطانيون يُفاوضون الشريف حسين فوق الطاولة، باشروا، سرًّا، مفاوضات موازية مع فرنسا وروسيا القيصرية لتقاسم تركة

---

(1) البوري، عبد المنصف: **الغزو الإيطالي لليبيا - دراسة في تاريخ العلاقات الدولية**، الدار العربية للكتاب، تونس 1983، ص 6.

الدولة العثمانية، وتحديدًا الولايات العربية. وقاد المفاوضات التي استمرت قرابة شهر عبر تبادل الرسائل، السير إدوارد غراي (Sir Edward Grey)، وزير الدولة للشؤون الخارجية من الجانب البريطاني، والسفير بول كومبـــون (Paul Cambon)، ســـفير فرنسا لدى بريطانيا من الجانب الفرنسي. أمَّا التوقيع فتم في "داونينغ ستريت" يـــوم 16 مايو/أيار 1916 بقلم كلٌ من مارك سايكس (Mark Sykes)، الموظَّف الســـامي في وزارة الخارجية البريطانية، وفرانسوا جورج بيكـــو (François Georges-Picot) السكرتير الأول في السفارة الفرنسية بلندن. وأسفرت المفاوضات عن الاتفاق علـــى تقاسُم ما أصبح يُعرف لاحقًا بالشرق الأوسط إلى خمس منـــاطق. وكـــان يُقصـــد بـــ "الشرق الأوسط" الفضاء المُمتد من البحر الأسود شمالاً إلى المتوسط جنوبًا، ومن البحر الأحمر غربًا إلى المحيط الهندي شرقًا فبحر قزوين، مع المحافظة على الوضع القائم في شبه جزيرة العرب[1]. وقامت بريطانيا وفرنسا بإشراك روسيا القيصرية وإيطاليا في الاتفاق، غير أن الثورة البلشفية التي اندلعت في السنة الموالية رفعت النقاب عن اتفاق سايكس – بيكو، الذي نَشرَت فحواه لاحقـــا صـــحيفة "مانشســـتر غارديـــان" (Manchester Guardian) البريطانية. وفي سياق تلك التفـــاعلات أصـــدر وزيـــر الخارجية البريطاني اللورد آرثر بلفور وَعدهُ التاريخي بمنح اليهـــود وطنًـــا قوميًـــا في فلسطين. ثم ما لبثت القوات البريطانية أن دخلت القدس يوم 11 ديســـمبر/كـــانون الأول 1917، أي بعد شهر واحد من وعد بلفور، فيما أُنزلت قوات فرنسية علـــى الساحل السوري، مع تقسيم بلاد الشام إلى ثلاث مناطق عسكرية، تمهيدًا لفـــرض نظام الانتداب على المشرق العربـــي واقتسامه بين فرنسا وبريطانيا[2].

2- سايكس – بيكو والخارطة الإقليمية الجديدة

يروي موريس هانكاي، سكرتير الحكومة البريطانيـــة، أن رئـــيس الـــوزراء الفرنسي كليمنصو اختلى برئيس الحكومة البريطانية، لويد جورج، في مقر السفارة

(1) انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب للدكتور علي محافظة بعنـــوان: "الآثـــار السياســـية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للحرب العالمية الأولى على فلسطين والأردن".

(2) نفس المرجع.

الفرنسية بلندن بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، فسأل الأول الثاني: "حسنًا، عمَّ ستتناقش؟"، فردَّ جورج: "عن بلاد ما بين النهرين وفلسطين"، وعلّق كليمنصو قائلاً: "أفْصِحْ عمَّا تُريد؟" فأضاف جورج: "أريدُ الموصلَ"، وكانت من حصة فرنسا في مشروع التقاسُم، فأجاب كليمنصو: "ستكون لك". ثم سأل الأخيرُ مُخاطبَه: "هل من طلب آخر؟"، فتابع جورج: "نعم، أريد أيضًا القدس". فردَّ كليمنصو: "ستكون لكَ"[1].

لقد شعر العرب، بعدما انفضح أمر الاتفاق في أعقاب اندلاع الثورة البلشفية عام 1917، بأنهم خُدعوا إذ أخَلَّ البريطانيون بتعهداتهم التي قطعوها للعرب إذا ما ناصروهم ضد العثمانيين، وأن الاتفاق كرَّس ولادة كيانات جديدة أضحت أوطانًا لها رموزُها وراياتُها وشخصيتها القانونية ودساتيرُها ونشيدُها الوطني. غير أن اتفاق سايكس - بيكو لم يرسم بدقة الحدود الجديدة للشرق الأوسط وإنما حدَّد مناطق النفوذ، التي تغيَّرت كثيرًا بعد نهاية الحرب خلال المفاوضات التي أسفرت عن إحداث دول بالصيغة التي عرفناها في القرن العشرين[2]. وحلَّت محل التنوع الإثني والتعايش الطائفي في ظل الدولة العثمانية كياناتٌ وطنية معاصرة أقربُ إلى الدولة/الأمة، واستندت في أساسها الفكري إمَّا على النزعة القومية العروبية أو على الرؤية الإسلامية[3].

بهذا المعنى نحتاج إلى التعمق أكثر في دراسة السياق الجيوسياسي للحرب، لاسيما أن بعض المؤرخين، ومنهم الدكتور سيار الجميل في الفصل المنشور ضمن هذا الكتاب، يؤكدون، بالاستناد على الوثائق الألمانية، أن أحد الأسباب الرئيسة لاندلاع الحرب العالمية الأولى كان سعي ألمانيا للتمدد في المشرق، من خلال

(1) Laurens, Henry: «Je veux Mossoul», dit Lloyd George, *Le Monde-Diplomatique,* http://www.monde-diplomatique.fr/2014/07/LAURENS/50614 (accès: 25/01/2016)

(2) Cheterian, Vicken: Des Frontieres Sans Nations, *Le Monde-Diplomatique,* http://www.monde-diplomatique.fr/2014/07/CHETERIAN/50642 (accès: /01/2016)25

(3) Laurens, Henry. *Histoire du Monde Arabe Contemporain*, Edition Fayard, Paris 2004, p. 50.

مشروع خط السكة الحديد برلين – بغداد، والذي كانت ألمانيا تريد توصيله حتى البصرة والخليج العربي. ويُبرهن ذلك المشروع على سعي القوى العظمى للسيطرة على المنافذ الاستراتيجية وخطوط الاتصالات والنقل التي باتت حيوية في اقتصاد النفط لدى الدول الصناعية[1].

كما أن بعض الأحداث الغامضة جدَّت في الفترة السابقة على الحرب ولم يُكْشَف النقاب عن دوافعها الحقيقية، ومنها اغتيال الصدر الأعظم للدولة العثمانية ذي الأصل العراقي، الفريق محمود شوكت باشا، في 1913، وهو على باب الصدارة العظمى في إسطنبول، قبل أسبوعين من انعقاد المؤتمر العربي الأول في باريس. وكان شوكت مُتعاطفًا مع اللامركزيين العرب، وصديقًا لعبد الحميد الزهراوي أحد أقطاب ذلك المؤتمر، وقد ظلَّ الحادث "لغزًا" حيَّر المؤرخين إلى اليوم.

ويمكن أن نُدرج في إطار هذا النقد للمنهج التأريخي الغربي إهمالَه أيضًا للفضاء الإفريقي جنوب الصحراء (مالي والسودان الفرنسي وتشاد والسنغال وموريتانيا)، الذي جنَّدت السلطات الاستعمارية قسمًا من أبنائه أثناء الصراع، ثم أرسلتهم إلى شمال إفريقيا والمشرق لإخماد الثورات وحركات العصيان المناهضة للاحتلال. وعلى الرغم من إطلاق الرئيس الأميركي توماس ويلسون إعلانه التاريخي، في 1917، الذي أقرَّ بحق الشعوب في تقرير مصيرها، على خلفية الثورة الروسية، فإن العرب لم يَجنُوا شيئًا من ذلك الإعلان؛ إذ بقوا في الغرف الخلفية لمؤتمرات الصلح والسلام، وبخاصة مؤتمري فرساي (1919) وسان ريمو (1920) الذي رسم مصير الولايات العربية العثمانية، ومَهَّد لوضع اتفاقية سلام مع تركيا بعد أشهر قليلة، خلال مؤتمر سيفر. وبموجب اتفاق سان ريمو وُضعت فلسطين تحت سلطة الانتداب البريطاني "لمساعدة اليهود على بناء وطنهم القومي في هذا البلد"، فيما وُضعت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي[2].

---

(1) Laurens, Henry et Cloarec, Vincent: *Le Moyen-Orient au 20e Siècle, Ed. Armand Colin*, Paris 2003, p. 24.

(2) Ibid. p. 42.

3- الصراع على تقاسم المستعمرات

كان أحد الأسباب الرئيسة لاندلاع الحرب، مثلما أسلفنا، اعتراضُ الحلفاء على سيطرة ألمانيا على المستعمرات التي استحوذت عليها في القارة الإفريقية، وهي: التوغو والكاميرون وبوروندي ورواندا وتنزانيا الحالية (تانجانيقا وزنجبار) وناميبيا. وجنَّدت القوى الأوروبية خلال المعارك التي خاضتها ضد ألمانيا للاستيلاء على مستعمراتها أبناء تلك البلدان إمَّا في مهمات عسكرية أو لوجستية، وكانت المعارك طويلة ومُضنية والخسائر في الأرواح فادحة. وبحسب تقديرات مارك ميشال[1] قضى ما بين 1,5 مليون و2 مليوني شخص من الأفارقة المجندين في جنوب الصحراء جرَّاء سوء الأوضاع الصحية وانتشار الأوبئة. وعلى سبيل المثال، فإن اجتياح الكاميرون الذي تطلَّب تجنيد عشرات الآلاف من الرجال، كلَّف الحلفاء 4200 قتيل، عدا الخسائر الكبيرة في صفوف الحمَّالين (الشيَّالين) المُجنَّدين من الكاميرون والدول المجاورة. أمَّا في جبهات شرق إفريقيا فقضى 9 في المئة من القوات المقدَّرة بـ 193,000 رجل الذين جنَّدتهم بريطانيا من بين أبنائها أو استقدمتهم من المستعمرات المجاورة. كما قُتل أيضًا 9 في المئة من أصل مليون حمَّال (شيَّال) جندتهم بريطانيا. ويُقدِّر المؤرخون البريطانيون مُجمل الخسائر البشرية من العسكريين والمدنيين في مستعمرات ألمانيا بشرق إفريقيا بـ 650,000 قتيل، قضى معظمهم نتيجة الأمراض والجوع وأعمال النهب.

كما دفعت إفريقيا ثمنًا باهظًا خلال الحرب جرَّاء إرسال أبنائها للمشاركة في العمليات القتالية على الجبهات في أوروبا أو الاشتغال بأعمال السُّخرة في القطاعات المدنية، وسط مناخ غريب عنهم، خاصة في شتاء 1917 القارس، وهو عام حرب الخنادق، التي قضى خلالها عشرات الآلاف من المجنَّدين العرب والأفارقة من البرد وقسوة الطبيعة. وفي المحصلة بلغت نسبة الأفارقة المُجندين الذين قضوا جرَّاء الحرب أكثر من 22 في المئة في مقابل 17,4 في المئة من المجنَّدين الفرنسيين و15,4 في المئة من الألمان و10,2 في المئة من البريطانيين[2].

---

(1) Michel, Mark: *Les Africains et la Grande Guerre: l'Appel à l'Afrique (1914-1918)*, Karthala, 2003, p. 10.

(2) Michel, Mark: *L'Afrique dans l'Engrenage de la Grande Guerre*, Karthala, Paris 2014, pp. 80-85.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يُرسَل خلالها مُجنَّدون من المستعمرات إلى خارج القارة الإفريقية، وكانت فرنسا هي القوة الاستعمارية الوحيدة إلى حين اندلاع الحرب العالمية الأولى التي استدعت مُجنَّدين من المستعمرات، وخاصة من إفريقيا السمراء، إلى ساحات الوغى الأوروبية، لقتال جيوش أمم مُهيمنة وبيضاء. وأمَّنت القارة الإفريقية لآلة الحرب الفرنسية ثلاثة أرباع المجندين الآتين من إمبراطوريتها الاستعمارية، من بينهم 170 ألفًا من إفريقيا الغربية الخاضعة للاحتلال الفرنسي، وأكثر من 172 ألف مسلم من الجزائر وقرابة 100 ألف مجند من تونس والمغرب، إضافة إلى 40 ألفًا من مدغشقر[1].

إجمالاً، يمكن اختزال الجبهات التي قاتل فيها المُجندون العرب ودفعوا ضريبة بشرية مرتفعة بثلاثٍ، أولها جبهة القوقاز التي تكبَّدت فيها القوات العثمانية أفدح الخسائر في مواجهة الجيش القيصري، وقد استمرت المعارك على هذه الجبهة إلى سنة 1918، أي إلى ما بعد الثورة الروسية. والثانية هي جبهة الدردنيل حيث حاولت جيوش الحلفاء الاستيلاء على إسطنبول، وقد استمرت هذه المعارك من مارس/آذار 1915 إلى يناير/كانون الثاني 1916، وهي التي برز فيها القائد العسكري العثماني مصطفى كمال مُؤسس الجمهورية التركية لاحقًا. أمَّا الجبهة الثالثة فكانت في قناة السويس حيث واجه البريطانيون محاولات الجيش العثماني السيطرة على القناة قبل أن يُفشلوها ويزحفوا شمالاً نحو القدس في 1917 وشرقًا نحو بغداد والموصل في السنة نفسها.

4- التجنيد القسري

في غالب الأحيان كانت عمليات التجنيد تتم بواسطة القوة والعنف، في ظروف مُذلَّة تتراوح بين الإكراه بواسطة الملاحقات والاعتقالات، وبين شراء ضمائر شيوخ القبائل بالعطايا والهدايا. وكانت تلك العمليات على درجة من القسوة والهمجية ما أدى إلى حدوث انتفاضات بين المجندين، مثلما فعل المجندون التونسيون في ميناء بنزرت، أو الجزائر ومثل حركة التمرد الواسعة في كل من مدغشقر وفولتا العليا (بوركينا فاسو حاليًا).

(1) Michel, Mark, L'Afrique dans l'Engrenage de la Grande Guerre, p. 90.

وكان بعض الكتّاب والسياسيين الفرنسيين دعوا طيلة سنوات خلَتْ قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى لجعل إفريقيا جنوب الصحراء "خزّان القوة الفرنسية". وفعلاً برز الأفارقة ببسالتهم خلال المعارك، وخاصة في معارك إبريل/نيسان 1917 عندما أرسلت القيادة الفرنسية الجيش السادس، المؤلّف أساسًا من الأفارقة، إلى منطقة شومان دي دام (Chemin des Dames) من أجل المحافظة على دماء الفرنسيين. وكانت النتيجة أن 45 في المئة من القوات التي كان يقودها الجنرال شارل مانغان تعرّضت لإصابات بينما احتُسب 20 في المئة من عناصرها في عداد القتلى أو المفقودين؛ ما أضفى على هذا الجنرال لقب "جزار السود".

في المقابل، لم يقبل الألمان أن يُهزموا ويُهانوا وتُحتل أراضيهم على أيدي الجنود السمر. والتقطت الدعاية القومية الاشتراكية بعد الحرب ذلك الشعور بالمرارة فجعل منه أدولف هتلر ركنًا أساسيًّا في كتابه "كفاحي" مُحذّرًا من تعريض القارة الأوروبية لـ "الهجانة" التي وقعت فرنسا في شباكها باعتبارها تتجه نحو التحول إلى دولة إفريقية/أوروبية على الصعيد العِرقي. وعلى هذا الأساس كان مصير الأفارقة القليلين الناجين من الحرب هو إمّا تعقيمهم أو تصفيتهم بكل بساطة.

لم يقتصر المجهود الحربي على المهمات القتالية في ساحات الحرب، وإنما شمل أيضًا العمال المُجندين في الأنشطة المدنية، للحلول محل القوى العاملة التي أُرسلت للجبهات في البلدان المشاركة في الحرب. وأتى معظم هؤلاء المجنّدين المدنيين من المغرب العربي وَوُزِّعوا على المدن الكبرى، وخاصة باريس وليون ومرسيليا وسانت إتيان، وأحيانًا في بعض المناطق الريفية للحلول محل العمال الزراعيين الذين استُدعوا للجبهة. وطرح هذا الوضع مشاكل جمّة بعدما وضعت الحرب أوزارها، فهؤلاء العمال الذين حُشروا في ما يُشبه المعازل (الغيتوات) وجدوا أنفسهم مُهمّشين ومنبوذين من أهل البلد بعد الحرب، وتجاهلتهم حتى المنظمات النقابية والأوساط العمالية.

أمّا بريطانيا فعبّأت من سكان مصر وحدِها مليونًا ومئتي ألف مُجنّد من "القوات المُعاونة" خلال الحرب في وقت كان فيه تعداد سكان مصر لا يزيد عن

14 مليون نسمة[1]. وكانت التعبئة تتم مرتين أو ثلاث مرات سنويًا، ويُستدعى منها في كل مرة حوالي 135 ألف رجلٍ، وشاركت "فيالق العمال" المصرية في بناء التحصينات والجسور ومدِّ أنابيب المياه والخطوط الحديدية عبر الصحراء وحمل الأثقال على الظهور. وتمّ استخدام أكثر من ثمانية آلاف في العراق، أمَّا في عام 1916 فتمَّ إرسال أكثر من 10 آلاف من العمال والفلاحين إلى ميادين القتال على الجبهة الأوروبية في فرنسا. وظلّت القوات المصرية تُقاتل بعد نهاية الحرب في بيروت ودمشق وفلسطين حتى عام 1920.

ولا يزال الفلكلور المصري يحفظ، بين ما يحفظه، ذلك الموال الحزين الذي يبدأ بالمطلع الشهير "بلدي يا بلدي والسلطة أخذت ولدي، يا عزيز عيني وأنا بدي أرَوَّح بلدي"، والذي تردد في أنحاء مصر خلال سنوات الحرب العالمية الأولى، تعبيرًا عن الظُّلم الذي لقيه الفلاحون من السلطة العسكرية الإنكليزية في تلك الفترة[2]. أمَّا المغاربة على سبيل المثال فقُتل منهم ما لا يقل عن 12000 رجل من أصل 45000 من الرماة والفرسان (السباهي) الذين انخرطوا مباشرة في جبهات فرنسا والمشرق، أي ما نسبته 26,6 في المئة من العدد الإجمالي للمُجنَّدين. وتتجاوز هذه النسبة بشكل واضح حجم الخسائر التي تعرَّض لها المُجندون الفرنسيون في الحرب (22 في المائة)[3]. يُضاف إلى هؤلاء من قضوا من الجوع، خاصة في جبل لبنان، إذ يُقدَّر عددهم بـ800 ألف شخص[4].

---

(1) انظر الفصل الرابع في هذا الكتاب للدكتور علي عفيفي غازي بعنوان: "مصر والحرب العالمية الأولى بين 1914 و1918".

(2) نفس المرجع.

(3) انظر الفصل التاسع في هذا الكتاب للدكتور محمد بكراوي بعنوان: "مساهمة المغرب في الجهد الحربي الفرنسي خلال الحرب العالمية الأولى".

(4) Dakhli, Leyla: Comment la Première Guerre Mondiale a Transformé le Proche-Orient?, *Orient XXI*, http://orientxxi.info/l-orient-dans-la-guerre-1914-1918/comment-la-premiere-guerre-mondiale-a-transforme-le-proche-orient, (accès: 25/012016)0734

5- الإعدامات الجماعية

من أكثر جوانب الحرب العالمية الأولى إثارة للجدل بين المـؤرخين، تقـدير حجم الإعدامات الميدانية التي تم تنفيذها في حق المُجندين الجُدد. ففيمـا قلَّلت كتاباتُ غالبيةِ المؤرخين الغربيين، وخاصة منهم الفرنسيين، من أعدادهم، حـاول آخرون استنطاق الوثائق وتقصِّي المعلومات لتقدير حجم الظاهرة. وقـد لاحـظ المؤرِّخ الفرنسي، جيلبير مينيي، في مقال نشره في 1976 أن العقاب الـذي كـان يلجأ له الضباط الفرنسيون للقضاء على تمرد المُجندين تمثَّل في قتل واحد من كـل عشرة جنود عشوائيًّا، حتى يكونوا عبرة للجميع[1]. ورجَّح مينيي أن كثيرًا من تلك العمليات لم تُسجَّل في المُراسلات لأن "الرقابة لم تكن تسمحُ في تلك الفترة بورود أخبار تنال من معنويات الفرنسيين". وأوضح أنه كلما تقـدم الـزمن اختفـت المعلومات الخاصة بإعدام المُجندين المتمردين من الأرشيف الحربـي الفرنسي. وعزا ذلك إلى أن التعليمات كانت تصدر كتابيًّا قبل انتشار الهاتف، ثم باتت القيـادات العسكرية تعتمد على الاتصالات الهاتفية لإعطاء تعليمات التصفية والإعدامات؛ ما جعل من الصعب العثور على أثر مكتوب لها[2]. ومن أبرز الحوادث المشـهورة في الحرب العالمية الأولى بهذا الصدد إقدام الضباط الفرنسيين على إعدام عـدد غـير معلوم من المُجندين الجزائريين والتونسيين في مدينة زيلبيك (Zillebeeke) شمـال فرنسا، يوم 15 ديسمبر/كانون الأول 1914، أي بعد نحو شهر من إطلاق الدولـة العثمانية فتوى الجهاد ضد الفرنسيين والبريطانيين.

6- تصدير المواد الخام والمنتوجات الزراعية والصناعية

ينبغي أن نضيف إلى جميع تلك الأعبـاء الـتي تحملتـها البلـدان العربيـة والإفريقية جرَّاء الحرب، عبئًا إضافيًّا يخص تموين البلدان الأوروبية المتحاربة بالغذاء من كل الأنواع النباتية والحيوانية، خصوصًا في ظل تراجـع الإنتـاج المحلـي في

(1) Meynier, Gilbert: Pour l'Exemple Un Sur Dix, les Decimations en 1914, *Revue Politique Ajourd'hui*, Janvier-Fevrier, No. 1976, Paris 1976 pp. 55-70.

(2) Ibid.

أوروبا بسبب نقص الأيدي العاملة. وقد سبَّب ذلك مجاعات خاصة في لبنان وفلسطين، إذ اتبع الوالي جمال باشا سياسة تجويع قاطعًا خطوط الإمدادات التجارية ومانحًا السلطات التركية احتكار تجارة المواد الغذائية؛ إذ منع استيراد جبل لبنان للحبوب من مناطق الداخل وقطع مسالك الإمدادات العراقية – السورية عبر الجزيرة الفراتية؛ مما جعل السكان يعانون أشد المعاناة في كلٍّ من سوريا والعراق[1].

أمَّا في المغرب فتسبَّب الانقطاع المديد لمواد الاستهلاك الأساسية في إيجاد مناخ من غلاء الأسعار زادت من تفاقمه المضاربات والبيع في السوق السوداء. وكذلك الأمر في الجزائر وتونس ومصر والسودان وليبيا، بسبب توجيه القسم الأكبر من الإنتاج المحلي إلى البلدان الأوروبية المشاركة في الحرب. وشمل هذا المجهود الحربي إرسال 120 ألف عامل من شمال إفريقيا إلى العمل في مصانع السلاح والذخيرة الفرنسية.

7- نتائج الحرب

أ- خارطة جديدة

كانت حروب الماضي تقرِّر مصير الشعوب المتحاربة فقط، أمَّا الحرب العالمية الأولى فحدَّدت مصير كل الشعوب الضعيفة التي كانت فريسة للإمبراطوريات الاستعمارية المُتصارعة على النفوذ. ولم تضع الحرب أوزارها إلا وملامح خارطة إقليمية جديدة قد تبلورت مع وضع البلدان العربية تحت مظلة الاحتلال البريطاني أو الفرنسي أو الإسباني، على النحو الذي رسَمته قرارات مؤتمر فرساي (1919)، بعدما خضع معظمها للحكم العثماني طيلة أربعة قرون. وقد أسفرت نتائج ذلك المؤتمر عن أفول أربع إمبراطوريات، هي: الألمانية والقيصرية والعثمانية والنمساوية – المجرية. ولجأت بريطانيا وفرنسا إلى القوة لتطبيق اتفاق سايكس – بيكو، الذي لقي مقاومة

(1) انظر الفصل الأول من هذا الكتاب للدكتور سيار الجميل بعنوان: "العراق خلال الحرب العالمية الأولى: الافتراق التاريخي".

مُمثلة في الانتفاضة الكمالية في الأناضول. ثم أُعطِيَ الاتفاق لباسًا قانونيًا في مؤتمر سان ريمو (1920) من خلال تقسيم المشرق العربي إلى دول مُنفصلة ومنح "جمعية الأمم" تفويضًا للقوتين الاستعماريتين: بريطانيا وفرنسا للانتداب على تلك الدول.

وهكذا، فُتحت صفحة جديدة في تاريخ العالم العربي كانت مُتوقّعة منذ أن خسرت السلطنة العثمانية الحروب البلقانية (1912-1913)، التي انتهت بهزائم مُتتالية وانتزاع الأراضي الأوروبية المُتبقية لها من بين أيديها. وبعدما كانت الفكرة القومية مشروعًا ذهنيًّا لدى النُّخب العربية الشابة تأسَّس في مؤتمر باريس، دافِعُهُ خيبةُ الأمل من الضبَّاط الإصلاحيين العثمانيين والدعوة إلى اللامركزية، تحولت تلك الفكرة إلى "ثورة" مع شريف مكة الحسين بن علي، المُتحالِف مع البريطانيين ثم إلى دولة، بتربُّع فيصل بن الحسين على عرش سوريا في 1920، قبل أن يُزيحه الفرنسيون من العرش وينتقل إلى العراق.

وبرز النفط كعنصر رئيس في المنافسة بين الدول الأوروبية المنتصرة في الحرب؛ إذ "أُضيف الصراع من أجل السيطرة على أكبر المخزونات الدولية النفطية في العالم إلى الجيوبوليتيكا التقليدية القائمة على طريق الهند والسيطرة على الأماكن المقدسة للديانات التوحيدية"[1].

بهذا المعنى تحول الشرق العربي، باعتباره مصدرًا أساسيًّا للذهب الأسود، إلى مسرح للمنافسات الدولية في القرن العشرين. وفي الوقت نفسه اندلعت انتفاضات بعد نهاية الحرب العالمية الأولى رفضًا للمصير الذي سطره الغربيون للمنطقة، أبرزها في العراق وسوريا والمغرب والسودان. فبين يوليو/تموز 1920 وفبراير/شباط 1921، شهدت الأرض المعروفة عند البريطانيين باسم بلاد الرافدين أو العراق اليوم، "انتفاضة عربية كادت تُلحق هزيمة ساحقة بالإمبراطورية البريطانية". وكتب عالم الاقتصاد والمؤرِّخ البريطاني، أيان روتلدج، في كتابه بعنوان "عدوٌّ في الفرات: الاحتلال البريطاني للعراق والثورة العربية الكبرى بين 1914

---

(1) لورانس، هنري: **اللعبة الكبرى - الشرق العربي المعاصر والصراعات الدولية**، ترجمة محمد مخلوف، الطبعة الأولى، دار قرطبة، قبرص 1992، ص 47.

و1921"، أنّ "ثورة عام 1920 في العراق شكّلت الانتفاضة المسلحة الأخطر على الحكم البريطاني في القرن العشرين"[1].

ب- نشوء الحركات الوطنية

بالإضافة إلى التداعيات الجيوستراتيجية للحرب، كان لها أيضًا تأثير حاسم في ظهور الحركات الإصلاحية والأحزاب الوطنية في العالم العربي، التي تشجعت بإعلان مبادئ الرئيس ويلسون عن حق الشعوب في تقرير مصيرها من جهة، وبالثورة الروسية من جهة أخرى. وبهذا المعنى شكّلت فترة ما بين الحربين العالميتين مرحلة نضج الحركات الوطنية وتبلورها فكريًّا وإعلاميًّا وتنظيميًّا. وهذا ما جعل المؤرخ الجزائري الراحل، أبا القاسم سعد الله، يعتبر أنه "برغم ما قيل عن سلبيات الاستعمار فإنه كان للكثير من الشعوب الصدمة التي أيقظتها لتكتشف هويتها ومصيرها"[2]. وتكاد هذه التأثيرات تكون مشتركة بين البلدان العربية، فلم يمض وقت طويل على نهاية الحرب في نوفمبر/تشرين الثاني 1918 حتى انفجرت أكبر ثورة عرفتها مصر في تاريخها الحديث، وهي ثورة 1919، إلى جانب ظهور حركة داعية للوحدة الثقافية كانت تحمل لواءها "رابطة الشرق" في القاهرة، التي كان يتزعمها عبد الحميد البكري وأحمد زكي باشا وأحمد شفيق وجمعية الشبّان المسلمين التي يترأسها رجل الحزب الوطني عبد الحميد بك سعيد[3]. كما أن سعد زغلول الذي كان يُنتقَد لمواقفه الانعزالية، سارع لدى اقتحام القوات الفرنسية سوريا، إلى توجيه "نداء إلى الأمة (المصرية)" من أجل "نجدة سوريا التي تربطنا بها

---

(1) طربوش، سوزانا: **انتفاضة عراقية كادت تُلحِق هزيمة ساحقة بالإمبراطورية البريطانية**، المنتدى العربي للدفاع والتسليح، 1 سبتمبر/أيلول 2014، الرابط:
http://defense-arab.com/vb/threads/82219
(تاريخ الدخول: 15 يناير/كانون الثاني 2016).

(2) سعد الله، أبو القاسم: **مجلة التسامح**، العدد الثاني 2003، الرابط:
http://tasamoh.om/index.php/nums/view/2/35
(تاريخ الدخول: 15 يناير/كانون الثاني 2016).

(3) رزق، يونان لبيب: **موقف بريطانيا من الوحدة العربية 1919-1945**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1999، ص 34-35.

روابط وثيقة من تاريخ ولغة ودين وعادات وجوار"، وحثّ الناس على المشـــاركة في حملة تبرعات افتتحها بنفسه[1]. أمّا في بلدان المغرب العربـــي، فإن "الاضطهاد والهروب من الخدمة العسكرية والغيرة الوطنية قد ساعدت على خروج عدد مـــن قادة هذه الأقطار إلى المشرق وإلى أوروبا وتأليف لجان وجمعيات لتحرير بلـــدانهم. وكان ذلك مدعاة للتنسيق فيما بينهم والبحث عن الأنصار في الدول الأخـــرى، ومخاطبة الرأي العام العربـــي والإسلامي بخطاب الاستغاثة والتعـــاون"[2]. لكـــن الأهم من الحركات والصحف التي ظهرت في المنفى هو النهوض القوي للحركـــة الوطنية في الداخل؛ فقد كانت الحرب العالمية الأولى "مدرسة تعلّم فيها الشـــبابُ الوطنيةَ وقيادة الأحزاب والاعتماد على الإعلام والبحث عن الأصدقاء، وتشـــجع هذا الشباب بتصريح ويلسون عن تقرير المصير والثورة الروسية علـــى الرأسماليـــة والاستعمار، ولذلك كانت سنوات 1919-1939 تُمثّل مرحلـــة النضـــج لـــدى الحركات الوطنية والإصلاحية في المغرب العربـــي"[3]. ويمكن القـــول: إن ذلـــك النضج تجسد في ميلاد الحزب الحر الدستوري في تونس سنة 1920 بزعامة الشـــيخ عبد العزيز الثعالبـــي ثم "جامعة عموم العَمَلَة التونسيين" (أول نقابـــة عُمّاليـــة في العالم العربـــي) سنة 1924، وتجسد في المغرب في حركة المقاومة العسكرية الـــتي أطلقها الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابـــي في عشرينات القرن الماضـــي، ثم في المقاومة السياسية التي تبلورت من خلال "كتلة العمل الوطني" فحزب الاستقلال في الثلاثينات، والتي قادها إصلاحيون منهم الشيخ بوشعيب الدكالي ومحمد العتابـــي وعلال الفاسي. أمّا في الجزائر فبرغم الطابع الاستيطاني للاستعمار الفرنسي، برزت نخبة وطنية مع ظهور جماعة "الشباب الجزائري" أسوة بـــ "الشـــباب التونســـي"، وطالب الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر بتطبيق حقّ تقرير المصير على الجزائـــر فنفاه الفرنسيون إلى خارج الجزائر، ثم ظهر "نجم شمال إفريقيا" في 1926، الـــذي

(1) قرقوط، ذوقان: **تطور الفكرة العربية في مصر 1805-1936**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 1972، ص 285.

(2) سعد الله، نفس المرجع.

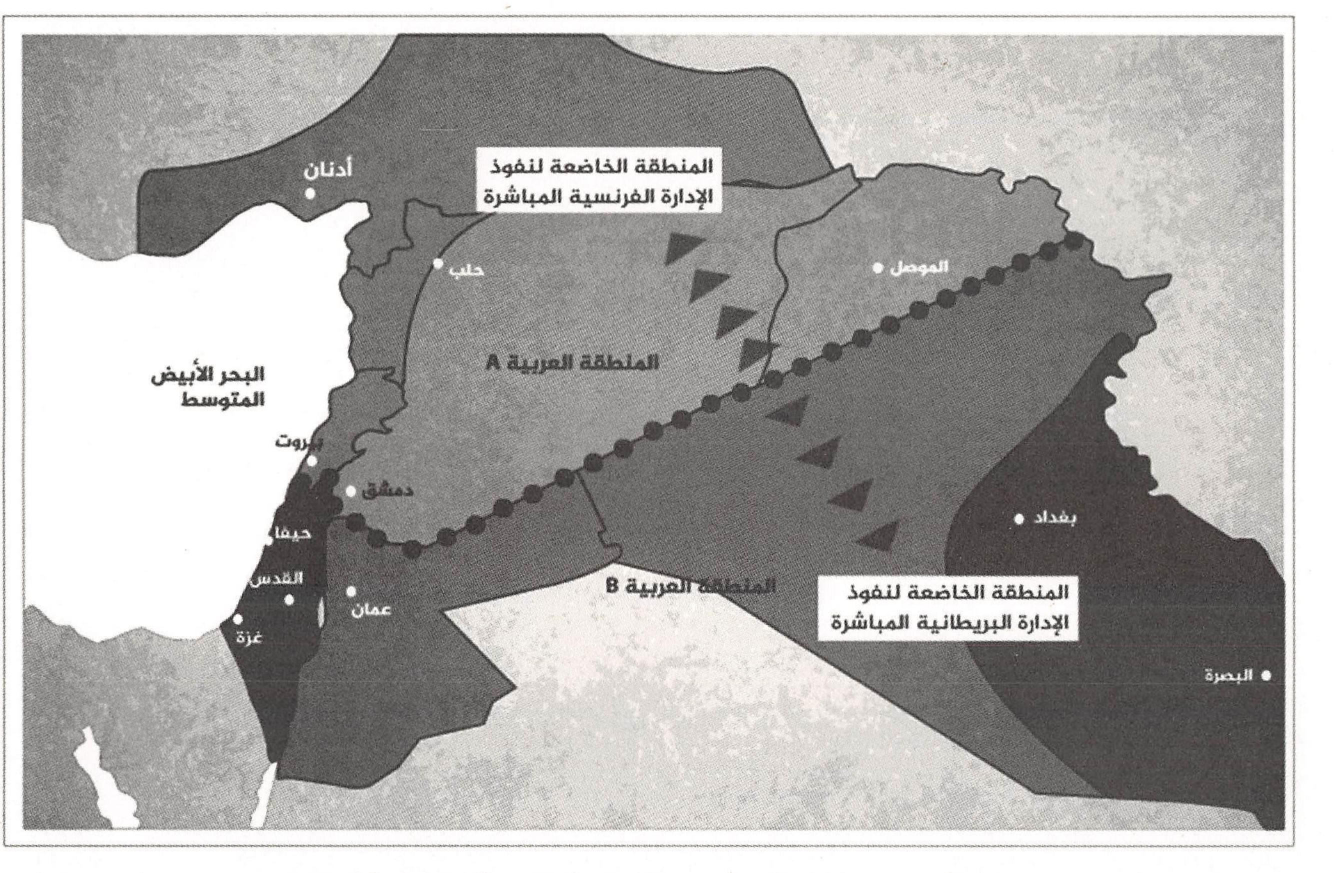
(3) سعد الله، نفس المرجع.

طالب زعيمه، مصالي الحاج، في 1927، باستقلال الجزائر. وعندما حظرت السلطات الفرنسية "نجم شمال إفريقيا" تأسس "حزب الشعب" الذي خطّط للثورة ضد فرنسا، قبل تأسيس "جمعية العلماء" بزعامة الشيخ عبد الحميد بن باديس في 1931. وأبصرت ليبيا نهوضًا مُماثلاً لكن بخصوصيات محلية؛ إذ ظهرت الحركة السنوسية برداء صوفي في البداية، لكنها أعطت مفهومًا مختلفًا للحركات الصوفية؛ إذ رسَّخت التعليم والتكوين الروحي والعسكري وتنقية الدين الإسلامي من البِدع، وقاومت الاستعمار الإيطالي وكان من أعلامها الشيخ عمر المختار.

ولعب ظهور الصحافة الوطنية دورًا حاسمًا في ترسيخ الشعور الوطني وإيصال أصوات الزعماء الإصلاحيين والقادة السياسيين إلى الرأي العام، من أمثال: الثعالبي وابن باديس وعلال الفاسي والشقيقين محمد وعلي باش حامبة. وكان للأمير شكيب أرسلان دور مهم في ربط الصلة بين قادة الحركات الوطنية في الجزائر وتونس والمغرب، بما في ذلك شمال المغرب (المنطقة الإسبانية). وستكون تلك الحركات الاستقلالية أبرز دينامية في المجتمعات العربية في فترة ما بين الحربين العالميتين، وهي التي قادت إلى تشكُّل الدولة الوطنية في المشرق والمغرب على السواء، بعد الحرب العالمية الثانية، على الصورة التي وضعها اتفاق سايكس - بيكو.

رشيد خشانة

فبراير/شباط 2016



خريطة سايكس بيكو وتظهر فيها مناطق النفوذ الفرنسية والبريطانية في المشرق

العراق خلال الحرب العالمية الأولى: الافتراق التاريخي

د. سيار الجميل
بروفسور في عدة جامعات والمدير التنفيذي لمشروع
(ICNIC) للثقافات البشرية في كندا

كان العالم قبل مئة سنة يختلف تمامًا عما هو عليه اليوم. كان كلٌّ من بريطانيا وفرنسا وألمانيا له قوته الكبرى في العالم، مع تفوق كل من بريطانيا وفرنسا في مستعمراتهما المنتشرة في العالم، في حين كانت ألمانيا قد برزت كقوة إمبراطورية اتحادية في قلب أوروبا، وهي تطمح إلى أن تتمدد بمصالحها نحو الشرق أيضًا بتحالفها مع العثمانيين[1]. كان العراق جزءًا مهمًّا من الإمبراطورية العثمانية ويمتد بتوابعه نحو الخليج العربي وبمصالح الدولة إلى الشرق كله.

(1) Woodward, David R: *Hell in the Holy Land: World War I in the Middle East,* Lexington, 2006, pp. 7-9. See also: Broadberry, S.N. and Harrison, Mark: *The Economics of World War* I, Cambridge University Press, 2005, p. 117.

أولًا المدخلات

1- الاحتلال البريطاني للعراق

كان العثمانيون في العراق قد أنهكتهم التوغلات البريطانية في قلب العـــراق، الذي كان يستقبل على امتداد القرن التاسع عشر البعثـــات الأجنبيـــة والموفـــدين والآثاريين والمبشِّرين والاستكشافيين[1]. وبالرغم من الإصلاحات الشـــكلية الـــتي حدثت حينذاك، بقيت البلاد بائسة وضعيفة، وقد أهلكتـــها المجاعـــات والأوبئـــة والكوارث، ففقدت كثيرًا من عناصر قوتها[2]. وكان الناس يتطلعـــون إلى حيـــاة جديدة مع بدايات القرن العشرين.

كما كانت هناك نخبة من المثقفين العراقيين الشباب الذين درسوا في كليـــات إسطنبول سواء من العسكريين أم من المدنيين، وهؤلاء كانوا مســـتنيرين إلا أنهـــم فقدوا الأمل في العثمانيين سواء من خلال الإصلاحات والتنظيمات أم الدســـتور الذي كان يُدعى بـــ "المشروطية". وبلغت هذه النزعة مداها على عهد الاتحاديين، الذين جاؤوا إلى السلطة في إسطنبول عام 1908، فضلاً عمَّن كان ينزح إلى العراق من مهاجرين ولاجئين مضطهدين من الأناضول ليستقبلهم سكان العراق، وأغلب هؤلاء من الأرمن والأكراد[3].

كان العراقيون يتطلعون إلى المتغيرات الجديدة من أجـــل أن يتخلصـــوا مـــن الاستبداد والتخلف والظلم الذي حاق بهم، فضلاً عن خلاصهم مـــن الأحـــوال السيئة التي خلقتها ظروف الحرب القاسية. لقد حكم بغداد قبل احتلالها آخرُ ثلاثة ولاة عثمانيين، وهم: سليمان نظيف باشا إلى العام 1915، ونـــور الـــدين باشـــا (1915)، وقائد الجيش العثماني في العراق خليل باشا (1917-1915).

---

(1) Longrigg, Stephen H: *Four Centuries of Modern Iraq*, Oxford University Press, 1925, pp. 290-8.

(2) Al-Jamil, Sayyar: "Irak", in *The History of the Scientific and Cultural Development of Mankind*, New Edition, UNESCO, Paris, 1998, Vol. II, pp. 212-8.

(3) الجميل، سيار: زعماء وأفندية: **الباشوات العثمانيون والنهضـــويون العـــرب**، ط1، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت وعمّان 1997، ص 130-131.

2- التوازن المفقود والضربة الاستباقية

كانت القوة الإمبراطورية البريطانية في الشرق الأوسط تتركز في القاهرة، في حين تركزت القوة البريطانية في الشرق بالهند. ولما كان الخليج العربي وقع منذ زمن بعيد في أيدي القوة الثانية فإن مشروع احتلاله سيُنفذ بواسطة تلك القوة الأنغلوهندية في ضربة بريطانية استباقية؛ إذ نزلت قوة عسكرية أنغلوهندية بالبصرة بأوامر من لندن[1].

كان الجيش العثماني/التركي مؤلفًا بتشكيلاته المتنوعة من قرابة 600 ألف مقاتل، فيما كانت القوات التركية مُقسَّمة إلى 38 قسمًا. لكن أغلب مقاتليها كانوا من نوعية غير معروفة وغير مؤهَّلة لخوض الحرب؛ إذ أتى أغلبهم بقوة النفير العام، وكانوا لا يحملون أية عقيدة عسكرية أو أي اندفاع للقتال[2]. لكن البريطانيين كانوا ينظرون إلى تحالف الإمبراطورية العثمانية العجوز مع ألمانيا نظرة تخوف لأن ذلك التحالف يشكّل تهديدًا خطرًا للإمبراطورية البريطانية، ورأوا أن أفضل مكان لتحقيق مكاسب استراتيجية هو ضربة تتمثل في احتلال العراق باعتباره أصعب منطقة في الشرق الأوسط، وهكذا نزلت القوة الأنغلوهندية على الفور في كل من الفاو والبصرة جنوبي العراق باعتبارهما فوهة الخليج العربي الشمالية[3].

3- استراتيجية بريطانيا من خلال العراق

احتلت القوات البريطانية جنوب العراق قرب مصَبِّ شطِّ العرب الذي يتكون من التقاء نهري دجلة والفرات. واندفعت، بعد قتال شديد مع الجنود الأتراك، لتُكمل أهم عملية حماية لخط أنابيب النفط الأنغلوفارسية، وهو أمر حيوي

(1) Porter, Andrew: *The Nineteenth Century: The Oxford History of the British Empire Volume III.* Oxford University Press, 1998, Vol. 2, pp. 38-78.

(2) Erickson, Edward J: *Ottoman Army Effectiveness in World War I: A Comparative Study*, Routledge, New York, 2007, pp. 67-68.

(3) Howard, Harry N: *The Partition of Turkey: A Diplomatic History, 1913-1923,* H. Fertig, 1966, pp. 67-9.

بالنسبة للبحرية البريطانية، وكسر المنفذ البحري نحو الخليج العربي بحرمان العثمانيين منها أولا، وإحكام القبضة البريطانية على المجال الحيوي للتجارة العالمية ثانيا. كانت المهمة استراتيجية وحسّاسة في منطقة الخليج العربي، ليس لحرمان العثمانيين من تلك الفوّهة البحرية العراقية فحسب، بل لإيقاف استراتيجية ألمانيا في الشرق الأوسط ومنع نفوذها في المجال الحيوي للخليج العربي. وفي ذلك ترجمة حقيقية لأهم أهداف الحرب ضد ألمانيا، التي كانت تسعى للتمدد من خلال مشروعها لخط سكة حديد برلين - بغداد إلى كلٍّ من البصرة والخليج العربي. وهذا ما كشفت عنه وثائق جديدة أكدت أن ذلك المشروع الألماني شكّل أحد أهم أسباب اندلاع الحرب العالمية الأولى!

في غضون أسابيع تحركت أجزاء من القوة البريطانية المركزية لتضرب مرة أخرى في مكان استراتيجي آخر هو قناة السويس لتُحكِم، من خلال البصرة شرقًا والسويس غربًا، السيطرةَ على شبكة الاتصالات بين الشرق والغرب، وقامت بهجوم مباغت على قناة السويس أطلقت عليه اسم "حبل الوريد" في بريطانيا. حدثت تلك المحاولة في أوائل فبراير/شباط 1915، أي بعد أشهر من احتلال بريطانيا البصرة. وإذا كان الشعبان في العراق ومصر لم يشعرا بقيمة ما لديهما من ميزات استراتيجية في مجالين حيويين، فإن الشعبين بدءا التحرك ضد هذا القادم الجديد، خاصة لما بدأت تتبلور لأول مرة نزعة المواطنة وارتباط كل شعب بأرضه وأهله[1].

4- بريطانيا وألمانيا إزاء العراق والخليج العربي

بدا للمؤرخين لاحقًا أن العراق كان هدفًا استراتيجيًا للبريطانيين لمنع الألمان من السيطرة عليه ومن ثم سيطرتهم البرية على الخليج العربي. وكانت الاعتبارات العسكرية في خدمة الأهداف السياسية. وكان العثمانيون يريدون الإبقاء على

(1) Butler, Daniel: *Shadow of the Sultan's Realm: The Destruction of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East*, Potomac Books, 2011, pp. 34-9.

بغداد بأي ثمن من خلال الدعم اللوجيستي الضروري للدفاع عنها. وفي نفس الوقت كان البريطانيون يعتبرون سقوط بغداد هدفًا استراتيجيًا لهم، ليس من أجل الحفاظ على وجودهم في الخليج العربي والمحيط الهندي وحسب، بل لجعله منفذًا حقيقيًا لهم في عموم الشرق الأوسط بعيدًا عن ألمانيا(1). وكانت الحكومة البريطانية في الهند تشعر بالقلق لأن الثورة ضدها بدأت في كل من بلاد فارس وأفغانستان بعد اشتعال الأوضاع هناك، فإن لم يسقط العراق في أيديهم سيكون وجودهم في الخليج العربي والهند مهددًا، وقد علَتِ الأصوات في بريطانيا من أجل الإبقاء على هيبة بريطانيا في العالم الإسلامي(2).

لقد عانت القوات البريطانية في حربها في أصقاع العراق من صعوبات بيئية ومناخية وجغرافية لم تتوقعها؛ إذ كانت مسارح العمليات تواجه شعبًا صعبًا أغلبه من العشائر العربية سواء كانت تقيم في البرِّ أو عند ضفاف الأنهار والأهوار. لم تعتد القوات البريطانية على مهاجمة الذباب والبعوض بشكل أدَّى إلى تفاقم الأمراض والأوبئة، مع الشمس المحرقة صيفًا في النهار وبرودة ليالي الشتاء، والغبار حاجب الرؤية والطين الصعب خلال موسم الأمطار، إلى جانب فيضانات دجلة والفرات في فصل الربيع. وبقدر ما عانت القوات البريطانية في العراق برًّا ونهرًا، عانت قوات بريطانية أخرى تقدمت من مصر نحو فلسطين عبر صحراء سيناء بعواصفها الرملية ودرجات الحرارة الساخنة والعطش القاتل؛ مما جعلهم يبحثون عن حلول عملية بمد أنابيب مياه وبناء سكة حديد(3).

(1) Besirli, Mehmet: *Die Europäische Finanzkontrolle im Osmanischen Reich der Zeit von 1908 bis 1914. Die Rivalitäten der britischen, französischen und deutschen Hochfinanz und der Diplomatie vor dem ersten Weltkrieg am Beispiel der türkischen Staatsanleihen und der Bagdadbahn*, Berlin 1999, pp. 5-9. See also: Earle, E. M: *Turkey, The Great Powers, and the Bagdad Railway,* Russel and Russel, 1923; reprint 1966, pp. 113-9.

(2) McMeekin, Sean: *The Berlin-Baghdad Express: The Ottoman Empire and Germany's Bid for World Power*, Harvard University Press, 2010, pp. 212-39.

(3) Barker, A. J. *The Bastard War, The Mesopotamia Campaign of 1914-1918,* Dial Press, 1967, pp. 96-97.

ثانيًا: مراحل الحملة البريطانية على العراق

1- لماذا العراق؟

كان التحالف بين العثمانيين والألمان قد غدا واقعًا حقيقيًّا لمقارعة الأطماع البريطانية والفرنسية من جانب والأطماع الروسية من جانب آخر وهي العدو اللدود للعثمانيين، ولها مطامعها في المياه الدافئة التي لا يمكن الوصول إليها من دون العراق[1].

كان البريطانيون والفرنسيون قد رصدوا العراق منذ زمن بعيد لكونه حلقة وصل بين الشرق والغرب[2]، وكان العراق عثمانيًّا منذ أربعة قرون مضت، أمَّا السبب المركزي الذي ظلَّ خفيًّا لعقود وراء رصد بريطانيا للعراق بالتحديد، فكان يتمثَّل بقوة هذا البلد الاقتصادية وثرواته التي ساعدته منذ آلاف السنين على بناء حضاراته عبر التاريخ.

وأخذ الصراع يتبلور أوروبيًّا بين الألمان والإنكليز على العراق من خلال مشروعات ألمانيا التي كانت متحالفة مع العثمانيين لبناء سكة حديد برلين - بغداد، ومحاولتها الامتداد بالخط نحو البصرة والخليج العربي[3]. فكان أن سبَّب ذلك صراعًا خفيًّا بين الطرفين ليس على العراق وحده، بل على البحر الذي يقف عند رأسه[4]. ودلَّت الوثائق المكتشفة حديثًا في كلٍّ من ألمانيا وبريطانيا على أنَّ تحالف الدولة العثمانية مع الألمان قد خدم البريطانيين في التخطيط للسيطرة الكولونيالية على العراق، وأن الصراع بين الطرفين على العراق والخليج من خلال دور سكة

---

(1) الوردي، علي: **لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث**، ج4، دار كوفان، 1992، ص 329. راجع أيضا: العلاف والشبيبي: **بغداد القديمة**: كتاب مصور يضم صفحات مطوية عن الحالة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية من عهد الوالي مدحت باشا إلى عهد الاحتلال البريطاني من سنة 1286 هـ - 1869 م إلى سنه 1335 هـ 1917 م)، بغداد 1960، ص 257.

(2) Fromkin, David: *A Peace to End All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East*, Avon Books, 1989, pp. 85-7.

(3) Besirli: *Die europäische Finanzkontrolle im Osmanischen Reich*, pp. 86-9, -9, 211-9.128

(4) Cato, Conard: *The Navy in Mesopotamia, 1914-1917*, Constable & Co., 1917, pp. 21-9.

حديد برلين-بغداد كان واحدًا من أسباب اندلاع الحرب العالمية الأولى كما أسلفنا.

وجاء اكتشاف النفط في العراق ليُضيف عنصرًا آخر دفع بريطانيا إلى الإسراع بالسيطرة على العراق، خاصة بعدما جمعته بريطانيا من معلومات عنه عبر جواسيسها الذين عاشوا متخفين في مدن العراق وبواديه، قبل اندلاع الحرب وفي أثنائها[1]. وهكذا كانت الطاقة محورًا أساسيًّا للتداعيات الإقليمية والداخلية التي عانى منها العراق اعتبارًا من الاحتلال البريطاني إلى يومنا هذا.

لقد غطّت منطقة العمليات إبّان الحرب العالمية الأولى كل الأراضي التي يرويها نهرا دجلة والفرات من بلاد ما بين النهرين، وهي تُعادِل تقريبًا خارطة العراق في العصر الحديث. وتتألّف التضاريس في هذه المنطقة من المستنقعات جنوبًا والصحاري غربًا والجبال شمالاً، والتي جعلت التحركات صعبة للغاية. احتلّ العثمانيون المنطقة في أوائل القرن السادس عشر، والعراق عام 1534. وبالرغم من تأسيس إدارة عثمانية للعراق في ثلاث ولايات عثمانية هي الموصل وبغداد والبصرة، إلا أن النظام الإداري قد ضعف وأصبح غير فعّال في معظم ولايات الإمبراطورية العثمانية.

وكانت ولايات العراق من أهم ولايات الدولة العثمانية، وكانت المسافة بين إسطنبول وأيّة مدينة في جنوب بلاد ما بين النهرين، تُقدَّر بـ 3.470 كلم، في رحلة مدتها أربعة أشهر لقافلة كانت تسير بين تضاريس صعبة. وكان العراق قد رُصد من قِبل بريطانيا وفرنسا وروسيا وأميركا من خلال القنصليات التي انتشرت في بغداد والموصل والبصرة، وكان دورها فعّالاً منذ القرن التاسع عشر[2].

2- الخطط والاستعدادات

قبل الحرب، كانت هناك اثنتان من الوحدات التركية العثمانية المرابطة في العراق الذي كان يسمى أيضًا ببلاد ما بين النهرين، هما: الفيلق الثاني عشر

(1) Sluglett, Peter: "The Primacy of Oil in Britain's Iraq Policy", in *Britain in Iraq: 1914-1932*, Ithaca Press, 1976, pp. 103-116.

(2) الجميل، سيار: **زعماء وأفندية**، ص 169-170.

(الأقسام 35 و36) المرابط في الموصل والفيلق الثالث عشر (الأقسام 37 و38) المرابط في بغداد.

لم تكن القيادة العليا تتوقع أي هجوم أو عمليات عسكرية كبرى في هذه المنطقة، ولكن بدأت الاستعدادات العسكرية تأخذ مداها، وبحلول نوفمبر/تشرين الثاني عام 1914، تم نشر الفيلق الثاني عشر بأكمله بين الموصل وسوريا، فيما كان مقرُّ شعبة 37 التابعة للفيلق الثالث عشر في طريقها إلى منطقة القوقاز عبر إيران، في حين تم تحجيم مقر الجيش السادس ليغدو موقعه في الجنوب، فأصبح "العراق قيادة المنطقة" بأجمعها وكانت الشعبة 38 تحت قيادتها.

في هذه الأثناء، كان البريطانيون يخطّطون لإنزال قوات عسكرية في شطّ العرب واحتلال المنطقة الجنوبية حيث وصلت إلى ملتقى نهري دجلة والفرات عند القرنة بعد أن استخدمت مياه الخليج العربي الذي كان تحت سيطرة البريطانيين. وتم اندماج القوات البريطانية مع بعضها البعض في النهر (شط العرب) لتكون موحدة من أجل حماية مصالحها النفطية. وكانت القوات البريطانية تتألف من فرقة مشاة معززة من الجيش الهندي، وشعبة بونا 6، وكانت تضطلع بهذه المهمة، ونجحت هذه الخطط البريطانية التي رسمتها لندن بعد تلقي معلومات مخابرات تقول بأن الأتراك يتوزعون في أجزاء منقولة من شعبة 38 في مصبِّ شطّ العرب. وكانت القوات العثمانية تتمركز عند سليمان بك، ويُرابط باقي القوة الدفاعية العثمانية في البصرة[1].

بدأ الهجوم البريطاني من خلال القوة البحرية بدءًا من القلعة القديمة في قصف المناطق العربية الحرة، التي كانت تقع في نقطة التقاء شطّ العرب مع مياه الخليج العربي. ودافع عن تلك القلعة حوالي 350 جنديًّا تركيًّا عثمانيًّا وبمعيَّتهم أربعة مدافع، ولكنها بقيت عاجزة عن صدِّ القوات الهندية التي هبطت هناك واستولت على الحصن في 6 نوفمبر/تشرين الثاني. وبحلول منتصف نوفمبر/تشرين الثاني، كان نصف قوات شعبة بونا قد نزل بالفعل على الشاطئ[2].

(1) Erickson, Edward J. *Ordered to Die: A history of the Ottoman Army in the First World War,* Greenwood Press, 2001, 165.

(2) Ibid., pp. 172-9.

ثالثًا: العمليات البريطانية

تقول الوثائق التاريخية بأن اختراق الصحاري العراقية من قبل القوات البريطانية المحتلة قد ساعدته الأعمدة التي كان الأتراك العثمانيون قد زرعوها لتحديد مسار القوافل التي ستضيع بوصلتها في البراري الشاسعة لو فقدت اتجاهات تلك الأعمدة! وكان الهدف البريطاني التالي بعد دخول القوات الغازية يتمثل بتقسيم البلدة (أي البصرة) إلى قسمين، والتي كانت تدافع عنها قوة عثمانية تتألّف من 2.900 جندي بقيادة صبحي باشا. ولكن البصرة سقطت في 22 نوفمبر/تشرين الثاني، مع خسارة قدرها 1.200 من الأسرى الأتراك، بما في ذلك صبحي باشا نفسه، مع ثلاثة مدافع. كانت الأسلحة البريطانية أقوى عددًا وعُدَّة وكان الجيش منظَّمًا ومخطِّطًا لأهدافه، كونه وريث أشهر مستعمرة بريطانية قديمة في الهند.

بعد هذا الانتصار غير المتوقع والذي حازه البريطانيون بسهولة نسبيًّا، تقدمت القوات البريطانية على طول النهر؛ فانسحب الأتراك إلى القرنة حيث ملتقى النهرين العظيمين، وجرى القتال حول بلدة القرنة في 9 ديسمبر/كانون الأول 1914، وكانت الخسائر العثمانية تزيد على 1.200 من الأسرى الأتراك برفقة تسعة مدافع؛ مما يعني أن الشعبة 38 قد سُحقت أيضًا وغدت مجرد حطام. لقد كانت العمليات العسكرية بين الطرفين تجري على مشهد ومسمع العراقيين الذين لم يتدخلوا في المعارك الدائرة.

لقد وقع القائد العثماني أنور باشا في خطأ من خلال التقليل من أهمية المسرح الذي تدور عليه العمليات في بلاد ما بين النهرين دون الاستماع إلى نصائح محمد فاضل باشا الداغستاني قائد الشعبة 35؛ مما اضطره إلى التراجع شمالاً. وكان الداغستاني عراقيًّا من أصل شركسي وكان يدافع عن العراق أكثر من دفاعه عن الدولة التي يحمل رتبها العسكرية، وقد أعاد تشكيل الشعبة 38.

في 2 يناير/كانون الثاني 1915، تولى سليمان نظيف بك القيادة العسكرية لمنطقة العراق وحاكمية بغداد. كانت رتبته منخفضة للغاية إزاء الواجبات التي كُلِّف بأدائها، لكنه كان شخصية معروفة داخل حزب الاتحاد والترقي، وكان أنور باشا معجبًا به؛ إذ كان شجاعًا ومتفانيًا، ولكنه كان ضيق الأفق وعقليته صبيانية

في بعض الأحيان. لقد اقتبس أحد المؤرِّخين الأتراك قولاً له هذا نصه: "إن نشـــر قوات عثمانية في العراق لا يعني سوى القتل. ويمكننا بسهولة ردم العدو في البحر، الذي يستخدم العشائر المحلية من الهنود والبلوش... وعندها يمكنـــهم اســـتخدامها لمهاجمة قواتنا". وهكذا أرسل سليمان نظيف بك فور توليه الأمـــر، رســـائل إلى شيوخ العرب من خلال الجيش العثماني في محاولة لتنظيمهـــا في الكفـــاح ضـــد "الكفار". وبالرغم من استخدام هذه "الفكرة"، إلا أن التكتيكات العثمانية لم تكن موفقة إزاء الاستراتيجية البريطانية التي كانت تستخدم الهنود والسيخ بشكل منظّم وفي المقدمة، وكان هؤلاء يتصفون بالشراسة والغلظة[1].

رابعًا: المعركة الأولى في الكوت

1- القوات العثمانية في جناحين: دجلة والفرات

كان الجيش العثماني بقيادة أنور باشا قد نظّم نفسه بإشراف سليمان نظيف بك لاستعادة السيطرة على منطقة شط العرب بأي ثمن. ولقد انقسمت القوات العســكرية التي كان سليمان بك يشرف عليها بين دجلة والفرات، وكان جناح الفـــرات واقعًـــا تحت إمرته، في حين كان البريطانيون يتقدمون إلى الناصرية عبر البصرة، بينما أُعطيـــت قيادة جناح دجلة إلى القائد محمد فاضل باشا الداغستاني وكانت تتألّف من 35 شـــعبة مع ما يتجحفل معها من وحدات سلاح الفرسان العربي[2].

2- القوات العثمانية في بغداد

حافظ البريطانيون على لواء الفرسان في البصرة، الـــذي ركـــزت قوتـــه في جنوبـــي مدينة البصرة عند الشعيبة. ثم امتدت القوات البريطانية نحـــو الناصـــرية

(1) Nazif, Suleyman: *Firak-ı Irak: Mesaib-i Vatana Ağlayan bir Kaç Neşide,* Dersaadet, Istanbul, Mahmud Bey Matbaası, 1918 = 1336 m.), pp. 56-9.

(2) من أفضل المصادر التاريخية العربية التي كتبت تفاصيل تاريخ الاحتلال البريطاني للعراق، انظر: محمد طاهر آل المصيب العمري، **تاريخ مقدرات العراق السياسية** (نُشِر لأسباب أمنية باسم أخيه محمد طاهر آل المصيب العمري والكتاب لأخيه محمد أمين)، 3 مجلدات الموصل، 1923، بغداد 1924، المجلد الأول، ص 45-90.

أولاً، ومن ثَمَّ في اتجاه آخر إثر دخول القرنة في 12 أبريل/نيسان. وفي الصباح الباكر، هاجم الأتراك المعسكر البريطاني في الشعيبة بأعداد تُقدَّر بـ 3.800 رجل، لكن فشلت الهجمات المتواصلة في ذلك اليوم. وفي اليوم التالي، وبتأثير سلاح الفرسان البريطاني، كانت النتائج مرتدة على العثمانيين وكانت الخسائر بين القوات التركية تقدر بـ 1.000 من الرجال مع 400 أسير آخر.

بدأت القوات البريطانية تخطِّط من أجل سحق جيش الأتراك، الذين أُجبروا على التراجع لمسافة تقدر بـ 120 كيلومترًا جرَّاء الهزيمة التي حاقت بهم في الشعيبة، وشعر الأتراك بخيبة أمل من العراقيين الذين بقوا في موقع المتفرج يترقبون سير الأحداث. لقد انسحب القائد نفسه إلى بغداد ودخل المستشفى بتأثير مرضه أو لجرحٍ أصابه، وكان محبطًا على نحو لا يتصوره أحد أوصله إلى حالة متقدمة من الاكتئاب فوضع نهاية لحياته بأن أطلق النار على نفسه.

3- إعادة بناء استراتيجية عثمانية للدفاع عن العراق

في هذه الأثناء، كانت هيئة الأركان العامة في العاصمة العثمانية، إسطنبول، تمتلك خرائط سليمة وواضحة وتفصيلية عن بلاد ما بين النهرين. ولكنهم بدأوا محاولة بناء استراتيجية من نوع جديد، فقد حاول العثمانيون أولاً رسم خريطة بمساعدة من بعض الضباط العراقيين الأقوياء أو الضباط الأتراك الذين كانوا يعملون في العراق منذ ما قبل الحرب. ولكن مع أول فشل عثماني أمام الغزاة الجدد، تم تنصيب اثنين من القادة المستشارين لصنع خرائط على النسق الألماني، تحت إمرة نور الدين باشا، الذي عُيِّن لقيادة الجيش السادس (قيادة العراق). وصدرت أوامر جديدة تلقاها أنور باشا بالدفاع عن كل شبر من أرض العراق وشنِّ هجوم معاكس عندما يستقر الوضع. وفي تلك الأثناء العصيبة كانت التعزيزات تتدفق أيضًا على العراق.

ونظرًا للنجاح غير المتوقع في بلاد ما بين النهرين، قررت الإدارة البريطانية (أي مكتب بريطانيا في الهند وهيئة الأركان العامة الهندية) مواصلة التقدم. ووصل الجنرال تاونسند إلى القرنة لتولي الأمر، وبدأ بالتمدد صعودًا نحو العمارة. وفعلاً

احتل البريطانيون العمارة يوم 3 مايو/أيار 1915 وتوقفوا عند نهر دجلة وقفة قصيرة بسبب الفيضانات الموسمية، في حين سيطرت القوات البريطانية على مدينة الناصرية الواقعة على نهر الفرات في 24 يوليو/تموز 1915، ونقلوا الجنود الأتراك المأسورين الذين بلغ عددهم 1.800[1].

4- إطلاق النار من الخنادق

استمر تقدم القوات البريطانية تقدمًا سريعًا لتصل إلى النهر، وكان لذلك تأثيره على العرب العراقيين الذين أدركوا حجم قوة البريطانيين رغم تثاقلها بتأثير صعوبة نهري دجلة والفرات خاصة إزاء حجم المدافعين العثمانيين. ولكن المعادلة رجحت لصالح الغزاة البريطانيين. وفي مدينة العمارة داهم العرب العراقيون المستشفيات العسكرية وذبحوا الجنود الأتراك هناك.

كان الجنرال تاونسند يعلم علم اليقين أن المعارضة العراقية كانت ضعيفة، وأن بلاد ما بين النهرين خلال الصيف أكثر ملاءمة له ولقواته للتقدم شمالاً. كانت مناسيب نهر دجلة منخفضة، وكانت كل الظروف مواتية للحصول على إمدادات بريطانية أخرى. وفي 1 سبتمبر/أيلول 1915، بدأ البريطانيون التحرك نحو بلدة كوت الإمارة حتى يوم 26 سبتمبر/أيلول. وقد دافع العثمانيون عن الكوت دفاعًا قويًا بفضل وجود 12 من الكتائب التركية، التي كانت تشتمل على عدد كبير من الجنود العرب الذين يُعدُّون خبراء بشؤون وطنهم العراق. لكن كانت البنادق والمدافع العثمانية قليلة وضعيفة مقارنة بالسلاح البريطاني[2].

في وقت مبكر من يوم 28 سبتمبر/أيلول 1915 هاجم تاونسند المواقع الدفاعية التركية. وبدا الجنود الأتراك في حالة تراجع عند نهاية ذلك اليوم الصعب. وسقطت الكوت، وهي مركز إمارة عربية لآل ربيعة، في أيدي القوات البريطانية، وعانى الأتراك معاناة قاسية إذ خسروا 1700 من جنودهم وفقدوا 1300 اعتُبروا في عداد

---

(1) نفس المرجع، (نفس الصفحة).

(2) Harvey, Lt & Q-Mr. F. A. *The Sufferings of the Kut Garrison During Their March into Turkey as Prisoners of War 1916-1917*, The Adjutants's Press, , pp. 242-8.1922

الأسرى، فيما خسر البريطانيون 17 مدفعًا. وبعد الخسارة الجسيمة للعثمـانيين في كلٍّ من الكوت والعمارة، تراجعت القوات التركية لمسافة تصل إلى 150 كيلومترًا على امتداد نهر دجلة وركزوا مواقعهم في قصبة سلمان باك نقطة 1 قبـل بغـداد جنوبًا (وسلمان باك هي بقايا "المدائن" التي كانت عاصـمة الساسـانيين قبـل الفتوحات الإسلامية)، والتي كانت تبعد 35 كيلومترًا إلى الجنوب من بغداد(1).

خامسًا: الدفاع عن سلمان باك (المدائن)

1- أطلال المدائن

كانت المدائن تقع على نهر دجلة، وكانت أيضًا على مقربة من مدينـة كـربلاء المقدسة. كانت تلك المنطقة الخضراء حصينة على الضفة اليسرى من نهر دجلة، وكان يشغل خط الجبهة امتداد جغرافي طوله 10 كيلومترات. وكان نور الدين باشا يسـعى جاهدًا ليلاً ونهارًا لبناء تشكيلات دفاعية له هناك في خطة استراتيجية قويـة؛ فأسَّـس قوته على طول ثلاثة كيلومترات مع تأمين خطين للدفاع بينها وبين يمين النهر.

في المدائن، انضمت إلى تلك القوات الشعبة 45 من قوات نور الـدين باشـا وبنسبة عالية من أقوى الجنود. وفي 17 نوفمبر/تشرين الثاني 1915 وصلت الشعبة 51 أيضًا مع كتائب من المشاة في سبعة مواقع لسبعة كيلومترات، فضلاً عن كتيبة هاوتزر شنايدر. واعتمد نور الدين باشا مخططًا يقوم على 20.000 رجل مسـلح برفقة 19 من المدافع الرشاشة و52 من مدفعية الميدان وبعـض الفرسـان. ووزَّع تقسيمات كلٍّ من الشعبتين 38 و45 على ثكناتها في امتداد خط الدفاع الأول، في حين نشر الشعبة 51 في امتداد آخر(2).

في الصباح الباكر من يوم 22 نوفمبر/تشرين الثاني 1915، اضـطُرَّ الجنـرال تاونسند مع ما تجمَّع معه من قوات هندية لمهاجمة الخطوط التركية في المدائن، بدعم

(1) Gardiner, Nikolas: "Sepoys and the Siege of Kut-al-Amara, December 1915-April 1961", *War in History*, 11(3)(2004), pp. 307-326.

(2) Davis, Paul K: *Ends and Means: The British Mesopotamian Campaign and Commission*, Associated University Presses, 1994, pp. 168-72.

من نيران المدفعية ونيران البحرية من قوارب مسلحة نشرها في نهر دجلة، وكان قد قسَّم قواته على أربعة أعمدة: ثلاثة منها في امتداد جغرافي مواجه من شأنه أن يجعلها صاحبة هجوم مباشر، وواحد آخر من سلاح الفرسان والمشاة المختلطين لتؤدي مهمتها في اكتساح جميع أنحاء الشرق وفرض طوق على القوات العثمانية وتطويق الموقف وسحقها، ومن ثَمَّ التحرك نحو العاصمة بغداد نفسها[1].

بدأ الهجوم الكاسح فورًا، واشتعلت النيران الكثيفة برًّا ونهرًا، وكانت قوة النار حارقة بفعل البنادق الثقيلة وكثافة نيران المدفعية، ولكن كان التقدم البريطاني يسير في طريق مسدود لقوة الدفاعات العثمانية. وبصعوبة بالغة بلغ تاونسند أول أهدافه بعد صعوبات لا توصف وهو يرى حجم الخسائر الفادحة التي تكبدها جيشه.

2- إطلاق المدفعية العثمانية

في ظهيرة ذلك اليوم الصعب، حاول سلاح الفرسان البريطاني تطويق الأتراك، لكنه لم ينجح في مهمته الذكية؛ إذ إنه لم يُقدِّر القوة النفسية التي كان قد شُحن بها المدافعون عن مدينة عظيمة اسمها بغداد. ومع كل هذا وذاك، كان البريطانيون قد كسبوا بقوتهم اليد العليا في ميزان المعركة، وأمر القائد نور الدين باشا بهجوم مضاد تُطلقه الشعبة 51 ومَنْ كانوا ضمن الاحتياط من الذين لم يشتركوا في المعركة حتى تلك اللحظة. واستمرت المعركة الكبرى مع معاناة كل من الطرفين من قساوة استمرار القتال، وقد تكبّد الجانبان خسائر فادحة حتى وقت متأخر من المساء. سكتت المدافع في الليل وبدأ الطرفان يجمعان أشلاءهما وجرحاهما من ميدان المعركة التي لم تنته بعدُ[2].

بدأت مع خيوط صباح اليوم التالي، محاولة أخرى من جانب الجنرال تاونسند ضد المواقع التي كانت قد خُصِّصت لحماية الأتراك المدافعين بشراسة، ولكنه فشل أيضًا من خلال هجوم سلاح الفرسان، ويعزو البريطانيون الفشل أساسًا إلى عاصفة

(1) Davis, Paul K: *Ends and Means: The British Mesopotamian Campaign and Commission.*

(2) Ibid., p. 118.

رملية عنيفة، ولكن المصادر العثمانية تؤكد بالمقابل على قوة الدفاعات الاستراتيجية المحكمة. كان القائد نور الدين باشا يحاول امتصاص أي هجوم بمقاومة عنيفة ومطاولة قوية وسريعة عن طريق إرسال كل ما لديه من قوات زج بها في المعركة ضد القوات البريطانية. وقال إنه يمكن التقاط الخيط ليكون صاحب المبادرة في الهجومات المعاكسة ضد البريطانيين ليس للدفاع عن بغداد وحدها، بل بهدف استعادة بعض الأراضي المفقودة في اليوم السابق أيضًا. كان تاونسند قد أصابه اليأس القاتل لفقدان أمله في اختراق الدفاعات عندما لاحظ أن قواته تتراجع وأنه يفقد مواقعه. وكان في اليوم السابق قد استولى على خطوط السطر الأول من المواقع المهمة، ولكن بدا له ولضباط جيشه أنه من المستحيل إحداث أي اختراق، مع ما كان قد عاناه بالفعل من خسائر جسيمة في حجم قواته من الجنود، فضلاً عن الرعب الذي سيطر عليه من شبح الاستسلام، وإصابة قواته بالذعر الشديد[1].

في 25 نوفمبر/تشرين الثاني 1915، أمر الجنرال تاونسند بالانسحاب بعد أن بدأت قواته تتعرض للتحرش من قبل قوات الأتراك ومن كان يتحالف معها من العراقيين العرب، وأخذت القوات البريطانية تحثّ الخطى وقد استنفدت قوتها وعددها وهي تتقهقر عائدة إلى حصن كوت الإمارة، فوصلت إليه يوم 3 ديسمبر/كانون الأول 1915. كان الوضع مخزيًا لجيش إمبراطوري، وخصوصًا بعد أن وصلت الأخبار عن هزيمة البريطانيين في المدائن. كانت معاناة القوات البريطانية كبيرة بوقوع 4500 من الإصابات، في حين بلغت الخسائر التركية 9500 من مجموع قوات يُقدَّر حجمها بـ 35.000 من الرجال. وكانت شعبة 45 قد فقدت قرابة 65 في المئة من قواتها[2].

وأن ثمة معضلة أساسية في إرسال العاصمة (إسطنبول) قائدًا غير مسلم إلى العراق، الذي أغلب سكانه من المسلمين وحيث أعلنت الدولة أن الحرب مقدسة، وهو أمر لافت للنظر"[3].

(1) Ibid., p. 120.

(2) Ibid., pp. 120-2.

(3) Bernstein, Jack: *The Mesopotamia Mess: The British Invasion of Iraq in 1914*, InterLingua, 2007, pp. 124-8.

انسحب البريطانيون في هزيمة نكراء، فتبعهم الجيش العثماني السادس. ومع خور القوات البريطانية المنسحبة إلى الكوت وضعفها، طوَّقهم الأتراك من كل حدب وصوْب ما أن دخلوها. هكذا بدأ حصار الكوت يوم 7 ديسمبر/كانون الأول 1915 إذ قام الجيش العثماني بتطويق البلدة، وبدأ بحفر سلسلة من الخنادق بدءًا من عنق المدينة عند منعطف نهر دجلة الذي تطل البلدة عليه، وكانت الخطة العثمانية تجري لعزل الكوت عن البصرة[1].

وفي الوقت نفسه لم يجد تاونسند من خيار أمامه إلا البقاء مع قواته في الكوت شاعرًا بأنه دخل في قفص لا يستطيع الخروج منه، وكان يحسب أن هناك إمدادات تكفيه لمدة شهر؛ فاقترح محاولة للخروج والتقاعد بعد أن شعر بهزيمته، لكنَّ طلبَه هذا قُوبل بالرفض التام من قبل السير جون نيكسون، قائد القوات البريطانية في بلاد ما بين النهرين؛ إذ وصلته الأوامر بالبقاء وتألّبت القوات العثمانية في العراق حول جميع أنحاء الكوت. وبعد أن وصلت قوة من الإغاثة البريطانية بقيادة الجنرال ألمر، تم إرسالها إلى الكوت، فانضمت إلى المحاصرين[2].

قامت القوات العثمانية مع عراقيين بشنٍّ عدة هجمات خلال ديسمبر/كانون الأول 1915 لكنها كانت مجرد هجمات نفور لما حاق بالعثمانيين من خسائر. في هذه الأثناء وصلت تعزيزات إضافية من بعض قوات الجيش الثالث في بلاد ما بين النهرين. بدأ العام 1916 مع حركات الفيلق الثامن عشر العثماني، التي كانت تتألف من شعبتي 45 و51، وبدأ تطويق مدينة الكوت مع قوات الفيلق الثالث عشر وتتجحفل معها قوات غير نظامية من العراقيين مع قوات شعبتي 35 و52 واصطدمت بقوة الإغاثة البريطانية على امتداد جغرافي يصل إلى نحو 30 كيلومترًا جنوب نهر دجلة[3].

في 20 يناير/كانون الثاني 1916، قررت القيادة العثمانية التي وقف على رأسها أنور باشا في إسطنبول استبدال قيادة جديدة يمثّلها العقيد خليل بك بالقائد نور

(1) Ibid., p. 128.

(2) Ibid., pp. 128-9.

(3) Barker, A. J: *The First Iraq War, 1914-1918: Britain's Mesopotamian Campaign*, Enigma Books, 2009, pp. 69-71.

الدين باشا، وكان المشير الألماني فون دير غولتز يتولى فنيًّا دوره في قيادة دفاعات العثمانيين ضد حملة بريطانيا على بلاد ما بين النهرين كلها، ولكن بقي ضبط العمليات ورسم الخطط بأيدي القادة العثمانيين.

3- عبور النهر والباخرة جلنار

خلال شهر يناير/كانون الثاني 1916، أطلق كل من تاونسند وألمر عدة هجمات في محاولة لاختراق الخطوط العثمانية فشلت كلها بسبب الطوق العثماني المحكم. كان القائد خليل بك يعرف الظروف التي كان يعاني منها البريطانيون المحاصرون، وقال إنه لا يريد أن تضيع قوته وقواته في أعمال متفرقة عندما كانت المعنويات العثمانية/العراقية قوية ومميزة. في المقابل، واجه البريطانيون كثيرًا من المصاعب جرَّاء هذا التحدي الضاري وبدأ التضور من الجوع، فإمَّا البقاء لموت بطيء أو الاستسلام، فاختاروا التحدي والمواصلة ضد العثمانيين. وفي فبراير/شباط 1916 حصل تغيير في فرقة المشاة 2 بوصول تعزيزات جديدة مع انضمام الفيلق الثالث عشر[1].

ثم شهدت الفترة من مارس/آذار إلى أبريل/نيسان 1916 سلسلة من المحاولات البريطانية الانتحارية لاختراق الحصار ومحاولات قوات الإغاثة بقيادة ألمر التخفيف من الحصار المدمِّر للبريطانيين لكن لم تنجح أي من تلك المحاولات إلا بإيصال مجرد رسالة وكانت تكاليف تلك المحاولات ثقيلة جدًّا. وعانى كل من الجانبين من خسائر كبيرة مع نقص الغذاء. وكان تاونسند يأمل أن ينفذ من الكوت إلى العمارة، لكن بدأت الأمراض تنتشر بسرعة هائلة بين قواته مع نقص العلاج، كما كان أهل الكوت يعانون الأمَرَّيْن على امتداد تلك الشهور الصعبة.

وفي 24 أبريل/نيسان 1916 فشلت محاولة من جانب الباخرة جلنار (Julnar) التي استخدمت المجاذيف للوصول إلى المدينة المحاصرة عن طريق النهر؛ ففي حوالي الساعة 7:00 من ذلك اليوم، اخترقت جلنار النهر، وكانت محملة بـ 270 طنًّا من

(1) Teske, Hermann: *Colmar Freiherr von der Goltz: Ein Kämpfer für den Militärischen Fortschritt*, Musterschmidt-Verlag, 1957, pp. 56-9.

الإمدادات، بعد أن غادرت ميناء الفلاحية. فتم تحويل الأضــواء بعيــدًا وبــدأت المدفعية البريطانية بإطلاق النار على البطاريات العثمانية التي كانت منتشرة علـــى ساحل دجلة، ولم يعد صوت محركات السفينة يُسمع من كثرة أصوات المفرقعات والنيران. لقد تمكنت جلنار من المرور عبر خطوط الدفاع الأولى دون أية متاعب، وكانت تبحر في المياه النهرية نحو الكوت. ومع ذلك، عندما وصلت جلنار إلى ممر ماكسيس، بدأت عناصر من أفواج 3 و7 العثمانية العراقية بفتح النار عليها. كانت هناك انفجارات أحدثتها إطلاقات من الجو جاءت من على مـــتن طـــائرة، وقـــد كلّفت العملية العديد من البحارة على ظهر جلنار حياقم، بمن في ذلك الكـــابتن الذي كان يقودها. وبعد ساعة واحدة ونصف الســـاعة، رســـت جلنـــار علـــى الشاطئ، فركض نحوها البعض من الجنود الأتراك والعرب لإخلاء الناجين وأخذهم أسرى وإنقاذ الجرحى. كانت السفينة مليئة بالدقيق والأرز والبسكويت واللحـــوم المعلبة، وقوبلت هذه "الغنيمة" بفرح من قبل القوات العثمانية والعراقية التي كانت تعاني أيضًا من نقص الغذاء، وخاصة البسكويت واللحوم المعلبة التي لم يروها قـــط في حياتهم. وكانت هناك أفكار بريطانية لإنقاذ قواتهم مـــن الجـــوع؛ إذ فكّـــروا بإسقاط كميات صغيرة جدًّا من الإمدادات من الجو على الكوت، لكنها "أفكار" كانت بعيدة جدًّا ليس عن التحقيق فقط، بل عـــن تلبيـــة احتياجـــات القـــوات البريطانية[1].

توفي القائد الألماني المشير فون دير غـــولتز بتـــأثير وبـــاء الكـــوليرا في 19 أبريل/نيسان 1916. وبعد بضعة أيام قرر تاونسند الاستســـلام؛ فكـــان يـــوم 26 أبريل/نيسان 1916 يومًا تاريخيًّا مشهودًا لهزيمة بريطانيَّة على أرض عراقية. وقـــال تاونسند إنه طلب الإذن لعقد هدنة بين الطرفين لمدة 10 أيام، وقد استمرت ســـتة أيام لإحضار المواد الغذائية وليتم إرسالها إلى المدينة المحاصـــرة. بـــدأت محادثـــات تاونسند مع القائد العثماني خليل بك في اليوم التالي. وخلال المحادثـــات، طالـــب الجانب العثماني باستسلام البريطانيين استسلامًا غير مشروط، مع تسليم كل مـــا يمتلكه الجيش البريطاني من أسلحة ومبالغ مالية، مع مصادرة كل البنادق في البلدة،

Davis: *Ends and Means*, pp. 91-102. (1)

وإنهاء القتال ضد الجيش العثماني في المستقبل. وفي الوقت نفسه فرض خليل بـك على الحامية البريطانية في الكوت عدم استغلال المدنة لكسب الوقت مـن قبـل البريطانيين. واشترط أيضًا تسليم مدافع هاوتزر وكل الـذخيرة... إلخ[1]. هكـذا كان الحدث في النهاية تراجيديًّا للبريطانيين باضطرار تاونسند للاستسلام. وفيمـا يُصر البريطانيون على أنه كان استسلامًا غير مشروط، يؤكِّد العثمانيون أنه تمَّ وفق شروط ثقيلة![2]

4- الجنرال تاونسند مأسورًا في الكوت

يسجِّل المؤرخون البريطانيون تلك اللحظة التاريخية الصعبة التي تُصوِّر الجنرال تاونسند مأسورًا في حالة تراجيدية عندما هزمه خليل بك بجيشه العراقـي هزيمـة نكراء؛ ففي الساعة الواحدة من ظهر يوم 29 أبريل/نيسان 1916، وبعـد حصـار قاس دام 147 يومًا، بدأ فوج المشاة العثماني - العراقي بالتهيؤ لـدخول كـوت الإمارة على إثر استسلام البريطانيين، فدخلها بشموخ. وعند الساعة 14:30 مـن ذلك اليوم، بدأ العَلَم العثماني يرفع في قلب المدينة وعلى مبنى القاعة. وبدا منظـر الجنرال تاونسند وهو يستسلم مع جنوده البالغ عددهم 13.309 من الرجال، بما في ذلك 272 من الضباط البريطانيين و204 من الجنود الهنود، فضلاً عـن 40 قطعـة مدفعية وثلاث طائرات واثنتين من البواخر النهرية و40 سيارة... بعد حصار مؤلم. لقد تراءى منظر المستسلمين مخزيًا، وهم بألبستهم التالفة وأوجاع بعضهم وأنـين بعض الأشلاء... لقد كلفهم الحصار 1000 من القتلى و0007 من الجرحى و731 ماتوا من الأمراض والمجاعة (هذا ما تؤكده الوثائق التاريخية البريطانية)[3].

---

(1) Barker, *Col. A. J: Townshend of Kut: A Biography of Major-General Sir Charles Townshend KCB DSO Cassell*, 1967.

(2) Dixon, Norman: *On the Psychology of Military Incompetence, Random House,* 1976, pp. 95-110. See also: Townshend, Major General Sir Charles V.F. K.C.B., D.S.O. *My Campaign in Mesopotamia*, Thornton Butterworth Ltd, 1920.

(3) Barker: *The First Iraq War.*

هذا ما أكّدته الوثائق التاريخية البريطانية. انظر مقارنًا مع:

Townshend, Major General Sir Charles V.F. K.C.B., D.S.O. *op.cit. My Campaign in Mesopotamia* London: Thornton Butterworth Ltd, 1920.

لقد ذكر تلك الخسائر التي تكبدها الطرفان المتحاربان أحد أبـــرز الشـــهود الرسميين المنتصرين؛ إذ سجَّلها العقيد خليل بك في مذكراته باللغة التركية، وأردف قائلاً: إن "الجيش العثماني المحلي (يقصد العراقي) خسر أكثـــر مـــن 300 ضـــابط و10.000 من الرجال وعددًا من الذين وقفوا ضد قوات الإغاثـــة أثنـــاء حصـــار الكوت. ومع ذلك، فإن خسارة الطرف الآخر بلغت خمســـة جنـــرالات و481 ضابطًا و13.300 رجل من الجيش البريطاني كأسرى حرب. فيما بلـــغ مجمـــوع الضحايا الذين سقطوا من قوة الإغاثة البريطانية 30.000 من الرجال"[1]. وبعـــد انتصار القوات العثمانية على الجيش البريطاني تم جلب الأسرى إلى بغداد حيث تم استعراضهم على دفعات، أمَّا قائد القوات الجنرال تاونسند فتذكر المصـــادر أنـــه أُرسِل مع موظفيه إلى بغداد، حيث مكثوا أيامًا قليلة قبل نقلهم إلى دار القنصـــلية الإيطالية في بغداد. وهناك قام بزيارته وزير الحربية العثماني أنور باشا الذي تفقَّـــد جبهات الحرب ومَرَّ في عدة مدن عراقية[2].

ومن ثمَّ أُرسل تاونسند وحاشيته كأسرى حرب إلى العاصمة العثمانية، وغادر الركب العسكري بغداد تحت إشراف الليفتنانت كولونيل إسحق بـــك وبرقابـــة مشددة، وحافظ العثمانيون على الأسرى الكبار وعاملوهم بلياقة بالغة. وبعد رحلة صعبة استمرت 20 يومًا مرورًا بالموصل، ومن خلال تضاريس الأناضول القاســـية وصل تاونسند إسطنبول.

وعلى الطريق، وفي بوزانتي (Pozanti)، التقى به القائد العثماني الكبير أنـــور باشا، واستقبله بلياقة مؤكِّدًا على توفير العلاج المناسب له كأسير حـــرب. لقـــد أمضى الجنرال تاونسند بقية زمن الحرب تحت الإقامة الجبرية في جزيرة بيوكـــاده (Buyukada)، وهي واحدة من جزر إسطنبول الأميرية الجميلة على بحر مرمرة[3].

أمَّا القائد العثماني خليل بك فتمت ترقيته إلى رتبة عميد وحصل على رتبـــة تشريفية عليا ولُقِّب بالـــ "باشا" وأصبح بطلاً بين عشية وضحاها، وهو مـــا زال

---

(1) Halil Paşa (transcribed by Taylan Sorgun), *İttihat ve Terakki'den Cumhuriyet'e Bitmeyen Savaş*, Kamer, İstanbul, 1997, pp. 240-41.

(2) *Ibid.*

(3) Barker: *Townshend of Kut*. See also: Barker, *The First Iraq War*.

شابًا لم يتجاوز 33 سنة[1]. وإثر السيطرة على كوت الإمارة توقفت الحملة البريطانية في بلاد ما بين النهرين، وبدأ خليل باشا بتحصين ضفاف كل من نهري دجلة والفرات، كما تم اتخاذ المزيد من الإجراءات للفترة المتبقية من 1916[2].

وفي أعقاب ذلك الانتصار قام الوالي خليل باشا بشق شارع في بغداد أسماه "جادة سي" (شارع الرشيد لاحقًا)، وكان ممتدًا عموديًا بطول المدينة من محلة الباب الشرقي جنوبًا إلى محلة باب المعظم شمالاً وبموازاة نهر دجلة. بدأ العمل في شق هذا الشارع في مايو/أيار 1916 واحتُفل بافتتاحه في 23 يوليو/تموز من العام نفسه، متزامنًا مع الاحتفاء بذكرى إعلان الدستور العثماني، وأُطلق على الشارع اسم خليل باشا جادة سي. وكان للرشاوى التي أُعطيت للقائمين على إنشائه دور بالغ في تحديد مساره بين الدور الواقعة في طريقه.

5- خليل باشا مع ضباطه وموظفيه

كانت القيادة العثمانية في العراق عالية المستوى، وكان العثمانيون قد استعادوا معنوياتهم القوية بعد انتصارهم في الكوت، وبدأوا بتعزيز مواقعهم وتعزيز وحدة الإدارة وتحصين الثغرات وتجديد المحطات؛ إذ كانوا يعلمون علم اليقين أن البريطانيين لن يسكتوا على ما لحق بهم من هزيمة نكراء خاصة بعد ما حدث في العاصمة لندن من ردود فعل قوية جدًّا؛ ولذا بدأ العثمانيون في كلٍّ من عاصمتهم والعراق يستعدون لمواجهة الهجوم البريطاني القادم لمنع سقوط بغداد والعراق كله بأيدي الغزاة. لكن بدلاً من وضع استراتيجية جديدة تلائم المرحلة القادمة قرَّر أنور باشا استخدام القوات الموجودة في بلاد ما بين النهرين لحملة عسكرية ضد الروس في إيران، كونها قوات عراقية محاربة من الدرجة الأولى. وعارض خليل باشا بقوة هذه الخطة، وأعرب عن رفضه لهذا المشروع الذي وصفه بكونه "لم يكن سوى مغامرة يمكن ألا تنتهي إلا بكارثة تجرُّ من ورائها الكوارث". وقام بإرسال عدة رسائل انتقد فيها قرار أنور باشا

---

(1) يبدو أن عمره كان أكبر من 33 سنة، لأن المعلومات البيوغرافية عن سيرته تقول بأن خليل باشا وُلد في العام 1864، وتوفي في العام 1923.

(2) Bernstein: *The Mesopotamia Mess.*

لكن لم يُستمع لرأيه ونصيحته، فتم نشر الفيلق الثالث عشر وإرساله إلى إيران[1].

عند هذه النقطة، ينبغي للمرء أن يتصفح مذكرات خليل باشا لمعرفة ما كان يفكر به الرجل وتقديره ليس للموقف العراقي فقط، بل رؤيته إلى الحالة العامة أيضًا؛ حيث قال: "في ذلك الوقت كنّا قد حققنا فوزًا رائعًا في العراق، ولكن ما لدينا كان فوزًا مرحليًا في معركة، في حين أن الحرب كانت لا تزال مستمرة، لذلك علينا ألا نترك وراءنا ما يمكن التخطيط لما يجب أن نفعله لإنجاز الانتصار القادم". واستطرد قائلاً: "كان من الواضح أن البريطانيين لن يسمحوا لنا بأن نفلت من العقاب. وبالتأكيد سيكون هناك انتقام قادم لنا..". وقال أيضًا: "إن العراق له أهميته الاستراتيجية في العقلية البريطانية ليكون أحد مستوطناتها الكبرى... ومع ذلك، لم يكن من المنطقي إلا أن نعمل بعيدًا عن أحلام بعض الضباط الألمان في بغداد، الذين كانوا يلعبون بعض الألعاب الغريبة وكأنهم نسوا العراق، فكان كل شيء عن إيران! في أحد الأيام، تلقيت أمرًا من القيادة العليا في إسطنبول يطلب مني ترك قوات كافية للدفاع عن نهر دجلة واستخدام ما تبقى من القوات بجهد كبير لتعزيز الجبهة الإيرانية والاستيلاء على بلدة كرمنشاه. أوه.. نعم، لم يكن ذلك سوى أضغاث أحلام!... سيكون هذا شيئًا غريبًا، ولكنها مغامرة لا معنى لها. أجبتُ القيادة العليا على الفور، قائلاً: إن البريطانيين، سوف لن ينسوا هزيمتهم في الكوت، وهأنذا قد امتثلت للأوامر، وجمعت الآن قوة حربية ووزعت عليها 100.000 من البنادق فقط، وساروا 110 كيلومترات إلى الجنوب من بغداد. إنني واثق تمام الثقة بأنهم عندما يفعلون ذلك، فإن حركتهم هذه ستكون مجرد مغامرة جاهلة ودموية، خصوصًا وقد عرف البريطانيون بأننا نقلنا قواتنا من نهر دجلة إلى مكان ما في منتصف إيران. ومع كل ذلك، فإن القيادة العثمانية العليا كانت تصر على العمليات في إيران، وعندما كانوا يصرون، كنت أزداد رفضًا!..."[2].

(1) من الأهمية بمكان مراجعة كتاب:

Aboul-Enein, Youssef, *Iraq in Turmoil: Historical Perspectives of Dr. Ali al-Wardi, From the Ottoman Empire to King Feisal*, Annapolis, Maryland: Naval Institute Press, 2012.

(2) Halil Paşha (transcribed by Taylan Sorgun), *İttihat ve Terakki'den Cumhuriyet'e Bitmeyen Savaş*, Kamer, İstanbul, 1997, pp. 180-6.

6- استعادة البريطانيين لقوتهم

يبدو أن البريطانيين خدعوا العثمانيين حتى النصف الثاني من العام 1916، إذ كانوا يُجرون تغييرات في جيشهم المهيمن على أجزاء مهمة من جنوب بلاد ما بين النهرين. كانت بريطانيا حتى فقدانها الكوت، تعتمد دومًا على الهنود، وبدا واضحًا أن دائرة الأركان العامة للعمليات في بلاد ما بين النهرين اعتمـــدت اســتراتيجية جديدة. وبدأت لندن تُولي أهمية كبيرة للتعامل مع حملة جديدة كان مهندسها ذكيًا جدًا. وتم اختيار الجنرال السير فريدريك ستانلي مود وإرساله على رأسها لتــولي قيادة المسرح العراقي؛ فقدمت فرقتان من المشاة من القوات الممتازة خُصِّصتا لـــه. وبحلول نهاية العام 1916، كان لدى الجنرال الجديد قوة من 166.000 رجل منهم 107.000 من الهنود. كما رافق قوة الجنرال مود أسطول نهري كبير بُني خصيصـــا للعراق.

لقد بدأت خطوة مود الأساسية بالتعرف على البيئة العراقية وتركيز قواته على نهر دجلة في المسار الذي اعتمده خليل باشا. وبدأ الأخير يعزِّز الفيلق الثامن عشر، بقيادة العقيد كاظم بك، الذي بات يتضمن ثلاث شعب: 45 و51 و52.

سادسًا: الأوضاع العراقية

كان العراقيون جميعًا من الشمال إلى الجنوب يعانون الأمرَّيْن أثناء الحـــرب، فهم أصبحوا هدفًا بين قوتين كبيرتين، وكان تأثير الحرب العظمى علـــيهم قاســـيًا جدًّا؛ إذ أصبح العراق أرضًا ومنافذ وحدودًا مسرحًا لحرب شرسة في مواجهة غزاة جدد. انقطعت الحياة عن شرياني دجلة والفرات وأصبحا مياه حـــرب. أُغلقـــت منافذ البلاد أمام أية تجارة أو وصول أية مواد. تعطَّل العمل وتوقفت زراعة الـــبلاد وصناعة حرفييها وماتت الأسواق وباتت المواد شـــحيحة في الأســـواق القديمـــة. وعاشت الموصل وأطرافها مجاعة رهيبة لا يمكن وصف حالات الجوع وقسوة الحياة ومات آلاف بالجملة. كل الشباب سيقوا إلى الخدمة العسكرية في جهات بعيـــدة منذ إعلان النفير العام ومن يهرب منهم يُنفَّذ فيه حكم الإعدام مباشـــرة.. افتُقـــد الأمن في المدن والأرياف وكثرت السرقات وعاث قطَّاع الطرق بمصـــائر العبـــاد

وأموالهم. تضاعفت سطوة الجندرمة على الناس وبات المجتمع رافضًا ليس للغـزو وحده، بل لكل الحال والأحوال. وكانت تلك الأحوال تزداد سوءًا مـع تقـدم الزمن.

سابعًا: سقوط بغداد

1- الطريق إلى بغداد

كان البريطانيون يُجرون الاستعدادات الأخيرة بقيادة مود الذي طلـب الإذن من لندن بالتقدم نحو بغداد ضمن استراتيجية عسكرية محكمـة. ووقـع الهجـوم البريطاني في نهاية المطاف في ليلة 14/13 من شهر ديسمبر/كانون الأول على ضفتي نهر دجلة. كان التقدم في بداية الأمر بطيئًا وسبب التباطؤ هو هطول أمطار غزيرة وسقوط ضحايا، ولكن ذلك لم يقلّل من قوة التنفيذ وتحقيق الهدف. استغرق الأمر شهرين كاملين لمسح الضفة الغربية من أية مقاومة تأتي مـن الكـوت. وشملـت المكاسب البريطانية الاستيلاء على نقطة (Hadairi) بينـد المحصـنة في يـوم 29 يناير/كانون الثاني 1917. وفي 17 فبراير/شباط 1917 وصلت القوات البريطانية إلى سانيات على بُعد 20 كم جنوبـي الكوت[1].

2- إخلاء بغداد من القوات العثمانية

في 23 فبراير/شباط 1917 انطلق الجنرال مود بهجوم كاسـح علـى كـلا الجناحين، لعبور نهر دجلة، فأمر خليل باشا بالانسحاب الفوري، في حـين أبقـى نقاط الحراسة الخلفية للتعامل مع الغزاة من أجل كسب ما يكفي من الوقت لجيشه وإجلاء معظم المشاة.

كانت الدفاعات العراقية الجديدة تتوزع على طول نهر ديالى، الممتد 15 كـم جنوبـي بغداد. وكان بمعية خليل باشا فقط 12.500 من أقوى الرجـال الـذين تركهم للدفاع عن بغداد. لقد أدركت القيادة العثمانية العليا بعـد فـوات الأوان خطأً فعلتها بإرسالها الفيلق الثالث عشر إلى إيران إثر الانتصار الذي حققه خليـل

(1) الوردي، علي: **المرجع السابق**، ج4، ص 376–384.

باشا في الكوت. وكان الفيلق ذاك تحت قيادة علي إحسان بك، و لم يسعف الوقت بإرجاعه ثانية إلى العراق للدفاع عن بغداد. لكن الأوان كان قد فات إذ على ذلك الجيش أن يقطع 400 كيلومتر مشيًا على الأقدام بعُدَّته وعتاده، للوصول إلى الحدود العراقية - الإيرانية في ثلاثة أسابيع. ولما وصل يوم 14 مارس/آذار 1917 كانت بغداد مفقودة بعد احتلالها من قِبل الجنرال مود، فتفرقت القوات العثمانية وتشرَّد البعض في براري العراق، ورجع الضباط والجنود من العراقيين إلى أهاليهم ومات البعض الآخر، وقُتِلت أو أُسرت مجموعات أخرى بأيدي البريطانيين.

3- كيف تم احتلال بغداد؟

كان الجنرال مود يتقدم مع قواته وقام بمسح الأراضي العراقية ومضى منذ يوم 5 مارس/آذار على طول الضفة الشرقية لنهر دجلة، إلى أن وصل بعد ثلاثة أيام على رأس قواته إلى ديالى. وفشلت المحاولة البريطانية لعبور نهر ديالى سريع الجريان بينما كان الجيش البريطاني يجرُّ عُدَّته الثقيلة. وعلى الرغم من إقامة المعابر في الليل إلا أن هندسته لم تنجح في إقامة رأس جسر صغير كي تتدفق قواته عليه في المساء. وكان مود يستهدف من عمليته تلك تطويق القوات العثمانية والانتقال مباشرة إلى بغداد.

اختلفت القيادة العثمانية حول خيار الصمود أو الانسحاب، وتقرر في الأخير إجلاء القوات والموظفين من بغداد على رغم معارضة خليل باشا لهذا القرار، فنُسفت كافة مخازن الذخيرة والمنشآت العسكرية كي لا تقع في أيدي العدو، وعمَّت الفوضى وانفلت الأمن في بغداد بعد غياب السلطة وانطلق الغوغاء والرعاع في أعمال نهب واسع.

وفي صباح يوم 10 مارس/آذار 1917، قرر خليل باشا أن يتقاعد من منصبه لحماية سكة حديد بغداد - برلين (وهي أصل الصراع). كان قانطًا يائسًا من دفاعاته التي كانت تتساقط واحدة بعد الأخرى و لم تساعده الظروف ولا سوء المناخ على كسب الوقت كي يؤخر التقدم البريطاني بالرغم من محاولاته. هبت العواصف الرملية وقد انتهت العمليات في ذلك اليوم. كان خليل باشا ينتظر أية

فرصة مواتية لإنقاذ ما يمكن إنقاذه للقيام بهجوم مضاد، وفي الوقت الذي استقر فيه الطقس قرر خليل باشا أن يتراجع عن بغداد نفسها، وأعلن الجلاء عنها تحت أشعة الشمس عند الساعة 8:00 مساء من يوم 10 مارس/آذار 1917.

في اليوم التالي، امتد الطريق آمنًا نحو العاصمة بغداد، ففي صباح يوم 11 مارس/آذار 1917 دخلت القوات البريطانية بغداد، ورُفع العلم البريطاني فوق سطح القلعة القريبة من منطقة باب المعظم، ثم نُقل العلم إلى برج الساعة في ساحة القشلة، ودخلها الجنرال مود وسط احتفالات محلية أقامها بعض سكان بغداد، في حين كان هناك بعضٌ آخر يكون سقوط بغداد بأيدي الغزاة الجدد الذين وُصِفوا بالكفار. كان فقدان بغداد واحتلال بريطانيا لها حدثًا تاريخيًا مهمًّا ضمن أحداث الحرب العالمية الأولى بعد أن استمرت قرابة أربعة قرون تحكمها الإمبراطورية العثمانية. وبالرغم من خروج الناس لمشاهدة قوات المحتل الجديد إلى الشوارع، وخصوصًا شارع الرشيد في قلب بغداد، إلا أن الحدث شكّل كارثة نفسية للعراقيين، في حين خرج البعض منهم من كبته ليُعلن عن فرحه بالتخلص من حكم العثمانيين وحلمه بالازدهار في العهد الجديد! وهو يسمع الخطاب الذي وجَّهه ستانلي مود إلى العراقيين قائلاً: إن البريطانيين جاؤوا محرِّرين لا فاتحين!

4- قوة الفرسان التركية

اتجه خليل باشا وهو ينسحب شمالاً رفقة جيشه، ممتدًّا على بعد حوالى 60 كيلومترًا على طول جبهة نهر دجلة. وهناك في الجهة اليمنى كانت قطع من الجيش السادس تستريح على نهر الفرات، لكن لم يكن الجنرال مود يريد الاحتفال بالفوز ببغداد؛ إذ كان يريد نقل مقره إلى الموصل ليستقر في رأس العراق، كما قال. وعليه، أمر بمواصلة التقدم شمالاً ملاحِقًا الأتراك المنسحبين صعودًا نحو الأعلى، وسعى في بداية الأمر للاستيلاء على محطة السكك الحديدية في سامراء، ولما وجد أن الإمدادات البريطانية غير كافية، توقفت الحملة إلى حدٍّ كبير في مستوى العمليات واسعة النطاق حتى فصل الخريف، فضلاً عن شعور الجنرال مود بأن جيشه لا يمكنه أن يقاتل في ربوع بلاد ما بين النهرين إبَّان الصيف القائظ. وكان

يشعر بالقلق من أن تلك الملاحقة كانت صعبة جدًّا، خصوصًا أنه يعلم أن خليل باشا كان يستعد لشنِّ هجوم مضاد لاستعادة بغداد من خلال جيوش جديدة. وهكذا، كانت الأوضاع العراقية في بلاد ما بين النهرين أكثر استقرارًا في أواخر شهر مارس/آذار 1917. وكان العراقيون يشعرون بإحباط وقلق وأزمة جماعية وهم يرون الغزاة الجدد يحلُّون بديلاً عن حكم السلطان العثماني. وشعر البعض من أبناء النخبة بأن تاريخًا جديدًا سيُكتب عندما تبدأ مرحلة جديدة، وقد تبلورت مفاهيم عدة عن معنى الوطن والمواطنة وعن معنى الاستعمار والاستقلال الوطني ومعنى الدولة الجديدة في بلاد قديمة بينما كان الإنكليز يعلنون على الملأ أنهم جاؤوا محرِّرين لا فاتحين غزاة، وأن التاريخ التركي غادر العراق دون رجعة من أجل الخير.

في سبتمبر/أيلول 1917، بدأ الجنرال مود بتجديد عملياته العسكرية، وكان أول هدف له هو السيطرة على فوهة الطريق السلطاني القديم وكانت فلول القوات العثمانية تستسلم جماعات بعد أخرى إلى سلاح الفرسان البريطاني، بعد أن أدركت أنه لم يعد لديها من خيارات من أجل القتال![1]

وأوفد الجنرال مود القائد كوبي (Cobbe) على رأس فرقتين كانتا قد أُنشئتا حديثًا في أعلى نهر دجلة لمعالجة امتداد جغرافي يصل إلى نحو 13 كيلومترًا إلى الشمال من سامراء محطِّمًا المواقع الدفاعية التركية. وهاجم كوبي الخطوط العثمانية بعد ثلاث ساعات يوم 5 نوفمبر/تشرين الثاني ونجحت خططه في اتخاذ خط الجبهة النهرية لدجلة مسارًا لعملياته، على الرغم من تكبد سلاح الفرسان البريطاني خسائر ثقيلة خلال الهجمات الثانية على الخطوط العثمانية، وكانت القوات العثمانية في طور الانسحاب.

لكن فجأة توفي الجنرال مود والذي كان قائدًا عسكريًّا بريطانيًّا محنَّكًا، وسجَّل في صفحته نجاحًا باهرًا في العمليات البريطانية التي قادها على مسرح العراق في بلاد ما بين النهرين. مات مود بسبب الكوليرا يوم 18 نوفمبر/تشرين الثاني وحلَّ محله المارشال جين وليام، وظلَّ مسرح بلاد ما بين النهرين هادئًا معظم

---

(1) Cf. A. Bruce,.(n.d.). *17 February - 11 March 1917 - The Capture of Baghdad.* [Electronic Version]. An Illustrated Companion to the First World War.

العام 1918. كان البريطانيون يسعون لنقل القوات إلى فلسطين، وكان الأتراك يرغبون بالحصول على تعزيزات. لا أحد يريد القتال في بلاد ما بين النهرين بعد الآن[1].

في هذه الأثناء كانت الحرب العظمى تقترب من نهايتها، وكانت لندن تفكر في إجراء ترتيبات لما بعد الحرب، وكان لا بد لها من أن تُكمل خططها بإكمال احتلال العراق. وكان هدفها الاستراتيجي القادم واهتمامها الكبير يتمثلان في الاستيلاء على الموصل حيث حقول النفط في كركوك وعين زالة، فضلاً عن أن المنطقة لا بد من تطهيرها من نفوذ العثمانيين وضمٍّ ما تبقى من أراضٍ عراقية للوصول إلى حدود الأناضول قبل توقيع الهدنة[2].

قاد الجنرال Cobbe القوات البريطانية من بغداد يوم 23 أكتوبر/تشرين الأول 1918. وفي غضون يومين امتدت قواته لتغطي 120 كيلومترًا، ووصل إلى نهر الزاب الصغير؛ حيث من المتوقع أن تصده قوات عثمانية مع بعض الأهالي. وحدثني قبل أربعين سنة شاهد عيان قائلاً: إن عمليات كرٍّ وفرٍّ قد استخدمها خليل باشا بجعله جبل حمرين مناطق إغارة على الجيش البريطاني الذي تكبَّد خسائر كبيرة في صفوفه، وهو يتلقى غارات خاطفة من مقاتلين كانوا يحتمون بجبل حمرين. لكن القوات العثمانية كانت تتراجع نحو الشرق، وانسحبت كذلك لـ 100 كيلومتر إلى الشمال، ومع ذلك تعرضت لهجوم من قبل القوات البريطانية في 29 أكتوبر/تشرين الأول 1918، وكان كل ذلك يجري والجميع على بينة من محادثات الهدنة. وقرر إسماعيل حقي بك قائد القوات المنسحبة أن ليس هناك طائل من القتال ومحاولة تحقيق أي اختراق مضاد. وفي غضون يوم واحد استسلم على الرغم من خطوط الدفاع العثمانية القوية، وبانت للقوات البريطانية مدينة الموصل من المشارف الجنوبية لها على التلال، وكانت الهدنة قد تمت بين دول المحور والحلفاء، ولكن الجيش البريطاني انتهك بنود الهدنة إذ احتلت قوات لواء الفرسان البريطاني

---

(1) Duffy, M: *Battles: The Capture of Baghdad, 1917. The First World War,* (2002), Retrieved 17 August 2005.

(2) Ibid.

الموصل يوم 1 نوفمبر/تشرين الثاني 1918، وكانت تلك العملية من وجهة نظر المراقبين الدوليين والمؤرِّخين عمومًا انتهاكًا لشروط اتفاق الهدنة بصدد عمليات الحرب في بلاد ما بين النهرين[1].

ثامنًا: النهايات

لقد احتلَّ البريطانيون العراق بصعوبة بالغة، واستغرق احتلاله أربع سنوات (1914-1918)، وهي سنوات الحرب العالمية الأولى كاملة. وهيمن المحتل الجديد على العراق وأسَّس إدارة بريطانية متخذًا من بغداد عاصمة له. وألغى كل ما يتعلق بماضي العثمانيين، واعتمد على بعض الشخصيات المتنفذة في المجتمع وعلى بعض رؤساء العشائر. وبقي البلد محتلًّا من قبل البريطانيين الذين بدأوا حياة جديدة للعراق، وكان الجميع ينتظر ما ستسفر عنه نتائج الحرب العالمية الأولى من خلال مؤتمر الصلح بباريس، الذي انعقد في قصر فرساي سنة 1919 وما نتج عنه أو ما أُلحق به من معاهدات واتفاقيات. وكان كلٌّ من العراق وبلاد الشام على الطاولة الدولية[2]. و لم ينتظر العراقيون طويلاً حتى انفجر الوضع في العراق عام 1920 في ثورة شملت كل أصقاع البلد ضد المستعمر البريطاني ومخططاته، مما قاد إلى عقد مؤتمر في القاهرة ترأسه السير ونستون تشرشل، وزير المستعمرات البريطاني عام 1920، وحضره كل من السير برسي كوكس، الحاكم السياسي البريطاني في العراق، والسيدة غروترود بل، المستشارة البريطانية في العراق، والماريشال جعفر العسكري عن العراق، وخرج المؤتمر بفكرة تأسيس مملكة عراقية ورُشِّح فيصل بن الحسين ملكًا على العراق. وكان السير برسي كوكس وراء المشروع، وعُرف هذا الأخير بتجربته التاريخية في الخليج العربي وبدهائه السياسي. وتذكر المصادر أنه ذهب إلى العراق أول مرة مع الجنرال مود بعدما عيَّنه القائد العام البريطاني في العراق سنة 1917 في منصب حاكم سياسي، ثم نُقل إلى طهران ليتولى منصب

---

(1) Ibid.

(2) Fromkin, David: *A Peace to End All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East*, Avon Books, 1989, pp. 412-9, 450-5.

الوزير المفوض البريطاني، وعاد ثانية إلى العراق في 1920 لتهدئة الأوضاع وتشكيل حكومة مؤقتة، فألّفها وأسند رئاستها إلى عبد الرحمن النقيب تحت نظارة المعتمد السامي. إلا أن تلك الحكومة لم تكن فاعلة إذ إن السلطة كانت في أيدي المستشارين والمسؤولية على الوزراء.

وحضر كوكس مؤتمر القاهرة، مثلما أسلفنا، لدرس شؤون الشرق الأدنى وفي المقدمة منه: العراق، وهو الذي اقترح تأسيس جيش عراقي لتخفيف الأعباء عن بريطانيا، وهو الذي نظّم التصويت العام والمناداة بالأمير فيصل بن الحسين ملكًا على العراق تطبيقًا لقرار مجلس الوزراء في 11 يوليو/تموز 1921، ونجح المشروع لاحقًا ليأخذ العراق مساره في التاريخ المعاصر[1].

---

(1) للاستزادة، انظر:

Taylor, A. J. p. *The First World War*, Penguin Books, 1966, pp. 154-9.

Liddell Hart, B.H: *History of the First World War*, London, 1979, pp. 210-15.

الآثار السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للحرب العالمية الأولى على فلسطين والأردن

د. علي محافظة
أستاذ شرف في قسم التاريخ بكلية الآداب، الجامعة الأردنية
الرئيس السابق لجامعات اليرموك ومؤتة وجدارا

كانت فلسطين وشرقي الأردن جزءاً من الدولة العثمانية طوال أربعة قرون من الزمن. واحتلت فلسطين مكانة خاصة لدى السلاطين العثمانيين لوجود الأماكن المقدسة للديانات السماوية الثلاث فيها اليهودية والمسيحية والإسلام، ولاهتمام الدول الأوروبية الكبرى بها، والتنافس الشديد فيما بينها على فرض حمايتها على الطوائف الدينية المختلفة المقيمة فيها. أما شرقي الأردن فقد اقتصرت أهميتها على طريق الحج الشامي الذي يخترقها من شمالها إلى جنوبها، وتأمين حمايته ذهاباً وإياباً. وكانت موانئ فلسطين على البحر الأبيض المتوسط: عكا وحيفا ويافا المنافذ الوحيدة للاستيراد والتصدير بالنسبة إلى شرقي الأردن خلال هذه الفترة.

الإدارة والاقتصاد

كان شمال فلسطين (لواء عكا ولواء نابلس) تابعاً لولاية بيروت قبيل قيام الحرب العالمية الأولى، وباقي البلاد تابعاً للواء القدس المرتبط مباشرة بالباب العالي

في العاصمة إسطنبول[1]. أما شرقي الأردن فكان مقسماً إلى ثلاث وحدات إدارية هي: قضاء عجلون ويتبع لواء حوران، وقضاء البلقاء ويتبع لواء نابلس التابع لولاية بيروت، ولواء الكرك الذي يضم قضائي معان والطفيلة ويتبع ولاية سوريا.

كانت الأوضاع الإدارية في شرقي الأردن في غاية السوء والأمن فيها غير مستقر، ونفوذ العشائر البدوية قوي جداً، تمارس الغزو فيما بينها، وتفرض أتاوة (الخاوة) على الفلاحين في قراهم المنتشرة على الهضبة المطلة على وادي الأردن (الغور)[2].

ومنذ أن دب الانحلال في جسم الدولة العثمانية، وتساقطت أجزاؤه وأنهكته الحروب والثورات الداخلية، بلغ سوء الإدارة وفساد الحكم الذروة، وانتشرت الوساطة والشفاعة والمحسوبية والرشوة في جميع أجهزة الدولة. وغدا همّ الموظف العثماني جمع المال بمختلف الوسائل غير المشروعة، حتى غدا مضرب الأمثال[3]. وسلط الإداريون رجال الجندرمة (الدرك) والشرطة (البوليس) على الأهلين، وروعوا السكان، وابتزوا أموالهم، وضيقوا على الفلاحين. ولم تعد القوانين والمحاكم قادرة على درء الشر، فعمت المظالم، واستوى البريء والمذنب[4].

وعلى الصعيد الاقتصادي، شهدت فلسطين خلال النصف الثاني نمواً اقتصادياً وتطوراً اجتماعياً تركا آثاراً واضحة على البنية الاجتماعية للسكان في النصف الأول من القرن العشرين. فقد دخلت فلسطين، مع الأقطار الشامية الأخرى، في النظام الاقتصادي الأوروبي، كمنتجة للمواد الأولية، ولا سيما الحبوب وزيت الزيتون والقطن، وكسوق للبضائع والمصنوعات والاستثمارات المالية الأوروبية.

---

(1) كوثراني، وجيه: **الاتجاهات الاجتماعية - السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي 1860-1920**، معهد الإنماء العربي، بيروت، ط2، 1978، ص 97.

(2) محافظة، علي: **تاريخ الأردن المعاصر، عهد الإمارة 1921-1946**، مركز الكتب الأردني، عمان، ط2، 1989، ص 8.

(3) الخالدي، حسين فخري: **ومضى عهد المجاملات: مذكرات الدكتور حسين فخري الخالدي**، دار الشروق، عمان، 2014، ثلاثة أجزاء، ج1، ص 53.

(4) العجلوني، محمد علي: **ذكرياتي عن الثورة العربية الكبرى**، منشورات مكتب الحرية، القدس - عمان، 1956، ص 20.

وتعرضت منذ ثمانينات القرن التاسع عشر للاستعمار الصهيوني المكثف والمتسارع.

وأخذت مدنها تنمو وتتسع، بانتقال الأثرياء والأسر الإقطاعية في الريف إليها والإقامة الدائمة فيها. وبظهور طبقة متنامية فيها من التجار الوسطاء وأصحاب المهن والمتعلمين ألفت طبقة وسطى ميسورة الحال.

وساهمت القوانين العثمانية، ولا سيما قانون الأراضي (الطابو) لسنة 1858، والقانون الصادر سنة 1867 الذي منح الأجانب حق حيازة الأراضي وامتلاكها في الدولة العثمانية في تشجيع الاستعمار الصهيوني في فلسطين، وفي توسيع ملكية الأسر الثرية وكبار موظفي الدولة وشيوخ العشائر للأراضي الأميرية وأراضي الجفتلك التي يملكها السلطان. وكان من نتائج ذلك تقلص الملكيات الصغيرة والأميرية لصالح الملكيات الكبيرة. ففي العقد الثاني من القرن العشرين كانت (140) أسرة عربية تمتلك من الأراضي ما مساحته (3) ملايين و(130) ألف دونم، أي بمعدل (22) ألف دونم للأسرة الواحدة. وكان (28) ملاكاً في قضائي بئر السبع وغزة يملكون أكثر من مليوني دونم. وأملاك أسرة الحسيني في مختلف أنحاء فلسطين بخمسين ألف دونم، وأملاك أسرة التاجي الفاروقي في منطقة الرملة بخمسين ألف دونم، وأملاك أسرة الشوا في منطقة غزة بمئة ألف دونم. وكانت أسر الغصين وأبو خضرة والفاهوم والطبري ذات أملاك واسعة.

انتعشت حركة الاستيراد والتصدير في المدن الفلسطينية وظهر التمايز جلياً بين الأثرياء والأعيان والبرجوازية التجارية الصاعدة من جهة، والفئات الفقيرة من العمال والحرفيين من جهة أخرى.

وكان الاقتصاد العربي منعزلاً عن الاقتصاد اليهودي. وبلغ عدد المستعمرات اليهودية عام 1914 أربعين مستعمرة زراعية منتشرة في ألوية عكا ونابلس والقدس ولا سيما في منطقة الجليل وفي الساحل. وكان أقدم هذه المستعمرات "مكفة إسرائيل" (Mikvet Israel) التي أسسها الاتحاد اليهودي العالمي في باريس سنة 1870، كمدرسة زراعية لأبناء اليهود. وقد منحت الحكومة العثمانية هذه الجمعية (625) فداناً من الأرض قرب مدينة يافا. وتلاها تأسيس مستعمرة "بتاح تكفا" (Petah Tekveh) التي كانت أكبر المستعمرات الصهيونية

سنة 1914. وقد بدأت بـ(700) فدان على بعد تسعة أميال من يافا وأصبحت تملك (5700) فدان مزروعة بالحمضيات. وأنتجت هذه المستعمرة (675) صندوقاً من البرتقال للفدان الواحد سنة 1913.

أدى اضطهاد اليهود في روسيا ورومانيا سنة 1882 إلى هجرة العديد منهم إلى فلسطين وإنشاء المستعمرات التالية:

- مستعمرة "ريشون لوزيون" (Richon-le Zion) بمساحة (3180) فدان.
- مستعمرة "وادي الشانين" (Wadi el-Shanin) بمساحة (760) فدان.
- مستعمرة "قطرة" (Katrah) بمساحة (3570) فدان.
- مستعمرة "زخرون يعقوب" (Zichron Jacob) في سهل شارون في شمال البلاد بمساحة (3900) فدان.
- مستعمرة "روش بينا" (Roch Pinah) في منطقة الجليل بمساحة (9500) فدان.
- مستعمرة "يسود عاليه" (Yessod Hamaaleh) بمساحة (2900) فدان.
- مستعمرة "مشمار هايردن" (Mishmar Hayarden) بمساحة (1750) فدان.
- مستعمرة خضيرة" (Chederah) بمساحة (7125) فدان وقد أنشئت سنة 1891.

ومن الجدير بالذكر أن القائمين بالانقلاب العثماني سنة 1908 قد تعاطفوا مع الاستعمال الصهيوني في فلسطين. وسمحوا بإنشاء البنك "الأنكلو - فلسطيني" في يافا والقدس لتمويل المستعمرات الصهيونية. وسمحوا أيضاً بوجود مكتب للهجرة اليهودية باسم "مكتب فلسطين للهجرة" المرتبط بالحركة الصهيونية. وكان حزب الاتحاد والترقي الحاكم في الدولة العثمانية بين سنتي 1908 و1918 يخضع للنفوذ اليهودي في إسطنبول وسالونيك. وكان على رأس هؤلاء اليهود المتنفذين جاويدبيك. وهو من يهود الدونمة، واحتل عدة مناصب وزارية كان أهمها وزارة المالية. وقد أنشئت (12) مستعمرة صهيونية في فلسطين في عهد حزب الاتحاد والترقي بالإضافة إلى المستعمرات الآنفة الذكر. وكانت مساحة ما يملكه اليهود،

مع بداية الحرب العالمية الأولى (130) ألف فدان، من أفضل أراضـــي فلســـطين. واستطاع اليهود الحصول عليها برشوة الوزراء والمسؤولين العثمانيين في إســـطنبول وفلسطين نفسها[1].

لما دخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى في 1914/11/11 إلى جانـــب دولتي ألمانيا والنمسا، عينت الحكومة العثمانية أحمد جمال باشا، وزير البحرية، قائداً للجيش العثماني الرابع المرابط في بلاد الشام، وكلفته بإعـــداد حملـــة عســـكرية لاسترداد مصر إلى حظيرة الدولة، بعد أن أعلنت بريطانيا حمايتها عليها وقطعـــت صلتها الرسمية بالدولة العثمانية[2]. غادر جمال باشا اسطنبول قاصداً سورية بالقطار في 1914/11/21.

أخذ جمال باشا يتقرب من أعيان بلاد الشام ومشايخ قبائلها، ويغدق علـــيهم الأموال والأوسمة والألقاب الشرفية، ويستضيفهم في دمشق من أجل التعاون معـــه لإنجاح حملته على مصر.

اتخذ جمال باشا فندق "دمشق بلاص" في دمشق مقـــراً لقيادتـــه وشـــرع في الإعداد للحملة على مصر. فاستولت كتيبة البدو المتطوعين بقيادة الميجور ممتاز بك على العريش وحصنت نفسها فيها. واستولت كتيبة أخرى بقيادة أزميرلي أشـــرف بيك على قلعة النخل في صحراء سيناء، ورابطت في بئر السبع كتيبة مـــن الفرقـــة (27). ونقل جمال باشا مركز قيادته إلى القدس، وأصـــدر تعليماتـــه إلى الحملـــة بالتوجه إلى القدس وبئر السبع. وفي 1915/1/14 بدأت طلائع قواته بـــالزحف إلى قناة السويس. وقرر الهجوم ليلة 1915/2/2 فجأة على مدينة الإسماعيلية الواقعة على الضفة الأخرى من القناة، ووجه الجناح الأيمن من قواته نحو القنطرة والجناح الأيسر على مدينة السويس. واجه الهجوم العثماني مقاومة شديدة من القوات البريطانيـــة المرابطة على الضفة الأخرى من القناة. ولم تستطع القوات العثمانية اجتياز القنـــاة بالجسور المطاطية التي جاءت بها القوات الألمانية المشاركة في الحملة. ويعزو جمـــال

---

(1) Arab Bureau, *Arab Bulletin*, No.39, Cairo, 19.1.1917, pp. 30-35.

(2) بدومون، بول وجورجو، فرانسوا: **موت إمبراطورية 1908–1923**، في **تاريخ الدولـــة العثمانية**، ج2، إشراف روبير مانتران، ترجمة بشير السباعي، دار الفكـــر للدراســـات والنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 1993، ص 307.

باشا فشل قواته في عبور القناة إلى التأخير في وصول الجنود عند الفجر، ووصولهم إلى القناة وقت الضحى مما سهل على القوات البريطانية تحطيم جسور العبور.

لما فشلت عملية العبور أمر جمال باشا قواته بالانسحاب إلى بئر السبع. وعـــاد مركز القيادة إلى بئر السبع في 1915/2/15. وقرر جمال باشا الهجوم ثانية على القناة، بعد أن نقل مقر قيادته إلى القدس. وفي 1916/4/1 وصل إلى بئر السبع سرب الطيران الألماني رقم (300)، ووصلت بطاريتا مدفعية ميدان نمساويتان من طراز هـــاوتزر في اليوم التالي. بدأ الهجوم الثاني على قناة السويس الذي قامت به فرقة المشـــاة الثالثـــة وكتيبة رشاشات وبطاريتا هاوتزر، وبطارية ألمانية من عيار (100) ميلمتر، وبطاريـــة ألمانية من عيار (150) ميلمتر، وبطاريتا مدافع مضادة للطائرات، والمجمـــوع عشـــرة آلاف مقاتل. بدأ الهجوم في تموز/يوليو 1916، وانتهى بالإخفاق التام. فانســـحبت القوات العثمانية إلى العريش، وتعقبتها القوات البريطانية[1].

أسفرت حملة السويس عن خسائر فادحة في الجانـــب العثمـــاني، حســـب الإحصاءات البريطانية: ألف قتيل و(700) جريح و(700) أســـير. أمـــا خســـائر البريطانيين حسب تقديرات جمال باشا فأربعة آلاف بين قتيل وجريح. أما خسائر قواته فهي (24) ضابطاً و(276) جندياً و(571) مفقوداً.

انسحبت القوات العثمانية إلى بئر السبع. وبقي القائـــد الألمـــاني فريـــدريش كريس فون كريسنشتاين (Friedrich Kress Von Kressenstein) في العـــريش على رأس قوة صغيرة تقدر بفوج أسماها "قوة الصحراء". وتولى قيادة الدفاع عـــن خط غزة - تل الشريعة - بئر السبع. ووقفت القوات البريطانية في غزة مـــن 27 آذار/مارس حتى تشرين الأول/أكتوبر 1917. أي ثمانية أشهر[2].

هذا على صعيد العمليات العسكرية في فلسطين وشرقي الأردن. أمـــا علـــى الصعيد الإداري فقد أعلنت الدولة العثمانية النفير العام (التعبئة العامـــة). ودعـــت

---

(1) باشا، أحمد جمال: **مذكرات جمال باشا**، إعداد محمد الســـعيدي، الكتـــاب الأول، دار الفارابـــي، بيروت، 2013، ص 246 و252 و264-265 و270 و272-273 و282 و292 و296-298 و311.

(2) نفس المصدر، ص 298.

جميع المكلفين بالخدمة العسكرية إلى السلاح. وفرضت الحكومة العثمانية الخدمة العسكرية الإجبارية على أهالي فلسطين وقضاء عجلون في شرقي الأردن. أما في لواء الكرك، فقد زار مدينة الكرك محمد جمال باشا (جمال باشا الصغير)، قائد الجيش الثامن في بلاد الشام، وجمع مشايخ اللواء وخطب فيهم، ودعاهم إلى التضحية بالنفس والنفيس للذود عن كيان الدولة. وطلب منهم أن يقدموا مجاهدين ليخدموا في حدود لواء الكرك للدفاع عن حدوده. وبناء عليه تشكلت فرقة مجاهدين من الخيالة من أبناء عشائر الكرك، وتولى تدريبهم ضابط تركي.

ولما أعلنت الثورة العربية في الحجاز تساهلت السلطات التركية مع البدو. وأخذ أحمد جمال باشا والوالي تحسين بيك يستدعيان المشايخ ويغدقان عليهم بالملابس والأموال والأوسمة والألقاب. ويركبون القطارات مجاناً، ويحرضونهم على عدم الالتحاق بجيش الثورة العربية الذي يقوده الأمير فيصل بن الحسين. وأعدت قيادة الجيش الرابع حملة من سكان لواء الكرك ومن بدو بني صخر والحويطات لقتال جيش الثورة العربية. ولما وصلت إلى معان عادت إلى الكرك دون أن تحقق هدفها[1].

وقررت قيادة الجيش العثماني الرابع جمع مبلغ (26500) ليرة عثمانية في الشام كإعانات لإقامة مستشفيات وطنية تحتوي على (2500) سرير مع التجهيزات الضرورية، لدعم الحملة على مصر، في مدة أقصاها 1915/12/1. وقرر مجلس إدارة لواء الكرك في 1915/11/4 فرض (4500) ليرة عثمانية على أهالي اللواء مساهمة في هذا المجهود. وتم توزيع المبلغ بواقع (2200) ليرة على أهالي قضاء السلط، و(550) ليرة على قضاء معان، و(700) ليرة على قضاء الطفيلة، وألف ليرة على مركز اللواء. وتشكلت لجان لجمع هذه المبالغ[2].

بعد فشل حملة جمال باشا على مصر اتبع سياسة قمع وإرهاب ضد الزعماء العرب في بلاد الشام. واتهم المتنورين العرب بالخيانة للدولة والوطن وتسليم البلاد

---

(1) **مذكرات عودة سلمان القسوس الهلسا 1877-1943**، تحقيق نايف جورج القسوس وغسان سلامة الشوارب الهلسا، عمان، 2006، ص 84 و87-88.

(2) مجموعة وثائق وأوراق أردنية ملحقة بمذكرات عودة سلمان القسوس الهلسا وغسان سلامة الشوارب الهلسا، عمان، 2006، ص 153.

إلى إدارة أجنبية. وعزا فشل الحملة إلى عدم تعاون عرب بلاد الشـام معـه وإلى اتصال المتنورين منهم بالقنصليات الأجنبية. وقدمهم إلى المجلس العرفي العسكري في عاليه بلبنان بتهم التعاون مع العدو. وحكم المجلس العرفي بالإعدام علـى القافلـة الأولى المؤلفة من أحد عشر شهيداً في 1915/8/21، وعلى القافلة الثانية المؤلفة من واحد وعشرين شهيداً في 1916/5/6. وكان نصيب فلسطين من حقد جمال باشـا وبطشه لا يقل عن نصيب غيرها من الأقطار الشامية الأخرى. فقد أصدر المجلـس العرفي المذكور الحكم بالإعدام على كل من الشخصيات الفلسطينية التالية: الشيخ سعيد الكرمي (1852-1935) الحاصل على شهادة العالمية من الجـامع الأزهـر، وحسن حماد من نابلس، وسليم أحمد عبد الهادي (1870-1915) من عرابة قرب جنين، ومحمد الشنطي من يافا، رئيس تحرير جريدة "إقدام" الأسبوعية القاهريـة، وعلي عمر النشاشيبـي الطبيب البيطري في الجيش العثماني، وحـافظ السـعيد وعارف العارف، ونفذ حكم الإعدام بأربعة منهم، وخفض الحكم علـى الشـيخ سعيد الكرمي وحافظ السعيد لتقدمهما في السن. وأعدم أحمد عارف وولده مفتي غزة في القدس سنة 1917[1]. وكان نصيب شرقي الأردن اثنين من الشهداء همـا أحمد الكايد ومصلح الفاضل الربيع بتهمة التعاون مع الإنجليز.

وتعرض العديد من سكان فلسطين وشـرقي الأردن للنفـي والإبعـاد إلى الأناضول. وكان يصرف للمنفي مواد غذائية لمدة عشرة أيام، بعد مصادرة ممتلكاته ومواشيه من قبل السلطات العسكرية. وعومل سكان عرابة وجنين معاملة سـيئة بعد إعدام الشهيد سليم أحمد عبد الهادي[2].

وتقرر نفي وجهاء المسيحيين في الكرك وعددهم (25) شخصاً في 1917/11/12 إلى الأناضول. ونقلوا بالقطار إلى دمشق فحلب فأضنة. ثم نقلوا إلى لواء قوزان حيـث استقروا في بلدة سيس. وصدر العفو عنهم وإعادتهم إلى الأردن في 1918/3/11[3].

---

(1) باشا، أحمد جمال: **الإيضاحات عن القضايا الأساسية التي جرى البحث فيهـا لـدى ديوان الحرب العرفي المنشأ في عاليه**، الكتاب الثاني، إعـداد محمـد السـعيدي، دار الفارابـي، بيروت، 2013، ص 7 و123 و178 و182-183.

(2) Arab Bureau, *Arab Bulletin*, No. 82, Cairo, 17.3.1917, pp. 85-86.

(3) **مذكرات عودة سلمان القسوس الهلسا**، ص 90-111.

وعلى الصعيد الاقتصادي، فرض الحلفاء (بريطانيا وفرنسا وروسيا وإيطاليا والولايات المتحدة) الحصار على موانئ فلسطين، وبذلك تعذر على سكان فلسطين وشرقي الأردن تصدير منتجاتهم الزراعية واستيراد ما يحتاجون من مواد غذائية من أرز وسكر وشاي وبن ومنسوجات وكاز ومواد صناعية معدنية وأدوية وإسمنت وأعواد ثقاب. ورافق هذا الحصار مصادرة المحاصيل الزراعية لصالح الجيش العثماني، وفرض الإعانات للجيش باسم التكاليف الحربية، وتجنيد الشباب القادرين على العمل في الزراعة ومختلف الحرف والمهن، ونفي الأسر العربية من مسلمين ومسيحيين إلى أقاصي الأناضول، ومصادرة أملاكها وأراضيها. وزاد الوضع سوءاً بانتشار أمراض الكوليرا والتيفوس والتفوئيد والمجاعة[1]. وبلغ الحال في فلسطين إلى أن باع كثيرون ما لديهم من مصاغ أو متاع من فراش وأوانٍ نحاسية بأثمان بخسة لتأمين المواد الغذائية الضرورية[2].

عانت الحكومة العثمانية من عجز هائل في الموازنة العامة، خلال سنوات الحرب، فأصدرت العملة الورقية بدل العملة الذهبية والفضية لسد ذلك العجز. وأصدر السلطان محمد رشاد سنة 1914 الغرش الذي يساوي (40) بارة من النيكل. ومع بداية الحرب لم تعد العملة الورقية قابلة للإبدال. وعانى سكان فلسطين وشرقي الأردن من إصدار هذه الأوراق النقدية. وارتفعت أسعار المواد الغذائية والأقمشة بنسبة (1675) في المئة، وقلت المؤن في هذين القطرين بسبب مصادرة الحكومة لها، وغزو الجراد لبلاد الشام كلها، فأتى على الأشجار والمزروعات. وتدفق المهاجرون الأرمن إلى فلسطين وشرقي الأردن. وفرضت السخرة على الناس لقطع الأشجار ونقلها على دوابهم لتأمين سير القطارات الناقلة للجند ومؤنهم[3].

(1) قاسمية، خيرية: **الحكومة العربية في دمشق 1918–1920**، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1970، ص 24.

(2) الخالدي، حسين فخري: **ومضى عهد المجاملات**، ص 75.

(3) شقيرات، أحمد صدقي: **تاريخ الإدارة العثمانية في شرقي الأردن 1864–1918**، آلاء للطباعة والتصميم، عمان، 1992، ص 71 و76. انظر أيضا: فرومكين، ديفيد: **نهاية الدولة العثمانية وتشكيل الشرق الأوسط**، ترجمة وسيم حسن عبدو، دار صفحات، دمشق، 2015، ص 120.

وانتشرت الملاريا والكوليرا في الجيش العثماني والمدن الفلسطينية. وكانت نسبة الوفيات عالية سنة 1915 وخفت سنة 1916. وانتشر التيفوس بين الجيش والسكان في صيف 1916، وأصابت الحمى الراجعة الجيش سنة 1915، وانتشر الجدري بين السكان مثلما انتشر السفلس، وافتقرت الصيدليات إلى الأدوية.

وازداد انتشار الرشوة في سنوات الحرب، وكانت الخمسون ليرة ذهبية نابليونية كافية لإعفاء رجل من الخدمة العسكرية. وكان "بدل الخدمة العسكرية" يدفع للإعفاء لمدة (18) شهراً ثم أصبح لمدة سنة واحدة. وفي تشرين الأول/أكتوبر 1917ألغى الصدر الأعظم أنور باشا البدل كلياً. وتم التحايل على هذا القرار بالتبرع للمجهود الحربي بمواد معينة للإعفاء من الخدمة العسكرية لمدة سنة. وحدد ذلك كما يلي:

4000 كيلوغرام حنطة	3200 كيلوغرام حمص
4350 كيلوغرام شعير	3220 كيلوغرام برغل
4000 كيلوغرام بطاطا	4200 كيلوغرام ذرة هندية (صفراء)
5050 كيلوغرام عدس	4300 كيلوغرام ذرة بيضاء

ونجم عن تجنيد جميع الرجال القادرين جسدياً في الجيش، ومصادرة الخيول والبغال والحمير والجمال والأبقار، بقاء الأرض بوراً[1].

انسحاب القوات التركية من فلسطين وشرقي الأردن

قررت الحكومة البريطانية تعيين الجنرال السير إدموند اللنبي (Sir Edmund Allenby) في 27 حزيران/يونيو 1917 قائداً للقوات البريطانية من أجل غزو فلسطين واحتلال القدس قبل عيد الميلاد. اختار اللنبي الكولونيل ريتشارد مينرتزهاغن (Col. Richard Meinerzhagen) رئيساً للاستخبارات العسكرية والكولونيل ويندهام ديدز (Col. Windham Deedes) الخبير بالشؤون العثمانية رئيساً للقسم السياسي في هذه الاستخبارات.

(1) Arab Bureau, *Arab Bulletin*, No. 48, Cairo, 12.4.1917, pp. 180-187.

وفي تلك الأثناء كانت قوة من جيش الثورة العربية الشمالي بقيادة الشريف ناصر بن علي وعودة أبو تايه قد احتلت العقبة في 1917/7/6. وذهب الكابتن لورنس (Capt. Lawrence) إلى مصر والتقى بالجنرال اللنبي، وعرض عليه نقل قوات الجيش العربي الشمالي بقيادة الأمير فيصل بن الحسين إلى العقبة وفتح جبهة مع القوات التركية في جنوبي شرقي الأردن[1]. والواقع أن احتلال العقبة ذو أهمية استراتيجية. فقد استعملتها القوات التركية لزرع الألغام في مياه البحر الأحمر. وكانت القوات البريطانية تخشى أن تستعملها القوات الألمانية قاعدة لغواصاتهم. وقد أسفر احتلال العقبة عن قتل (600) جندي تركي واسر (760) منهم[2].

بعد وصول جيش فيصل إلى العقبة، قرر الجنرال اللنبي أن يعتبر جناحاً أيمن لجيشه الذي كان يواجه القوات التركية المنتشرة على خط غزة - بئر السبع في فلسطين. وأخذ يمده بالأسلحة والمعدات. فزوده بخمس سيارات مصفحة، وسرب من الطائرات، ومدفعين محمولين، ومفرزة من الهنود المسلمين بالرشاشات، ومفرزة من الجمالة المصريين. وألحق به مفرزة فرنسية تحمل أربعة مدافع جبلية. وخاض الجيش العربي الشمالي معارك ضارية ضد القوات التركية في وادي موسى والطفيلة ومعان. وتغلغلت سراياه في قلب الجبهة التركية حتى وادي الحسا وجرف الدراويش وقلعة الأزرق[3].

في 1917/10/31 هاجمت قوات اللنبي فلسطين. ولما كانت مدينة غزة محصنة جيداً فقد تلافى اللنبي الهجوم عليها، والتف بقواته إلى بئر السبع ففاجأ القوات العثمانية فيها. ودفع اللنبي بقواته إلى شمال يافا متجهاً إلى القدس التي احتلتها في 1917/12/11، وأخضعها للحكم العرفي العسكري. وانشغل اللنبي

---

(1) فرومكين: **نهاية الدولة العثمانية**، ص 262-263 و265.

(2) موسى، سليمان: **لورنس والعرب: وجهة نظر عربية**، منشورات وزارة الثقافة، عمان، ط2، 1992، ص 90-91.

(3) موسى، سليمان: "إنجازات الثورة العربية الكبرى"، في قاسم محمد صالح وقاسم محمد الدروع (محرران)، **النهضة العربية الكبرى: دراسات وأبحاث**، مديرية التوجيه المعنوي، عمان، 1989، ص 112.

منذئذ بوضع الخطط والإجراءات اللازمة لاستئناف هجومه على القوات التركية المرابطة في فلسطين[1].

حشد اللنبي في ميدان فلسطين تسع فرق مشاة وثلاث فرق فرسان وقوة كبيرة من الأسلحة المتخصصة. وكان قد تولى الجنرال الألماني إريش فون فالكنهاين Erich Von Falkenhayn قيادة القوات التركية في فلسطين في غياب أحمد جمال باشا في زيارة لألمانيا والدفاع عن البلاد[2].

وضع اللنبي خطة هجوم على طول الجبهة ينتهي بالاستيلاء على دمشق في أيلول/سبتمبر 1918. وعهد إلى القوات العربية في شرقي الأردن بمهمة قطع المواصلات بين دمشق وفلسطين وشرقي الأردن، باحتلال مدينة درعا النقطة الحيوية للمواصلات. اختار فيصل قوة نظامية قوامها (600) جندي وضابط، وانضمت إليها الوحدات الفنية البريطانية والفرنسية ونحو (500) من أبناء القبائل البدوية للقيام بتدمير خط سكة الحديد بين عمان ودرعا ودمشق وحيفا.

بدأ الهجوم البريطاني على خطوط الجيشين السابع والثامن التركيين في صباح 1918/9/19. تراجعت القوات التركية أمام هذا الهجوم المتوازي بين القوات البريطانية والعربية. انسحب الفيلق الثاني من الجيش التركي الرابع من معان واستسلم للقوات البريطانية. واستولت القوات العربية على درعا في 1918/9/27. ووصلت طلائع الجيش العربي إلى دمشق مساء يوم 1918/9/30، ودخل إليها الجيش النظامي العربي صباح يوم 1918/10/1، ودخل الأمير فيصل إليها يوم 1918/10/3[3].

---

(1) فرومكين: **نهاية الدولة العثمانية**، ص 266-267 و270.

(2) باشا: **مذكرات جمال باشا**، ص 313-314، و324 و326.

(3) موسى، سليمان، "إنجازات الثورة العربية الكبرى"، ص 112-114، وممدوح عارف الروسان، **حروب الثورة العربية الكبرى في الحجاز وبلاد الشام 1916-1918**، مكتبة الكتاني، إربد، 1986، ص 56-57 و76-77، وسليمان موسى، **مذكرات الأمير زيد: الحرب في الأردن 1917-1918**، ط3، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، عمان، 2011، ص 225، وأحمد قدري، **مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى**، مطابع ابن زيدون، دمشق، 1956، ص 70-72،

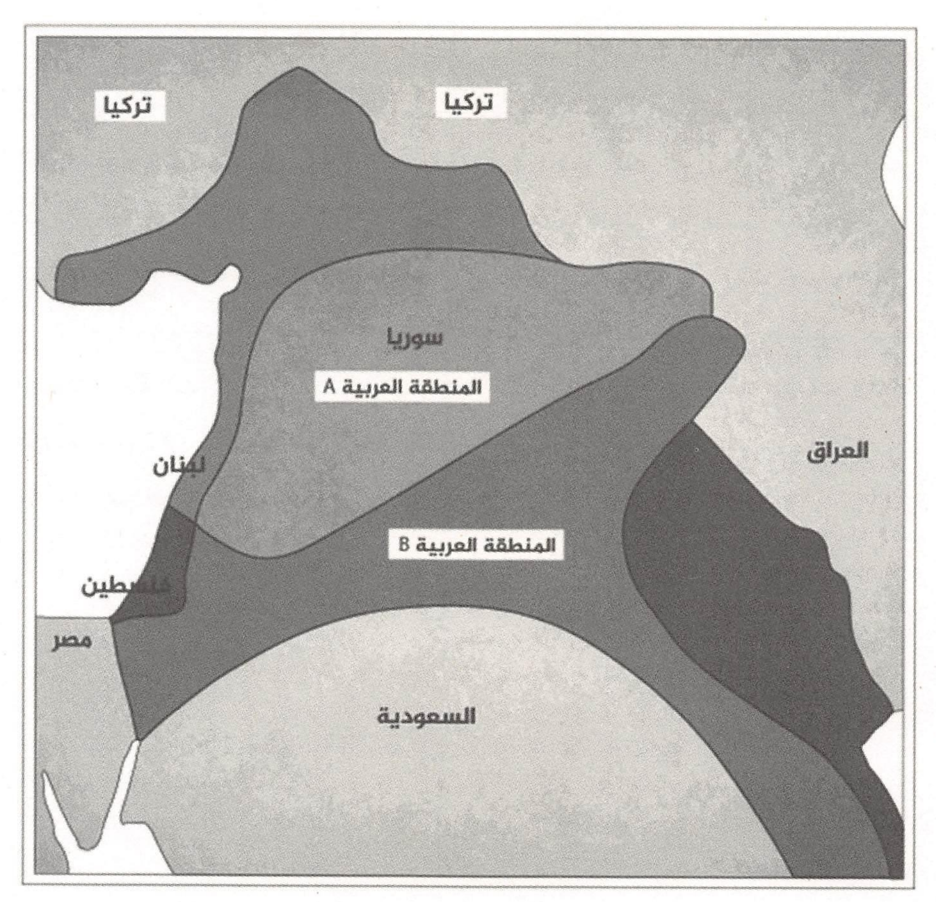
Arab Bureau, Arab Bulletin, No. 106, Cairo, 22.10.1918, pp. 343-350.

وأثناء العمليات العسكرية في فلسطين، احتلت القوات البريطانية مدينة السلط في شرقي الأردن في 1918/3/24، وبقيت فيها خمسة أيام، ثم اضطرت إلى الانسحاب منها بسبب تطور الوضع العسكري. فما كان من سكان السلط من المدنيين إلا أن غادروا مدينتهم مشياً على الأقدام أو على دوابهم متجهين إلى القدس. وبلغ عددهم أربعة آلاف نسمة. ولجأ الأثرياء منهم إلى بيت لحم والخليل. وكان معظمهم من المسيحيين الذين خشوا انتقام القوات التركية منهم بعد انسحاب القوات البريطانية من المدينة (بلغ عدد المسيحيين (3871) نسمة وعدد المسلمين (278) نسمة). وتولت السلطات البريطانية في القدس تأمين الإيواء والغذاء لهم جميعاً[1].

---

(1) Arab Bureau, *Arab Bulletin*, No. 86, Cairo, 21.4.1918, pp. 125-128.

انظر أيضا: رؤوف أبو جابر، **تاريخ شرقي الأردن واقتصاده خلال القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين**، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، عمان، 2009، ص 137-148.



خريطة سايكس بيكو

الحياة الاجتماعية والتربية والتعليم

انقسم عرب فلسطين، حسب أنماط معيشتهم إلى فئات ثلاث هي: سكان المدن، وسكان الريف (الفلاحون)، والبدو. كان سكان المدن يؤلفون (35) في المئة من مجموع السكان، وسكان الريف يؤلفون (57) في المائة وسكان البادية (8) في المئة[1]. وانقسم السكان أنفسهم حسب الدين إلى مسلمين وأهل ذمة. وانقسم المسلمون إلى سنة وشيعة ودروز وبهائية، بينما انقسم أهل الذمة إلى مسيحيين ويهود. وانقسم المسيحيون إلى روم أرثوذكس وروم كاثوليك ولاتين وسريان وأرمن وأقباط وإنجيليين. أما اليهود في فلسطين فانقسموا إلى ثلاث فئات: سفارديم واشكنازيم وسامرة.

كان كبار الملاكين وأعيان المدن (الأفندية) وشيوخ القرى والعشائر قادة المجتمع، يتمتعون بنفوذ واسع لقيامهم بدور الوسيط بين الرعية والحكام. أما صغار الملاكين والعمال الزراعيون فقد كانوا يعملون في الحقول، ويعيشون حياة قاسية في بيوت من الطين والقش، يشاركون فيها مواشيهم. وتفتك بهم الأوبئة والمجاعات مستسلمين للأقدار راضين بمصيرهم وبما هم عليه من الجور والجهل والذل والمهانة. يرهبهم البدوي وينهب ما تقع عليه عينه من ممتلكاتهم، ويفرض عليهم "الخاوة". ويفد إليهم جابي الضرائب فلا يبقي لديهم ما يكفي مؤنتهم.

أما التجار فكانوا يقيمون في المدن، ويملكون ثروة كبيرة نسبياً. ومع انفتاح فلسطين على أوروبا نمت هذه الفئة وأصبحت تقوم بدور مهم في الحياة الاجتماعية والثقافية. فإليها ينتمي علماء الدين الذين نالوا منزلة رفيعة في الدولة والمجتمع. ومنها ظهر المثقفون الجدد الذين تخرجوا من المعاهد الأجنبية وأكملوا دراساتهم العليا في جامعات الغرب. وأقام معظم الحرفيين وأصحاب المهن الحرة كالأطباء والمهندسين والمحامين في المدن. وكان همهم تلبية حاجات المجتمع المحلي: مجتمع المدينة والقرية والبادية. والواقع أن الامتيازات الأجنبية قد حالت دون تقدم أية

(1) محافظة، علي: **الفكر السياسي في فلسطين من نهاية الحكم العثماني حتى نهاية الانتداب البريطاني 1918–1948**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 2002، ص 6.

حرفة أو صناعة، ولا سيما بعد أن غزت المنتجات الصناعية الغربية الأسواق المحلية.

وسيطرت القبائل البدوية في بوادي فلسطين وشرقي الأردن وفي غور الأردن الواصل بين القطرين، ترعى الماشية، ويغزو بعضها بعضاً، وتفرض "الخاوة" على القرى وحيثما عجز الفلاح عن حماية نفسه. وكانت هذه الفئة من المجتمع تنقسم بدورها إلى عدة فئات من حيث وسيلة العيش: رعاة الإبل، ورعاة الأغنام والماعز، ورعاة البقر. وكانت القيم الاجتماعية والأعراف والعادات والتقاليد السائدة في المدن والقرى بدوية الأصول.

كان هذا المجتمع يفتقر إلى التجانس والتماسك. وبدأت أطره في الانهيار منذ مطلع القرن العشرين. وتراجعت القيم الاجتماعية القديمة وحلت محلها قيم جديدة غربية. ونشأ صراع شديد بين الراغبين في التفرنج وتقليد الغرب وبين المحافظين أنصار التقليد للقيم القديمة. كما ظهرت فئة واعية تنادي بمبادئ جديدة، وتحاول إعادة بناء المجتمع على أسس جديدة مغايرة تماماً للبنية القديمة[1]. أما بالنسبة إلى التربية والتعليم، فلم تعرف فلسطين وشرقي الأردن التعليم الحديث قبل القرن التاسع عشر، واقتصر التعليم فيهما قبل هذا القرن على الكتاتيب والمدارس الإسلامية والطائفية. واستمر هذا النوع من التعليم فيهما إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى إلى جانب المدارس الحديثة.

كان الصبيان بين سن الخامسة والثانية عشرة يجتمعون في مسجد أو بيت خاص أو مضافة، ويقوم شيخ بتدريسهم حفظ القرآن الكريم وتجويده والإلمام ببعض مبادئ الدين الإسلامي، ولا سيما ما يتعلق منها بالعبادة وحفظ الأحاديث النبوية، وتعلم شيء من الحساب والفلك. أما نفقات التعليم فتجبى من أولياء أمور التلاميذ. ولم تمارس الدولة أية رقابة على هذه الكتاتيب. أما التعليم الأعلى فيتم في المدرسة الإسلامية التي تدرس مبادئ الشريعة الإسلامية وأصول الدين والعبادة،

---

(1) محافظة: **الفكر السياسي في فلسطين**، ص 135-136، ومسعود ضاهر، **المشرق العربي المعاصر من البداوة إلى الدولة الحديثة**، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1986، ص 447-449، ورفيق التميمي ومحمد بهجت، **ولاية بيروت**، دار لحد خاطر، بيروت، 1979، ص 91-92 و99-100 و127 و129.

بالإضافة إلى اللغة العربية (القواعد والبلاغة وفقه اللغة). وكان الكتّاب لدى الطوائف المسيحية هو الكنيسة أو الدير أو أي بيت خاص في الحي أو القرية. وكان المعلم من رجال الدين يعلم تلاميذه الكتاب المقدس وأصول العبادة المسيحية واللغة العربية.

دخل التعليم الحديث إلى فلسطين وشرقي الأردن عن طريق الإرساليات التبشيرية الأجنبية والمعاهد الحديثة: المعاهد الرسمية والمعاهد الوطنية والمعاهد الأجنبية.

صدر قانون المعارف العثماني سنة 1869. واعتبرت الكتاتيب والمدارس الدينية بموجبه مدارس خاصة، ووضعت المدارس التبشيرية والأجنبية تحت الرقابة الحكومية. وأصبح على كل مدرسة خاصة أن تحصل على ترخيص من مجلس المعارف في كل ولاية من ولايات الدولة يتضمن الموافقة على مناهجها وعلى تعيين معلميها. أما المدارس الحكومية (العمومية) التي أنشأتها الدولة على النمط الأوروبي الحديث فهي خمسة أنواع أو على خمس مراحل هي: (1) المدارس الأولية (مكاتبي صبيانية) و(2) المدارس الابتدائية (مكاتبي رشدية) و(3) المدارس الثانوية المتوسطة (مكاتبي إعدادية) و(4) المدارس الثانوية العالية (مكاتبي سلطانية) و(5) المدارس العليا (مكاتبي عليا). ونص القانون على أن مدة التعليم الإلزامي هي السنوات الأربع الأولى من التعليم الابتدائي. أما مدة الدراسة في المدارس الرشدية فأربع سنوات، ومدة الدراسة في المدارس الإعدادية ثلاث سنوات، ومدة الدراسة في المدارس السلطانية ثلاث سنوات، والمدارس العليا هي لإعداد المعلمين وتشمل المدارس الفنية والزراعية. والجامعة هي "دار الفنون" في إسطنبول[1].

وصدر قانون مؤقت للتعليم الابتدائي في سنة 1913، طبق في فلسطين وشرقي الأردن. وأصبحت مناهج المدارس الابتدائية تشمل تدريس القرآن الكريم واللغة التركية والتاريخ والجغرافيا والحساب والصحة والرياضة البدنية والعلوم المنزلية

(1) محافظة، علي: **الحركات الفكرية في عصر النهضة في فلسطين والأردن**، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1987، ص 31-34.

والموسيقى. وبلغ عدد المدارس العمومية في فلسطين وشرقي الأردن (95) مدرسة أولية وابتدائية وثلاث مدارس ثانوية سنة 1914. وضمت هذه المدارس (234) معلماً و(8248) تلميذاً بينهم (1480) تلميذة[1]. وأنشأ أحمد جمال باشا الكلية الصلاحية في القدس في بداية سنة 1915 ولأول مرة كانت لغة التعليم فيها العربية إلى جانب التركية. وكانت بمثابة كلية للتدريب. وضمت حوالي (300) طالب مسلم من فلسطين وبقية الأقطار الشامية ومن الحجاز وأقطار المغرب العربي وقازان وتركيا. وكان التعليم فيها مجانياً كما كانت ألبسة الطلاب وتغذيتهم وإقامتهم في الكلية مجانية[2].

أما المعاهد الوطنية (الخصوصية) من المستويين الأولي والابتدائي فقد بلغ عدد الإسلامية منها سنة 1914 (379) مدرسة ضمت (417) معلماً ومعلمة و(8705) تلميذاً بينهم (131) تلميذة. وكان معظمها من الكتاتيب. وأنشئت في القدس "روضة المعارف" كمدرسة خصوصية تضم كل المراحل بما فيها الثانوية العالية سنة 1908، فكانت أول مدرسة إسلامية خاصة في فلسطين، وأنشئت في القدس أيضاً "المدرسة الدستورية" سنة 1909 على يد مسلمين ومسيحيين. وكانت قد أنشئت مدرسة ابتدائية حديثة في عكا سنة 1888. وتأسست "كلية النجاح" في نابلس سنة 1918، كمدرسة ابتدائية وثانوية كاملة[3].

وكان لليهود في فلسطين مدارسهم الخاصة في القدس. وبلغ عددها العشرات سنة 1914، وضمت (200) معلم وحوالي (4000) تلميذ. ووجد نحو عشرين مدرسة في تل أبيب، بلغ عدد معلميها (51) معلماً وضمت (1400) تلميذ. وأنشئت مدارس حديثة يهودية مثل: آلاليانس، وبيت ساليل، ولاميل، والجمنازيوم في تل أبيب، والمدرسة الثانوية في حيفا، والمدرسة الزراعية قرب تل أبيب، ومعهد الموسيقى، ومعهد التمثيل في تل أبيب، ومعهد التخنيون للدراسات العليا. وتسابقت الإرساليات التبشيرية إلى إنشاء المدارس اللاتينية والكاثوليكية، ومدارس

---

(1) نفس المرجع، ص 35.

(2) Arab Bureau, *Arab Bulletin*, No. 89, Cairo, 14.5.1918, pp. 159-160.

(3) محافظة: **الحركات الفكرية**، ص 35-36.

جمعية المرسلين الكنسية التي بلغ عددها في فلسطين والأردن (47) مدرسة سنة 1896 تضم (84) معلماً و(2307) تلاميذ. وبلغ عدد مدارس "جمعية فلسطين الروسية الإمبراطورية" في نهاية القرن التاسع عشر في فلسطين عشرين مدرسة[1].

كان الأثرياء العرب في فلسطين يبعثون أبناءهم إلى الجامعة الأمريكية في بيروت والجامعات الأوروبية والجامع الأزهر في القاهرة. وكان الإقبال شديداً على دراسة الطب والقانون. وساهمت الحركة التعليمية في فلسطين في ظهور نخبة من المفكرين والمثقفين العرب ساهمت في النهضة الفكرية العربية[2].

الوعي السياسي في فلسطين

تشير تقارير قنصل بريطانيا في القدس جيمس فن (James Finn) (1806-1872) التي بعث بها إلى السفير البريطاني في إسطنبول بين سنتي 1845 و1862، إلى بواكير وعي سياسي بين عرب فلسطين. فقد ذكر القنصل المذكور في رسالة إلى السفير كلارندون (Clarendon) مؤرخة في 1854/8/3، أن بعض العرب لا يكنّ احتراماً للأتراك، ويعتبرهم غزاة فاتحين ومغتصبين للخلافة الإسلامية. وجاء في رسالة أخرى إلى السفير البريطاني مالمسبري (Malmsbury) بتاريخ 1858/9/13 أن عرب فلسطين يفهمون من كلمة الاستقلال التي راجت في تلك الفترة استقلالهم عن الدولة العثمانية. ولا يعرف إذا كانت هذه الأفكار هي من بقايا الشعارات والآراء التي خلّفها حكم محمد علي باشا في البلاد، أو أنها مجرد أفكار فجة تعبر عن ردة فعل عربية إسلامية على الحركة القومية التركية التي أكدت الانتماء الأوروبي للأتراك.

ومثّل فلسطين في البرلمان العثماني الأول الذي تألف سنة 1877 في أعقاب إعلان الدستور العثماني في السنة السابقة، أحد أعيان القدس ومفكريها يوسف ضياء الدين الخالدي. وأتيح لقريبه روحي الخالدي (1861-1913) أن ينال حظاً وافراً من التعليم والثقافة في إسطنبول وفي جامعة باريس. وقد عمل قنصلاً عاماً

---

(1) نفس المرجع، ص 37-43.

(2) محافظة: **الفكر السياسي في فلسطين**، ص 90.

للدولة العثمانية في مدينة بوردو (Bordeaux) الفرنسية بين سنتي 1899-1908. وقد وصف الظلم والاستبداد اللذين اتسم بهما عهد السلطان عبد الحميد الثاني (1876-1909)، وأطنب في الكتابة عما أصاب أحرار العثمانيين من اضطهاد وتحقير وعذاب. وتحدث عن الفساد الإداري في الدولة[1].

كان للانقلاب العثماني سنة 1908 تأثير كبير على المثقفين والمفكرين العرب في فلسطين. فقد استقبلوه بحماسة بالغة، ورحبت به صحفهم أجمل ترحيب. وقد وصفت مجلة "الأصمعي" المقدسية العهد الجديد في افتتاحية عددها الأول الصادر في آب/أغسطس 1908 بالعبارات التالية: "الحمد لله الذي أخرجنا من الظلمات إلى النور، ومنّ علينا بأن أطلق ألسنتنا في القول، بعد أن كاد يقضي عليها بالتعقيد لطول احتباسها وراء الثنايا والشفاه. ومكّن أيدينا من العمل بعد أن مرت عليها السنون، وهي مكبلة بالأصفاد حتى كادت تورثها الشلل. فلم يكن إلا طرفة عين، حتى أصبحنا طليقي الأيادي والألسنة". وأشادت جريدة "الإنصاف" المقدسية في عددها الأول في 10-1908/112/27، بالمساواة والإخاء وبعث الحياة العربية[2].

ومثّل فلسطين في مجلس النواب العثماني (المبعوثان)، الذي انتخب بعد عودة الدستور سنة 1908، كل من روحي الخالدي وسعيد الحسيني وحافظ السعيد عن لواء القدس، والشيخ أحمد الخماش عن لواء نابلس، والشيخ أسعد الشقيري عن لواء عكا.

وكان للردة الرجعية التي قام بها أنصار السلطان عبد الحميد الثاني في آذار/مارس 1909، وتحرك القوات العسكرية المرابطة في سالونيك لإخمادها، صداها في فلسطين. فقد نظم الأديب المقدسي إسعاف النشاشيبي قصيدة في الجيش العثماني منددا بالرجعية والاستبداد ومرحبا بالحرية، ومؤكدا أن الدين غالبا ما استغل واتخذ سبيلا للظلم والاستبداد، ومطلعها:

أخطري اليوم في الربوع اختيالا	لا تخافي من العدو اغتيالا
حسب القوم نائمين وخالا	كان هذا الحسبان منه ضلالا

---

(1) نفس المرجع، ص 9-10.

(2) نفس المرجع، ص 11.

نســي الكــامنين في ســلنيك يرقبون الشــؤون والأحــوالا
فـــأتوه مزمجـــرين غضـــاباً وأذاقـــوه شـــدة ووبـــالا
أنزلوه عن عرشـــة مســتكيناً وأذلـــوه في الـــورى إذلالا
أيها الشرق طال نومك فانهض للمعـــالي وصـــافح الإقبـــالا

لم تطل فرحة العرب بالدستور، إذ ما لبثت أن اختفـت وتلاشـت حماسـتهم وتأييدهم لقادة جمعية الاتحاد والترقي، وشعروا بخيبة الأمل. فانقلاب الاتحاديين لم يحقق لهم ما كانوا يرجونه، وسياسة التتريك التي اتبعوها جاءت صفعة قوية لتطلعات العرب القومية. وعبّر الشاعر الفلسطيني سليمان التاجي الفاروقي الملقب "بدوي فلسطين" عن خيبة الأمل هذه بهذه الأبيات التي يعاتب فيها السلطان العثماني محمد رشاد:

العرب لا شـقيت في عهـدك سيوف ملكك والأقلام والكتب
هم الجبال فما حمّلتهم حملـوا لكن، إذا مسّهم ضيم النفوس أبوا
كنا نعلل بالدسـتور أنفسـنا بفارغ الصبر ذاك اليوم نرتقـب
حتى إذا جاء لم يحدث لنا حدث ولا استجيب لنا في مطلب طلب

وتحول العتاب عند العرب وخيبة الأمل إلى استنكار ورفض لهيمنة الاتحاديين على الحكم، ثم إلى ثورة عارمة تغلي في النفوس، بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى، وفرض الأحكام العرفية في البلاد، وسوق آلاف الشباب العرب إلى ميادين القتـال في حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل، ومصادرة المؤن من الفلاحين والتجار لتزويـد الجند العثماني بها المشاركين في حملة السويس، وتقديم العشرات من الشباب المثقف العربـي إلى المجلس العرفي المنعقد في عاليه بلبنان، وتعليقهم على أعواد المشانق في ساحة المرجة في دمشق وساحة البرج في بيروت خلال عامي 1915 و1916. وكان من شهداء فلسطين بين هؤلاء: سليم عبد الهادي، والدكتور علـي النشاشيبـي ومحمد الشنطي، وأحمد عارف الحسيني وابنه مصطفى.

ونهض الشيخ سعيد الكرمي، أحد ضحايا أحمد جمال باشا، قائد الجيش العثماني الرابع المرابط في بلاد الشام، يدعو العرب إلى رفع راية الثورة في وجه الأتراك:

أيا أمة أودى بها مرض الجهـــل وذلّت فصارت عرضة النهب والقتل
أما فـــيكم ذو نخـــوة عربيـــة يعاف ورود الضيم من منهل الذل
ويرفع عن أبناء عدنان عارهـــا ويدفع عنهم سلطة الخائن النـــذل
تحكم فيكم نسل جنكيز فاتكاً بسيف عتوّ ليس يعروه من خل[1]

تأثر المثقفون ورجال الفكر العرب في فلسطين بالتيارات السياسية التي ظهرت في هذه الحقبة من الزمن. وتبنى بعضهم الدعوة إلى الجامعـــة الإســـلامية المناديـــة بالإصلاح الشامل في العالم الإسلامي، أمثال روحي الخالدي وأســـعد الشـــقيري وعبد القادر المظفر. وانخرط بعضهم في صفوف جمعية الاتحاد والترقي. وتبنى فريق آخر الدعوة إلى القومية العربية التي تجسدت في الجمعيات والأندية الأدبية العربيـــة العلنية والسرية. فكان من الجمعيات العلنية "جمعية الإخاء العربـــي – العثمـــاني" التي تشكلت في 1908/9/2 في العاصمة العثمانية، وكان لها فرع في القدس ضـــم (15) عضواً، منهم إسماعيل الحسيني وموسى الخالدي وحنا العيسى ونخلة زريـــق وشكري الحسيني وجميل الحسسيني وفيضي العلمي وخليل السكاكيني.

ولما تأسس "المنتدى العربـــي" في إسطنبول، في صيف 1909، كـــان مـــن أعضائه الفلسطينيين عارف العارف، ورشدي الشوا، وعاصم بسيسو ومصـــطفى الحسيني. واستمر هذا المنتدى يمارس نشاطه حتى أغلقته السلطات العثمانية ســـنة 1915. ودخل النواب الفلسطينيون في مجلس المبعوثان في "حزب الحرية والائتلاف العثماني" الذي سعى إلى منح الولايات العثمانية الاستقلال الإداري وتطبيق قاعدة اللامركزية في إدارة الدولة[2].

وساهم الطلبة الفلسطينيون عاصم بسيسو ومصطفى الحسيني وشكري غوشه في تأسيس "جمعية العلم الأخضر" في العاصمة العثمانية في أيلول/ســـبتمبر 1912. وكان الطبيب البيطري علي النشاشيبـــي، أحد ضباط الجيش العثماني من مؤسسي "الجمعية القحطانية" السرية سنة 1909، واستمرت في نشاطها السري حتى اندمجت

---

(1) نفس المرجع، ص 12-13.
(2) نفس المرجع، ص 14-17

في "جمعية العهد" في 1913/10/28. وكان هدف الجمعيتين "السعي للاستقلال الداخلي لبلاد العرب، على أن تظل متحدة مع حكومة اسطنبول اتحاد المجر مع النمسا".

وانتسب عدد من المثقفين الفلسطينيين إلى "حزب اللامركزية الإدارية العثماني" الذي تأسس في مصر في نهاية سنة 1912، ومنهم سليم عبد الهادي (من جنين) وحافظ السعيد (من يافا) وعلي النشاشيبي (من القدس). وتألفت شعبة للحزب في نابلس ضمت: توفيق عبد الغني عبد الهادي، وعبد الهادي القاسم عبد الهادي، وحسن حماد، وإبراهيم عبد الهادي، وسعيد الكرمي وعوني عبد الهادي. ولما أعلنت الحرب العالمية الأولى، اختلفت مواقف المثقفين والمفكرين الفلسطينيين منها. فمنهم من دعا الدولة العثمانية إلى التحالف مع ألمانيا، ومنهم من حبّذ التحالف مع بريطانيا.

ونالت فلسطين نصيبها من حقد أحمد جمال باشا، فنفى العشرات من أعيانها إلى الأناضول أثناء الحرب العالمية الأولى. ولما أعلنت الثورة العربية من مكة في 1916/6/10، لم يتوان أبناء فلسطين من اللحاق بها والانضمام إلى الجيش الشمالي بقيادة الأمير فيصل بن الحسين. ونظم خليل السكاكيني نشيد الثورة العربية ومطلعه:

أيها المولى العظيم	فخر كل العرب
ملكك الملك الفخيم	ملك جدك النبي
نحو هذا الملك سيروا	قبل فوت الزمن
وعلى الخصم أغيروا	لخلاص الوطن[1]

وأنشئ في القدس "المكتب العربي" من قبل قائد القوات البريطانية بعد احتلالها، تحت إدارة قسم الاستخبارات السياسية، والغاية من إنشائه استقبال العرب الذين يأتون إلى فلسطين من الأشراف الهاشميين، لتأمين مساكن لهم ومتابعة تحركاتهم وتقديم الضيافة اللازمة لهم، وتقديم المساعدة "للجنة العربية للتجنيد في

---

(1) نفس المرجع، ص 18-19.

فلسطين" التي كانت تتولى تجنيد الفلسطينيين لجيش فيصل بن الحسين[1]. وكانت هذه اللجنة برئاسة الملازم أديب وهبة. وقد أقام حفل عشاء في القدس في 1918/7/4 حضره مئتان من أعيان فلسطين، دعا فيه إلى الانضمام لجيش الثورة العربية. وتحدث في هذا الحفل عدد من قادة المجتمع الفلسطيني[2].

واجه المثقفون العرب في فلسطين إشكالية محيرة، فالقوات البريطانية الظافرة حليفة العرب، والقوات المهزومة هي قوات الخلافة العثمانية التي استظلت فلسطين بحمايتها أربعة قرون. ولذا استقبل هؤلاء قوات الاحتلال البريطانية بمشاعر متباينة وغامضة تراوحت بين الترحاب والخوف والاشمئزاز. واختلفت مواقفهم وآراؤهم من الواقع الجديد. فقد حُكمت فلسطين حكماً عسكرياً مباشراً باسم "بلاد العدو المحتلة" ووُضعت تحت إدارة الجنرال السير موني (Sir Money) المرتبط بالقائد الأعلى للإدارة العسكرية في بلاد الشام الجنرال اللنبي.

قال بعض مثقفي فلسطين أن البلاد ستصبح مستعمرة إنكليزية، لأن الإنكليز هم الفاتحون، وقال بعضهم الآخر بل ستلحق بمصر، وقال فريق ثالث: ستصبح فلسطين حرة مستقلة، وأبدى فريق رابع، ومعظمه من المسلمين التقليديين، أسفهم على زوال الحكم العثماني، لاعتقادهم أن ما حدث ضربة للإسلام وتعزيز للنصرانية. ورحب فريق خامس، ومعظمه من المسيحيين، بالإنكليز، توهماً منه بأن الوجود الإنكليزي نصر للمسيحية. وتأثر الذين رحبوا بالإنكليز بالنشاط الإعلامي للثورة العربية، باعتبار أن الإنكليز حلفاء للعرب، وهم الذين وعدوهم بالحرية والاستقلال بعد انتهاء الحرب. وعبّر الشيخ محمد القلقيلي، رئيس تحرير جريدة "الكوكب" عن رأي هذا الفريق الأخير في مقالته التي نشرها في جريدته في 1918/1/16 بعنوان "نحن وبريطانيا العظمى": "يقول العرب في أمثالهم إن الطيور على أشكالها تقع. ويقولون في آثارهم المأثورة الأرواح جنود مجندة فما اتفق منها ائتلف وما تناكر منها اختلف. ويقولون في أشعارهم التي سارت سير الأمثال:

على المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

(1) Arab Bureau, *Arab Bulletin*, No. 91, Cairo, 4.6.1918.

(2) Arab Bureau, *Arab Bulletin*, No. 97, Cairo, 16.7.1918, pp. 249-251.

فنحن العرب حالفنا، ونحن ننهض من عثرتنا، بريطانيا العظمى لأنها على شاكلتنا ونحن على شاكلتها في المبادئ الاجتماعية والأخلاق السياسية والسنن العمرانية. اتفقت روحنا مع روحها فاتفقنا وائتلفنا وتحالفنا. امتزجت مصلحتنا بمصلحتها فارتبطنا واتحدنا... فأي محظور ديني على العرب إن اعتمدوا في نهضتهم على مساعدة دولة عظيمة متمدنة مثل دولة بريطانيا العظمى؟ وأي بأس عليهم إن حالفوها وحالفتهم على قتال دولة همجية متوحشة أكبر همها القضاء على العرب والعربية ومحو الدين الإسلامي من عالم الوجود؟"[1]

وامتدح الشيخ علي الريماوي بريطانيا بقصيدة نشرت في ملحق جريدة فلسطين الرسمية التي كان يصدرها الجيش البريطاني في فلسطين بمناسبة مرور عام على احتلال القدس. وكان موضوع المقارنة دوماً الحرية التي تمتع بها العرب في ظل الاحتلال البريطاني، والكبت والاضطهاد الذي عاشوه في ظل الحكم التركي:

وهذا نهار فيه حُلت قيودنا	وقد نشط الإقدام وانطلق الفكر
بريطانيا العظمى وأنت شهيرة	وعندك طبعاً يجمل الحمد والشكر
عهدناك للمظلوم أعظم ناصر	فمن أجل هذا جاءك الفوز والنصر
عهدناك للإسلام أكرم دولة	عهدناك والعمران دينك والبرّ

ونشرت صحيفة "الكوكب" قصيدة لإسكندر الخوري البتجالي مماثلة لقصيدة الريماوي، يهجو فيها الأتراك ويرحب بالإنكليز بعنوان "رويداً أيها المدفع" نقتطف منها ما يلي:

بني التايمز قد فزتم	وبالإنقاذ قد جئتم
بلاد القدس شرفتم	فأهلاً أينما بتّم

وسهلاً فيكم أجمع

(1) محافظة: الحركات الفكرية، ص 121 و128-129.

ومن الغريب أن ردة الفعل الفلسطينية على وعد بلفور الصادر في 1917/11/2 كانت ضعيفة. ولذلك أسباب أوردها خليل السكاكيني في مقال له بعنوان "ماذا فهم العرب من وعد بلفور" نشرته جريدة "السياسة" المصرية في 1923/6/1: كتب السكاكيني: "إن العرب كانوا من الضعف والإعياء لا يستطيعون معهما أن يهتموا بشيء، وأنهم قدروا أن الوعد قد صدر لضرورات حربية اقتضتها أوضاع الحرب العالمية الأولى، فإذا زالت تلك الضرورات سقط الوعد من تلقاء نفسه. وأنهم كانوا يعرفون بوعود بريطانيا للعرب والتي سبقت وعد بلفور، كما توهموا أن الأمة البريطانية أعلى من أن ترضى بمثل هذه الخيانة لقضية العرب. ولذا فلا بد أن تنكر على حكومتها هذه السياسة الخرقاء. واعتقد العرب بقدرتهم على إبطال وعد بلفور متى تنفسوا الصعداء ووقفوا على أقدامهم بعد انتهاء الحرب. كما ذهب بعضهم إلى الظن إلى أن اليهود أعجز من أن ينالوا فلسطين ما دامت الأمة العربية حية واعية، كما تصوروا أن الوعد أقرب إلى الخيال والحلم منه إلى الحقيقة، وأن اليهود متى ثابوا إلى رشدهم وأدركوا المصاعب والمتاعب التي ستواجههم في فلسطين وفي غيرها من أقطار الدنيا تراجعوا وتخلوا عنه. وقدر العرب أيضاً أن فلسطين لن تتسع لليهود، وأن الوطن القومي لا يشترى بالمال ولا ينال بالدسائس والدعاية والمؤامرات السياسية".

وما إن شعر العرب بالنشاط اليهودي المنظم في فترة الاحتلال العسكري البريطاني وممالأة الإنكليز لليهود، حتى أسرعوا إلى إنشاء الجمعيات الإسلامية - المسيحية في مدن فلسطين الكبرى، بهدف مقاومة فكرة الوطن القومي اليهودي. وكانت هذه الجمعيات حجر الأساس الذي قامت عليه الحركة الوطنية الفلسطينية التي اتخذت شكلها المنظم بانعقاد المؤتمر العربي الفلسطيني الأول في القدس في نهاية سنة 1919. واتخذ هذا المؤتمر عدة قرارات اعتبرت بمثابة ميثاق قومي لعرب فلسطين وأهمها: رفض وعد بلفور، ومقاومة الهجرة اليهودية إلى البلاد، ورفض الانتداب البريطاني والمطالبة بوحدة فلسطين مع سورية، وتسمية فلسطين "سورية الجنوبية"[1].

(1) نفس المرجع، ص 130-131.

ولما وصلت لجنة كنغ - كرين (King-Crane Commission) التي بعث بها الرئيس الأمريكي ودرو ويلسون (Woodrow Wilson) من مـؤتمر الصـلح في باريس للتعرف على رغبات شعوب بلاد الشام في مستقبل بلادهم، إلى القدس في 1919/6/12، ارتفعت في شوارعها الشعارات التالية: "سوريا لا تتجزأ" و"نطلـب استقلالاً تاماً" و"نحتج على الصهيونية ونرفض مهاجرة اليهود إلى بلادنا" و"يعيش أميرنا فيصل" و"سوريا تمتد من جبال طوروس شمالاً إلى ترعة السويس جنوباً".

وشاركت فلسطين في المؤتمر السوري العام الذي عقد في دمشق في تموز/يوليو 1919. وانعقد المؤتمر الوطني الفلسطيني الثاني في النـادي العربـي بدمشـق في 1920/2/27 وقرر اعتبار فلسطين جزءاً لا يتجزأ من سورية، ودفع الخطر الصهيوني عن البلاد السورية، ورفض كل حكومة تتشكل في فلسـطين قبـل أن تعتـرف حكومة الاحتلال البريطاني بمطالب الشعب العربـي في فلسطين[1].

ولجأ عرب فلسطين إلى الكفاح المسلح لمقاومة الغـزو الصـهيوني لـبلادهم والاحتلال البريطاني، بعد أن سدت في وجوههم سبل النضال السياسي السلمي أو تضاءلت جدواها. وتوافرت الظروف المناسبة لممارسة العنف. فمنذ بداية الاحتلال البريطاني شعرت فئات واعية من العرب أن لا بد من إيقاف بيع الأراضي العربيـة لليهود، وردع المتعاونين معهم، فألفت جمعية سرية حملت اسم "جمعيـة الإخـاء والعفاف" في القدس سنة 1918 لتحقيق هذين الهدفين، غير أن السلطات البريطانية اكتشفت أمرها، واعتقلت بعض أعضائها ونفت بعضهم الآخـر. وكـان مـن أعضائها موظفون في بلدية القدس وبعض "قبضايات البلد" أمثال محمود الـدباغ، والشيخ سعيد الخطيب، وحسن جار الله، وعبد الرحيم الطوبجي.

وتألفت جمعية سرية أخرى حملت اسم "جمعية الفدائية" لمواصلة ما قامت بـه الجمعية السابقة. وأعدت قوائم بأسماء العرب المتعاونين مع اليهود، وسجلت أماكن سكناهم، وسعت إلى التعاون مع رجال الشرطة (البوليس) العـرب، والاتصـال ببعض شيوخ العشائر في شرقي الأردن وبسكان القرى المجاورة للقـدس لتـأمين السلاح والعتاد لأفرادها وتهيئة الفلاحين للثورة. وكان أعضاء هذه الجمعية علـى

---

(1) نفس المرجع، ص 118-119.

اتصال بأعضاء "النادي العربي" و"المنتدى الأدبي" في القدس ويعقدون اجتماعاتهم فيهما. وقد حدد جودت الحلبي، أحد قادة هذه الجمعية أهدافها في خطاب ألقاه في 1919/8/27 بقوله: "إن عملنا الرئيسي ينبغي أن يكون ضد اليهود الذين يريدون أخذ أراضينا. ولكن إذا ساعدتهم الحكومة فسنكون ضدها أيضاً"[1].

كانت الحماسة للكفاح المسلح واللجوء إلى العنف قوياً في أوساط الفلاحين، بسبب الضائقة الاقتصادية التي تعرضوا لها في أعقاب الاحتلال البريطاني، ومقاطعة اليهود للأيدي العاملة العربية في مستعمراتهم، ومعارضة القيادة الصهيونية لبرنامج القروض الزراعية للفلاحين الذي قدمه الحاكم العسكري البريطاني حلاً للضائقة الاقتصادية في البلاد. فقد كان الهدف الصهيوني إفقار الفلاحين العرب تمهيداً لإجلائهم عن أراضيهم.

وأدى تحيز الحاكم العسكري البريطاني لليهود، وفتح أبواب البلاد لمزيد من المهاجرين اليهود، وعدم الاستجابة للمطالب العربية، إلى تظاهر أهل القدس في 1920/2/27. وبعد ذلك بيومين هاجمت مجموعتان مسلحتان عربيتان مستعمرة المطلة ومستعمرة تل حي اليهوديتين في شمالي فلسطين، وقتلتا سبعة من سكانها. ونظمت مظاهرة عربية ثانية بعد هذا الحادث بأسبوع في القدس، اصطدمت ببعض العناصر اليهودية وأسفرت عن جرح عشرة منهم.

وتحرش اليهود، بعد هذه الحوادث، بالعرب في 1920/4/4، أثناء الاحتفال بعيد النبي موسى في القدس. وجرى اشتباك بين الفريقين أسفر عن مقتل أربعة من العرب وجرح (24) منهم، وعن مقتل خمسة من اليهود وجرح (211) منهم. واتسعت أعمال العنف فشملت بقية المدن الفلسطينية الكبرى في ربيع تلك السنة. وحدث صراع بين العرب واليهود في يافا في عيد العمال في الأول من أيار/مايو 1920. وهاجم سكان القرى العربية المجاورة مستعمرة "بتاح تكفا" القريبة من يافا. ونجم عن ذلك استشهاد (108) وجرح (75) من العرب ومقتل (47) وجرح (146) من اليهود.

ومع انتهاء الحكم العسكري المباشر، وقيام الحكم المدني بوصول أول مندوب سام لفلسطين وشرقي الأردن في تموز 1920، بدأت مرحلة جديدة من النضال

---

(1) محافظة: **الفكر السياسي في فلسطين**، ص 105.

السلمي قادته اللجنة التنفيذية للمؤتمر العربي الفلسطيني استمرت حتى سنة 1929[(1)].

عرب فلسطين والبعثة الصهيونية

مع دخول القوات البريطانية إلى فلسطين أبدى المثقفون الفلسطينيون والسوريون المقيمون في مصر قلقهم وخشيتهم من أن يستغل الصهاينة في فلسطين ظروف الحرب القاسية لشراء مساحات واسعة من أراضيها وطرد سكانها منها بعد انتهاء الحرب. وأشار تقرير الاستخبارات العسكرية البريطانية في القاهرة في 1918/4/20، إلى أن الضباط البريطانيين في مصر وفي فلسطين حاولوا التقليل من مخاوف الفلسطينيين والسوريين دون جدوى[(2)]. وكان الجنرال كلايتون Gilbert Clayton قد كتب إلى وزارة الخارجية البريطانية في 1917/12/20 "أن العرب مازالوا قلقين ويشعرون أن الحركة الصهيونية تتقدم بسرعة مما يهدد مصالحهم". وجاء في تقريره الذي بعث به في 1918/1/14 "على الرغم من أن مهمة إعادة الحياة الطبيعية في فلسطين والإغاثة العامة، بعد طرد الأتراك، ما زالا لا يحولان دون حصول أي اهتمام كبير بالشؤون السياسية إلا أن السكان المحليين من العرب مازالوا يظهرون بعض التوتر ضد النشاط الصهيوني، ويخشون أن تكون النتيجة قيام حكومة يهودية في فلسطين"[(3)].

وكانت لجنة الشرق الأوسط التي تكونت في وزارة الحربية في لندن لمعالجة شؤون فلسطين قد قررت في اجتماعها الذي عقد في 1917/12/19 إرسال بعثة صهيونية إلى فلسطين برئاسة حاييم وايزمان (Chaim Weizmann) وممثل عن الحركة الصهيونية في فرنسا وممثل عن الحركة الصهيونية في إيطاليا والميجور أورمسبي غور (Major Ormsby Gore)، من أجل تقديم مقترحات لأي

(1) نفس المرجع، ص 106-107. انظر أيضا: فرومكين: **نهاية الدولة العثمانية**، ص 358 و360 و362.

(2) Arab Bureau, *Arab Bulletin*, No. 87, Cairo, 30.4.1918.

(3) Arab Bureau, *Arab Bulletin*, No. 77, Cairo, 27.1.1918.

خطوات يتطلبها التنفيذ العملي لوعد بلفور. وصلت البعثة إلى يافا ومنها انتقلت إلى القدس، فاستقبلها حاكمها العسكري الكولونيل رونالد ستورز Col. Ronald Storrs. والتقت البعثة بمفتي القدس وبأعيانها العرب. والتقى وايزمان بالأمير فيصل بن الحسين، قائد جيش الثورة العربية الشمالي في معسكر وهيدة قرب العقبة. وحضر اللقاء الكولونيل جويس (Col. Joyce) من ضباط المكتب العربي في القاهرة الملحقين بجيش فيصل، بصفته مترجماً. وجاء في تقرير جويس عن هذا اللقاء أنه كان ودياً ومرضياً للطرفين. وقد أكدا أن التعاون بين العرب واليهود ضروري لمصلحة الطرفين. ورفض فيصل إصدار بيان يحدد الترتيبات السياسية المقبلة، قائلاً إن والده هو المعني بذلك. وأكد وايزمان لفيصل أن اليهود لا يريدون إقامة حكومة لهم وإنما يتمنون العمل تحت الحماية البريطانية واستعمار فلسطين وتطويرها، آخذين في الحسبان المصالح المشروعة. ورحب فيصل بعرض وايزمان لتمثيل الغايات العربية واليهودية في أمريكا. وخلص جويس إلى أن الحصيلة العملية لهذا اللقاء ليست أكثر من تعرف كل منهما على الآخر بصفة أحدهما ممثلاً للائتلاف اليهودي، والثاني ممثلاً للعرب اللذين من المحتمل أن يكون لهما رأي في تقرير مصير سورية[1]. وانتهت الحرب العالمية الأولى والتوتر على أشده بين العرب واليهود، كما بينا سابقاً خلال عامي 1919 و1920.

الوعي السياسي في شرقي الأردن

كان التعليم الحديث في شرقي الأردن، مع قيام الحرب العالمية الأولى محدوداً جداً. واقتصر على بعض المدارس الأولية وأربع مدارس ابتدائية في إربد والسلط والكرك ومعان. وانتشرت الكتاتيب في البلدات والقرى التي اتخذت المساجد والكنائس مقراً لها. وكان يدرس في كتاتيب المساجد حفظ القرآن الكريم وبعض المعلومات في اللغة العربية والأناشيد الدينية. أما في كتاتيب الكنائس فيدرس الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) وبعض المعلومات البسيطة في اللغة

---

(1) Arab Bureau, *Arab Bulletin*, No. 93, Cairo, 18.6.1918.

العربية ومبادئ الحساب. ولم تعرف البلاد التعليم الثانوي إلا في دمشق في مكتب عنبر الذي درس فيه عدد محدد من أبناء شرقي الأردن، أو في القدس حيث كان يلتحق بها أبناء الميسورين. وغابت الطباعة والنشر عن البلاد حتى قيام الإمارة الأردنية سنة 1921[1].

ولهذه الأسباب لم يشارك أهل شرقي الأردن في النهضة الفكرية العربية قبل قيام إمارتهم. فقد عاشوا في حالة من التخلف والجهل نتجت عن الفوضى وعدم الاستقرار في الداخل، والعزلة والإهمال اللذين تعرضوا لهما من جانب الدولة العثمانية. فحياة البداوة، وعدم استقرار الفلاحين في قراهم بصورة دائمة، وفقدان الأمن، حالت كلها دون نشوء المدن في هذه المنطقة، وحالت بالتالي دون ظهور فئة من المثقفين تعنى بالقضايا الفكرية العامة، وتهتم بشؤون الوطن والمواطن والدولة والأمة. وكان هم السكان الأول تأمين لقمة العيش، وتوفير الأمن والحماية اللازمين للنفس والمال والعيال.

وإذا استثنينا حفنة من الضباط الأردنيين في الجيش العثماني كان من أبرزهم الأميرالاي علي خلقي الشرايري ومحمد علي العجلوني ونجيب البطاينة وأديب وهبه والدكتور حنا القسوس، الذين انضموا إلى جيش الثورة العربية، باستثناء نجيب البطاينة الذي استشهد في ليبيا في مقاومة الاحتلال الإيطالي، لم يع شيوخ القبائل والعشائر ووجهاء القرى، وهم الطبقة العليا في المجتمع الأردني، أهمية الثورة العربية التي وصلت إليهم أصداؤها في نهاية سنة 1916. ولم يدركوا طبيعة هذا الحدث العظيم في حياة العرب، إلا بعد نجاح الثورة وقيام الإدارة العربية في دمشق على يد الأمير فيصل بن الحسين.

لم يتردد شيوخ القبائل الأردنية في الاستجابة لطلب أحمد جمال باشا، قائد الجيش العثماني الرابع، في إعداد حملة لمواجهة جيش الثورة العربية، وغزو القبائل الأردنية التي أيدت هذا الجيش وانخرطت في صفوفه. وها هو يوجه رسائل إلى شيوخ الكرك في 1917/9/10 يشكرهم على "توحيد حركتهم مع الجيش العثماني"

---

(1) محافظة، علي: **تاريخ الأردن المعاصر، عهد الأمارة 1921-1946**، مركز الكتب الأردني، عمان، 1989، ص 147.

وعلى ما أبدوه "من فرط الغيرة والصداقة في استرداد الطفيلة"، وعلى غيرتهم على الدين والدولة. وكان من السهل أن تغيّر القبائل والعشائر ولاءها دون عناء أو إغراء، وأن تلتحق بالثورة العربية وبجيشها[1].

ولما استقبل هؤلاء الشيوخ ممثل الأمير فيصل، علي بن عريد، انتظروا منه أن يقدم "الإكرامية" المعتادة، فأعلن أمامهم: "إن جريان الذهب يجري مع جريان الدم، وعندما ينقطع جريان الدم ينقطع جريان الذهب".

وكان الحسين بن علي، ملك الحجاز، قد بعث ببيان إلى "قبائل الشمال" في ربيع الأول 1335هـ الموافق 1917/1/15، يحثها على اللحاق بجيش ابنه فيصل. ووقع البيان باسم "شريف مكة وأميرها وملك البلاد العربية"، إلا أن الاستجابة لهذا البيان كانت ضعيفة، واقتصرت على فخذ من قبيلة الحويطات بزعامة الشيخ عودة أبو تايه. واستجاب شيوخ القبائل والعشائر الأردنية لدعوة جمال باشا وغزوا القبائل المتعاونة مع جيش الثورة العربية في تموز/يوليو 1917، بعد تحرير هذا الجيش لمدينة العقبة على البحر الأحمر.

ونظراً لتردد هؤلاء الشيوخ في ولائهم بين الأتراك والثوار العرب لم يتوان القائد التركي أحمد جمال باشا في نفي أعداد منهم إلى أضنة في الأناضول في أواخر سنة 1917. كما أنعم على بعضهم من المتعاونين معه بالأموال والأوسمة والألقاب الفخرية[2].

---

(1) Arab Bureau, *Arab Bulletin*, No. 75, Cairo, 3.1.1918, p. 521.
See also: Arab Bureau, *Arab Bulletin*, No. 96, Cairo, 9.7.1918, pp. 241-242.

(2) **مذكرات عودة سلمان القسوس الهلسا، ص 83.**

قائمة المراجع

المراجع العربية والمعربة:

- أبو جابر، رؤوف، تاريخ شرقي الأردن واقتصاده خلال القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، عمان، 2009.
- التميمي، رفيق ومحمد بهجت، ولاية بيروت، دار لحد خاطر، بيروت، 1979.
- جمال باشا، أحمد، مذكرات جمال باشا، إعداد محمد السعيدي، الكتاب الأول، دار الفارابي بيروت، 2013.
- الإيضاحات عن القضايا الأساسية التي جرى البحث فيها لدى ديوان الحرب العرفي المنشأ في عاليه، الكتاب الثاني، إعداد محمد السعيدي، دار الفارابي، بيروت، 2013.
- الخالدي، حسين فخري، ومضى عهد المجاملات، مذكرات الدكتور حسين فخري الخالدي، ثلاثة أجزاء، دار الشروق، عمان، 2014.
- دومون، بول وفرنسوا جورجو، موت إمبراطورية 1908-1923، في تاريخ الدولة العثمانية، إشراف روبير مانتران، ترجمة بشير السباعي (جزءان)، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الثانية، 1993.
- الروسان، ممدوح عارف، حروب الثورة العربية الكبرى في الحجاز وبلاد الشام 1916-1918، مكتبة الكتاني، إربد، 1986.
- شقيرات، أحمد صدقي، تاريخ الإدارة العثمانية في شرقي الأردن، 1864-1918، آلاء للطباعة والتصميم، عمان، 1992.
- ضاهر، مسعود، المشرق العربي المعاصر: من البداوة إلى الدولة الحديثة، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1986.
- العجلوني، محمد علي، ذكرياتي عن الثورة العربية الكبرى، منشورات مكتب الحرية، عمان، 1956.
- فرومكين، ديفيد، نهاية الدولة العثمانية وتشكيل الشرق الأوسط، ترجمة وسيم حسن عبدو، دار صفحات، دمشق، 2015.
- قاسمية، خيرية، الحكومة العربية في دمشق 1918-1920، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1970.
- قدري، أحمد، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى، مطابع ابن زيدون، دمشق، 1956.
- كوثراني، وجيه، الاتجاهات الاجتماعية - السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي، بيروت، الطبعة الثانية، 1978.
- محافظة، علي، تاريخ الأردن المعاصر، عهد الإمارة 1921-1946، مركز الكتب الأردني، الطبعة الثانية، 1989.
- الحركات الفكرية في عصر النهضة في فلسطين والأردن، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1987.

- الفكر السياسي في فلسطين من نهاية الحكم العثماني حتى نهاية الانتداب البريطاني 1918-1948، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، 2002.
- الفكر السياسي في الأردن: وثائق ونصوص 1916-1946، (ثلاثة أجزاء)، وزارة الثقافة، الطبعة الثانية، عمان، 2011.
- مذكرات عودة سلمان القسوس الهلسا 1877-1943، تحقيق نايف جورج القسوس وغسان سلامة الشوارب الهلسا، ومجموعة الوثائق والأوراق الأردنية الملحقة بها، (أربعة أجزاء)، عمان، 2006.
- موسى، سليمان، إنجازات الثورة العربية الكبرى، في قاسم محمد صالح، وقاسم محمد الدروع (محرران)، النهضة العربية الكبرى، دراسات وأبحاث، مديرية التوجيه المعنوي، الطبعة الثانية، عمان، 1989.
- لورنس والعرب: وجهة نظر عربية، منشورات وزارة الثقافة، الطبعة الثانية، عمان، 1992.
- مذكرات الأمير زيد: الحرب في الأردن 1917-1918، الطبعة الثالثة، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، عمان، 2011.

المراجع الأجنبية

- Arab Bureau, *Arab Bulletin*, Nos. 93, 48, 75, 77, 86, 87, 89, 91, 93, 96, 97, 106, Cairo, 1917-1919.
- Gilbert, Martin. *Churchill and the Jews*, Henry Holt and Co., New York, 2007.
- Lawrence, T.E. *Seven Pillars of Wisdom*, Laurel Edition, New York, 1963.
- Cape, Jonathan. *Revolt in the Desert*, London, 1927.
- Jehuda, Reinharz. and Weizman, Chaim. *The Making of a Statesman*, Oxford University Press, Oxford, New York, 1993.
- Stein, Leonard. *The Balfour Declaration*, The Magnes Press, Jerusalem, 1983.

الفصل الثالث

بلاد الشام خلال الحرب العالمية الأولى

د. سيار الجميل
بروفسور في عدة جامعات والمدير التنفيذي
لمشروع (ICNIC) للثقافات البشرية في كندا

كانت بلاد الشام تُقسَّم إلى ولايات عثمانية، هي: دمشق وحلب والرقة وطرابلس وتلحق بها كل من متصرفيتي القدس وبيروت. وكانت بلاد الشام والعراق منشأ الحركة القومية العربية التي كانت قد نشأت على أيدي النخبة المدنية المثقفة المتأثرة ليس بأفكار الحركة القومية التركية، بل بأفكار فرنسا التحررية. ولكن بقي القوميون العرب منذ العام 1908 حتى العام 1916 يطالبون العثمانيين بالبقاء في إطار الدولة العثمانية ولكن ضمن حكم عثماني لا مركزي. وقد تلاقت أهدافهم مع الثورة العربية التي انطلقت من الحجاز على يد الشريف حسين بن علي عام 1916.

1- المطالبة العربية بِعَثْمَنَة لا مركزية

كان الشارع السياسي العربي في بلاد الشام قد ازداد انسلاخًا عن العثمانيين بتأثير السياسة الجائرة التي اتبعها والي الشام جمال باشا الذي أسموه بالسفاح خصوصًا بإصداره أحكام الإعدام بحق نخبة من الشباب السياسي والمثقفين العرب في إعدامات دمشق وبيروت عام 1915. أولئك الذين كانوا قد عقدوا

مؤتمرهم العربي الأول في باريس عام 1913 من أجل نيْل حقوقهم الثقافية والإدارية والسياسية، وقد جاء ذلك كله جرَّاء السياسة التي اتبعها العثمانيون الاتحاديون والتي سُمِّيَت بسياسة "التتريك"[1]. على الجانب الآخر، كان هناك صراع محتدم بين الإنكليز والفرنسيين عامي 1912-1913 انعكس على التعامل الأوروبي مع المسيحيين والمسلمين في بلاد الشام[2].

2- المؤثرات القومية

إن صعود القومية في ظلّ الإمبراطورية العثمانية يعود إلى سنوات سابقة بتأثير المسألة الشرقية على الأقل، وبتأثير ثورة القوميات في أوروبا. وكانت القومية العربية لها جذورها في المشرق العربي، ولا سيما في بلاد الشام والعراق. كان التوجه السياسي من القوميين العرب في السنوات التي سبقت الحرب العظمى معتدلاً عمومًا. وكانت مطالب العرب ذات طابع إصلاحي ومحدودة بشكل عام في الاستقلال الذاتي، وتتمثل بزيادة استخدام اللغة العربية في التعليم، والتغييرات في التجنيد والمساهمة في إدارة الأقاليم العربية التابعة للإمبراطورية العثمانية.

لقد بدأ الشباب التركي الثورة في 3 يوليو/تموز 1908، وسرعان ما انتشرت رُوح الثورة في جميع أنحاء الإمبراطورية. ونتيجة لذلك، أعلن السلطان عبد الحميد الثاني تحت الضغوط السياسية استعادة دستور 1876 وانعقاد البرلمان (المشروطية الثانية). وتُعرف هذه الفترة بالمرحلة الثانية من الدستور. وفي الانتخابات التي

---

(1) من الأهمية بمكان قراءة أحد أبرز التقارير التاريخية البريطانية حول أوضاع المنطقة على امتداد أربع سنوات 1916-1920، انظر:
The Arab War: Confidential Information for General Headquarters from Gertrude Bell being Despatches Reprinted from the Secret "Arab Bulletin". Introduction by Sir Kinahan Cornwallis K.C.M.G. C.B.E. D.S.O, Director of the Arab Bureau 1916-1920. The Golden Cockerel Press, 1940.

(2) لقد عالج ذلك الموضوع وجيه كوثراني في كتابه، **بلاد الشام في مطلع القرن العشرين: السكان والاقتصاد وفلسطين والمشروع الصهيوني: قراءة في وثائق الدبلوماسية الفرنسية**، ط3 (بيروت والدوحة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013)، ص 181-200.

أُجريت في عام 1908، تمكّنت تركيا الفتاة من خلال لجنة من جمعية الاتحاد والترقي (CUP) من أن تكسب اليد العليا ضد الفريق المنافس. كانت CUP أكثر ليبرالية عمومًا، وحملت بصمة قوية من تأثيرات السياسة البريطانية. وتألّف البرلمان الجديد من 142 عضوًا من الأتراك، ومثّل العرب 60 عضوًا، و25 عضوًا من الألبان، و23 من اليونانيين، و12 عضوًا من الأرمن، و5 من اليهود، و4 من البلغار، ومثّل الصرب 3 من الأعضاء. وأعطت CUP في البرلمان العثماني المزيد من التركيز على المركزية وعلى برنامج التحديث.

كانت القومية العربية حتى ذلك الوقت نخبوية، و لم تكن ذات حراك جماهيري في هذه المرحلة، حتى في سوريا حيث كان التأثير العروبي هو الأقوى. ولقد أعطى الكثير من العرب ولاءهم الأساسي للدِّين أو الطائفة أو القبيلة، مع ضبابية توجهات حكوماتهم الخاصة التي كانت تُختار من بين من جاء به العثمانيون من الاتحاديين، وكلاهما كانت منافِسة قوية للقومية العربية.

أسهم الائتلافيون مع السلطان عبد الحميد الثاني في مخاض ثورة مضادة وكان حراكهم السياسي يهدف إلى تفكيك الدستور واستعادة النظام المطلق للسلطان عبد الحميد. ولقد حاول الأخير قبل خلعه استعادة الخلافة عن طريق وضع حدٍّ قاطع للسياسات العلمانية التي بدأ تطبيقها الأتراك الشباب، ولكن محاولاته فشلت، بعد أن أحكم الجيش قبضته على الموقف في العاصمة إسطنبول وقضى على الائتلافيين؛ فنفي عبد الحميد الثاني بعيدًا إلى سيلانيك وتم تغييره في نهاية المطاف لكي يحلَّ أخوه محمد رشاد محله.

3- المؤتمر العربي الأول في باريس 1913

اجتمع عدد من المثقفين والسياسيين العرب في قاعة الجمعية الجغرافية الفرنسية بسان جيرمان في باريس في يونيو/حزيران عام 1913، وهم من المشرق العربي ليعقدوا المؤتمر العربي الأول. وقدَّموا مجموعة من المطالب لتحقيق نوع من الحكم الذاتي داخل الإمبراطورية العثمانية. كما طالبوا بإصلاحات للمجنَّدين العرب في الجيش العثماني وتسريحهم عدا زمن الحرب، مع تحقيق العدالة في إدارة العرب

لأنفسهم في أقاليمهم وحقهم في التعليم بالعربية. عقد هذا "المؤتمر" طلبة شباب عرب، منهم من كان يدرس في باريس ومنهم من يقيم في فرنسا، ومن أشهرهم عبد الحميد الزهراوي وعبد الغني العريسي وعبد الكريم الخليل وتوفيق السويدي وغيرهم. وانعقد المؤتمر من دون أية وصاية فرنسية في القاعة الكبرى للجمعية الجغرافية بشارع سان جيرمان بباريس، وكان انعقاده بموافقة الدولة العثمانية؛ إذ حضره وزير الخارجية العثماني للاطلاع على المطالب العربية التي من أهمها: 1) العودة إلى حكم اللامركزية العثمانية، أي إنهم لم يطالبوا بالاستقلال عن الدولة العثمانية. 2) وكذلك طالبوا بإبقاء تدريس اللغة العربية في مدارس البلاد العربية. 3) وطالبوا أيضًا بالمشاركة في المناصب الإدارية وتوظيف العرب في الدوائر الرسمية في ولاياتهم، وغيرها من المطالب المشروعة[1]. وهنا نتساءل: لماذا يُلام أولئك الشباب من العرب عندما يعقدون مؤتمرًا سياسيًا في بلاد بعيدة؟ لماذا تنطلق التهم بلا حساب لأسباب سياسية وخلافات طائفية ونزعات شعوبية يحملها البعض ضد كل ما هو عربي؟[2].

إن مستقبلنا العربي في القرن الحادي والعشرين بحاجة ماسّة للاستلهام من تجربة النخبة العربية القومية المستنيرة عند بدايات القرن العشرين.

4 – سفر برلك ومأساة العرب

أهمية الذاكرة العربية

لن تجد عربيًا واحدًا طوال القرن العشرين يدافع عن مشاركة العثمانيين في الحرب العالمية الأولى، تلك المشاركة التي كانت بمثابة مأساة تاريخية مزّقت الدولة العثمانية شر ممزّق، وأفنت ممتلكاتها بيد المنتصرين المستعمرين الجدد وقتذاك،

---

(1) أنطونيوس، جورج: **يقظة العرب**، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، ط8 (بيروت: دار العلم للملايين، 1987)، ص 34 وما بعدها.

(2) بمناسبة مرور مئة سنة على انعقاد المؤتمر العربي الأول بباريس، انعقد في باريس مؤتمر استذكاري عن ذاك المؤتمر الأول في المعهد العربي بباريس، وشاركت فيه نخبة من المختصين والمؤرّخين والمثقفين العرب والفرنسيين.

وجعلت الممتلكات تلك تقع في قبضة الإنكليز والفرنسيين. إن الـذاكرة العربيـة وخصوصًا السورية والعراقية تحتوي على خزين من الأحزان والبشاعات التي مثّلتها حرب (سفر برلك)، ولدينا مذكرات أولئك الضباط الأوائل الـذين شـاركوا في الحرب العالمية الأولى وخصوصًا من العراقيين، وما كتبوه من خصوصيات وأسرار، فمن الأهمية البالغة قراءة مذكرات ومحاضرات وأوراق الضباط العسكريين والرجال المدنيين الذين شاركوا في أحداث الحرب العالمية الأولى وعملياتها، فضلاً عـن كتابات عبد الحميد الزهراوي وعبد الغني العريسي وساطع الحصري ومحب الـدين الخطيب وغيرهم.

النخبة الشامية ومأساتها على أيدي العثمانيين

لكي أجيب عن بعض التقولات الساخطة على الذاكرة الجماعية العربيـة، لا بد لي أن أقول: إنني لا أتجاوز حقيقة تاريخ الشريف الحسـين بـن علـي ودوره التاريخي مع أولاده ليس في هذين العامين حسب، بل على امتداد مـا وُلـد مـن تكوينات تاريخية. إنهم تعاملوا مع الفرنسيين والإنكليز علنًا وعلى رؤوس الأشهاد، وكانت مراسلات الحسين - مكماهون معلنة على الملأ كونهم اعتقدوا أن الحكـم يمر عن طريق لندن أو باريس[1]؛ فخُدعوا خدعة تاريخية لن ينساها التاريخ. يكفي أن نعرف النهاية المأساوية التي اختتم بها الشريف حسين بن علي حياته منفيًّـا في جزيرة قبرص من قِبل الإنكليز. ويكفيه أنه عاش ومات عنيدًا من أجل مبادئه الـتي ناضل من أجلها ضد الاتحاديين العثمانيين محقّقًا ما كانت النخب العربية تطمح إلى تحقيقه.

أمّا الاتهامات التي تكال للنخب العربية ومنها النخبة الشـامية: السـوريون واللبنانيون وبعض الشهداء الفلسطينيين الأبرار ومن كان معهم مـن العـراقيين، ومعظم من أُعدم من قِبل جمال باشا، فالحقيقة أنهم كانوا من أنبل المثقفين الأُصلاء والوطنيين ورجال الدين العرب الذين دفعوا حياتهم ثمنًا للتحرر من نير الاسـتبداد

(1) راجع أصول المراسلات في مراجع عديـدة، منـها: جـورج أنطونيـوس، المرجـع السابق.

والتريك؛ فهم أبوا إلا أن يحققوا استقلالهم الوطني بعيدًا عن الطائفية المقيتة والانقسامية الفظيعة(1).

عاشت مجتمعاتنا في كل من بلاد الشام والعراق مأساة تاريخية حقيقية على عهد حكم الاتحاديين، ومنذ العام 1909 كانت النخب العربية أول من طالتها المأساة بعد أن أُزيح ثقل الحكم الحميدي الذي عانت المجتمعات منه الاستبداد والطغيان. ولعل أشرس حكم تعرضت مجتمعاتنا العربية له هو ذاك الذي قبض بأنفاسه على الحياة ممثلاً بشراسة القائد التركي الشهير بالسفاح الكبير جمال الذي عاش بين 1873–1922، وكان أحد قادة الجيش العثماني، وقد عُيِّن حاكمًا على سوريا وبلاد الشام عام 1915 وفرض سيطرته المطلقة على بلاد الشام كلها، وسيِّدًا على كل أعيانها وشيوخها. كان جمال باشا أحد زعماء جمعية الاتحاد والترقي، له تاريخ صعب في قتال البلغار بمقدونيا واشترك في الانقلاب العثماني على السلطان عبد الحميد الثاني، وشغل منصب وزير الأشغال العامة عام 1913 ثم قائدًا للبحرية العثمانية عام 1914، ونُصِّب واليًا على بغداد، ونال من أحرار العراق(2).

---

(1) الخوري، فارس: **أوراق فارس الخوري** (مذكرات)، تحقيق كوليت خوري (دار طلاس للدراسات والنشر، دمشق 1988). هنا يتحدث صاحب الأوراق فارس الخوري عن فواجع التعذيب والاضطهاد أيام جمال باشا، وعن الشهداء العرب في قوافلهم الثلاث، ومن ثمَّ إعلان الثورة العربية وحزب العربية الفتاة واشتراكه في رفع العلم العربي في دمشق يوم طرد الترك منها عام 1918.

(2) Fromki, David: *A Peace to End All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East*, Avon Books, 1989, p. 214; Cf. K. Salibi, "Beirut under the Young Turks: As Depicted in the Political Memoirs of Salim Ali Salam (1868-1938)" In J. Berque, & D. Chevalier, *Les Arabes par leurs Archives*: XVIe-XXe siecles. Paris, Centre National de la Recherche Scientifique, 1976.

5 - اندلاع الحرب العالمية

اشتعال الجبهات

أعتقد أن الشرق الأوسط، كان مسرحًا حقيقيًّا للحرب العالمية الأولى. لقد تعددت جبهات الحرب الأولى؛ فهناك جبهة البلقان الأوروبية والجبهة الغربية والجبهة الشرقية والجبهة الإيطالية وجبهة القوقاز شرق الأوسطية وجبهة بلاد فارس وجبهة غاليبولي وجبهة العراق أو بلاد ما بين النهرين وجبهة سيناء وفلسطين وجبهة العرب وجبهة جنوب وغرب إفريقيا وجبهة شرق إفريقيا وجبهة شمال إفريقيا وجبهة المحيط الهادئ ومسارح الحرب في أميركا والمحيط الأطلسي وجبهة البحر الأبيض المتوسط ومسارح الحروب البحرية الأخرى.

عند نشوب الحرب العظمى الأولى دعت فرنسا إلى الجهاد العسكري ضد الإمبراطورية العثمانية وروسيا في نوفمبر/تشرين الثاني 1914. والسؤال التاريخي الذي يفرض نفسه حتى يومنا هذا: كيف أثَّرت هذه الحملات من قِبل الحلفاء لاحقًا في الشرق الأوسط؟ لقد كان العمل على إزالة إمبراطورية قديمة - كما كان يُطلق على السلطنة العثمانية - قد مرَّ من خلال حرب عظمى عرفها العالم كله كأول حدث يشمل أكثر من قارة، وأحدث تحولاً هائلاً في التوازن في المنطقة التي تُعتبر قلب العالم، بل وأحدث فراغًا كان لا بد أن يملأه كل من القوتين الأساسيتين: بريطانيا وفرنسا اللتين انتصرتا في الحرب ضد الألمان وضد حلفائهم العثمانيين[1]، ناهيكم عن الدور الروسي الذي كان له تأثيره في نشوب الحرب الأولى، بل هناك من يؤكد أن أصول الحرب كانت روسية بحتة[2].

لقد اندلعت الحرب على عدة جبهات في قلب أوروبا، وكانت هزيمة الدولة العثمانية التي كانت توصف أوروبيًّا بـ "الرجل المريض" مؤكدة من خلال ما عُقد من اتفاقات ومعاهدات وما جرى من مراسلات بشأن مصير المنطقة العربية، ومن ضمنها العراق وبلاد الشام.

---

(1) Cleveland, William: "World War I and the End of the Ottoman Order" in *A History of the Modern Middle East*, Westview Press, 2004, 146-167.

(2) McMeekin, Sean: *The Russian Origins of the First World War*, Belknap Press of the Harvard University Press, 2011, pp. 198-201.

التحركات الأولى

لقد كان هناك عدد قليل من الأحداث المريرة في تاريخ العالم، والتي لها تأثير أكثر عمقًا وأكبر وزنًا من أحداث الحرب العالمية الأولى (1914-1918). وعلى الرغم من أن محاولة ألمانيا القيصرية للهيمنة على أوروبا قد تبلورت وأُحبطت في النهاية، فإنها دمَّرت أيضًا التوازن في المنطقة بسبب القتال العنيف بين عناصرها المختلفة التي فتحت عيونها على عالم جديد ومتطور لم تألف مثله من قبل. وبدأ التفكير المقارِن بين ما كانت عليه الحال عثمانيًّا وما وصلت إليه الحال أوروبيًّا[1].

في بداية شهر نوفمبر/تشرين الثاني عام 1914 أعلنت الإمبراطورية العثمانية التخلي عن حيادها؛ فبدت صورتها متناقضة ليس أمام دواخلها، بل إزاء العالم، كونها إمبراطورية قديمة، ولكنها كانت تصر وتريد أن تجد لها موطئ قدم في العالم المعاصر الذي يتزعمه الأوروبيون الجدد الذين خرجوا موحَّدين في كلٍّ من ألمانيا وإيطاليا، في حين أبقت الدولة العثمانية على قيمها السياسية القديمة، ولم تنفع معها لا الإصلاحات التي أقرَّتها، ولا التنظيمات التي طبقتها من خلال القوانين الجديدة[2].

في بداية شهر نوفمبر/تشرين الثاني عام 1914، تخلَّت الإمبراطورية العثمانية، وكانت تعتبر نفسها أعظم قوة إسلامية مستقلة في العالم، عن حيادها، لتغدو متناقضة تجاه الأطراف المتحاربة، وكانت قد شاع في أوروبا على إثر خسائرها أمام الروس وإخفاقها في المسألة الشرقية، تسميةٌ تهزأ بها هي (الرجل المريض)، والذي أصبح أحد الأطراف المتحاربة في النزاع، فكان السلطان قد دُفِع من قِبل قادة البلاد الاتحاديين إلى إعلان الجهاد العسكري (الحرب المقدسة) ضد فرنسا وروسيا وبريطانيا العظمى؛ فنزل الخبر على العراقيين والسوريين خصوصًا نزول الصاعقة، لا سيما أنه اقترن بما سُمِّي في ذلك الوقت بـ "النفير العام"[3]!

---

(1) McMeekin, Sean: *The Berlin-Baghdad Express: The Ottoman Empire and Germany-s Bid of World Power*, The Belknap Press of Harvard University Press, 2010, pp. 288-297.

(2) *Loc. Cit.*

(3) الجميل، سيار: **تكوين العرب الحديث 1516-1916**، ط1، جامعة الموصل، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، 1990، ص 512.

6- الرجل المريض: عملاق متقهقر

كانت الإمبراطورية العثمانية رجلاً مريضًا بالفعل بعد أن فرض الروس إرادتهم عليها، وبعد أن أذلّتها الهزائم في البلقان والنكسات في ليبيا وبعد اختراق بريطانيا البحار العربية وتوقيعها للمعاهدات واحتلالها لمدن وسواحل. وكان الإسبان والفرنسيون قد احتلّوا أجزاء عربية وعثمانية، كما زُرع العديد من القنصليات الأوروبية في العراق؛ إذ كان العراق يُعد من البلاد الصعبة التي كان البريطانيون يفكّرون في إنجاح احتلالهم لها منذ زمن طويل. لقد كان العثمانيون سذجًا في إدخال بلادهم الشاسعة في حرب أوروبية، كونهم اعتبروا أنفسهم من الأوروبيين، فكان أن فقدوا ممتلكاتهم الأوروبية والآسيوية والإفريقية معًا، وحتى تلك التي في البحار. إن المشاركة في حرب أوروبية قد يبدو للمراقبين في الخارج عملية سهلة، ولكنها من الناحية الجيوتاريخية تُعد عملية انتحارية بكل ما تعنيه الكلمة من معان.

كانت بريطانيا تنسّق مع الشريف حسين من خلال المراسلات التي جرت بينه وبين السير هنري مكماهون ممثل بريطانيا في مصر، وكان حامل رسائل الشريف حسين ولده الشريف عبد الله بن الحسين، في حين كان ممثله السياسي في مصر شريف الفاروقي الموصلي(1)، ووعد الشريف حسين بتأسيس مملكة عربية تضم كل المشرق العربي وكان ولده الآخر الشريف فيصل بن الحسين ينسق جهوده مع الساسة السوريين من طرف ومع الضباط العراقيين الأحرار من طرف آخر، واشتعلت الثورة العربية في 1 يونيو/حزيران 1916.

7- الاستهداف البريطاني: بغداد والقدس

تقدمت بريطانيا في العراق واحتلّت البصرة وبغداد والموصل إبّان سنوات الحرب العالمية الأولى 1914-1918، ولقد تزامن احتلال بغداد والقدس في سنة واحدة 1917؛ بغداد على يد الجنرال مود والقدس على يد الجنرال اللنبي، الأول

(1) الجميل، سيار: **زعماء وأفندية**: الباشوات العثمانيون والنهضويون العرب، ط1، بيروت وعمّان، الأهلية للنشر والتوزيع، 1997، ص 312.

ضمن خطة مدرسة حكومة الهند البريطانية والثاني ضمن خطة مدرسة حكومة بريطانيا في مصر! فماذا عن تحركات اللنبي نحو القدس؟

دخل الجنرال اللنبي القدس يوم 11 ديسمبر/كانون الأول 1917 بعد أن فشل موراي في أخذ غزة ليحل محله الجنرال السير إدموند اللنبي، وهو معروف بحنكته ومهنيته وروحه العسكرية وتحمُّله للصعاب، وكان قادرًا على خلق رابطة شخصية مع قواته. وكانت حكومته تأمل من خلاله تحقيق نصر ملموس على الأرض لرفع المعنويات في الداخل، وكان مرنًا للمضي قُدمًا إلى القدس.

في أكتوبر/تشرين الأول 1917 عندما كان الطقس أكثر ملاءمة وبعد سقوط بغداد بأيدي البريطانيين، تحرك اللنبي بقواته المشاة وكانت تشكّل قوة كبيرة، وتشتمل على العديد من الجنود الذين جيء بهم من أستراليا ونيوزيلندا، لاختراق الجبهة بين غزة وبئر السبع. بعد أن كان سلفُهُ قد وجد صعوبات في اختراق التلال. وامتدَّ اللنبي من خلال بوابة يافا نحو القدس في 11 ديسمبر/كانون الأول 1917، واعتبر ذلك نصرًا معنويًّا ورمزيًّا في التاريخ وعبَّر عنه أحدهم قائلاً: "إنه أول فاتح أوروبي للقدس منذ الحروب الصليبية!!"[1].

وبثّ الوعي بذلك في جنوده بعمق؛ إذ شعروا بأنهم كانوا يقاتلون على الأراضي المقدسة، وبعضهم عدَّ نفسه من الصليبيين في العصر الحديث، ولكن اللنبي أدرك أنه لا ينبغي زرع هذه الفكرة أبدًا في مجتمع إسلامي يخترقه باسم بريطانيا العظمى! لقد كان هناك اتفاق بين لويد جورج والفرنسيين لتحقيق غايات مشتركة من خلال اللنبي الذي جمع جنوده من مصادر متعددة في مصر، وأغلبهم من الهند وبورما وجزر الهند الغربية[2].

وبدأ الهجوم بالمدفعية ومشاركة القوة الجوية التي أذكت الروح المعنوية، وبمساعدة من حلفاء عرب، فدمَّر بسرعة الجيوش العثمانية التي تواجهه. وكانت دمشق قد سقطت، ثم احتُلَّت حلب في 1 أكتوبر/تشرين الأول، مع سقوط الموصل

(1) Hughes, Matthew: *Allenby and British Strategy in the Middle East 1917-1919*, Routledge, 1999, pp. 86-8.

(2) Ibid., pp. 92.

بعد أيام. وجاءت الهدنة لتكون في حيز التنفيذ مع الإمبراطورية العثمانية بعدما كانت قوات اللنبي قد تقدمت منذ 19 سبتمبر/أيلول مئات الأميال[1].

وانتهت الحرب مع احتلال البريطانيين الأراضي التي كان الإنكليز قد خططوا لاحتلالها، فسقط كل من العراق وفلسطين وشرق الأردن وسوريا ولبنان، وانسحبت القوات العثمانية وأُسقط بيد روسيا التي شلّها التدخل الأجنبي. وكان النفوذ الفرنسي محدودًا نوعًا ما في منطقة الشرق الأوسط، ولكن انتصار البريطانيين أثبت أنها القوة المهيمنة في المنطقة، لترسم التسوية الناتجة عن ذلك على النحو الذي سترسمه قرارات مؤتمر فرساي 1919 والمعاهدات التي وُلِدت على إثر ذلك المؤتمر الخطير، فتبدأ صفحة استعمارية خطيرة ستفتح الباب أمام تأسيس كيان صهيوني في فلسطين الذي سيشكّل مصدر خطر في الصراع الذي استمر حتى اليوم. هكذا بدأ تاريخ هيمنة القوى الغربية المتغطرسة، ولقد وُزِّعت أكياس من الذهب لشراء الذمم، وكانت تُمثّلُ الدبلوماسيةَ أخطر شخصية غامضة كان لها دورها في اختراق العرب وهي الممثّلة بـ "لورنس العرب" الذي خدع العرب بشعار الاستقلال العربي[2].

شعر العرب بأنهم خُدعوا بعد أن انفضح أمر اتفاقية سايكس - بيكو عام 1916 في أعقاب اندلاع الثورة البلشفية عام 1917، وكانت اتفاقية بين الإنكليز والفرنسيين لتقسيم المنطقة، إلا أن البريطانيين أخلُّوا بتعهداتهم التي منحوها للعرب ضد العثمانيين، فرُسمت الحدود المصطنعة، لتُنشأ كيانات سياسية جديدة، وتغدو أوطانًا تتنازع فيما بينها، وبدأ مصير فلسطين يذهب في طريق اللارجعة وسط ذهول وإحباط وغضب السكان العرب، وهم يسمعون بوعد آرثر بلفور وزير الخارجية البريطاني عام 1917 بتأسيس وطن قومي لليهود وتحقيق المشروع الصهيوني وافتراس فلسطين على مشهد ومسمع من كل العالم[3].

---

(1) Cf. James, Lawrence: *Imperial Warrior. The Life and Times of Field Marshal Viscount Allenby 1861-1936*, Weidenfeld & Nicolson 1993, pp. 109-113.

(2) Murphy, David (Illustrated by Peter Dennis): *The Arab Revolt 1916-18: Lawrence Sets Arabia Ablaze*, Osprey Publishing, 2008, p. 26.

(3) Cf. Smith, Charles: *Palestine and the Arab-Israeli Conflict*, Bedford/St. Martin's, 2007, pp. 12-18, 32-8.

8- جمال باشا السفاح حاكمًا على بلاد الشام

وصل الوالي جمال باشا دمشق بعد نشوب الحــرب العالميــة الأولى 1914-1918، بعد تنصيبه واليًا على سوريا وبعد أن ندبه الاتحاديون (وكان ثالث ثلاثــة من زعمائهم، وهم: أنور باشا وطلعت باشا وجمال باشا)، قائدًا للجــيش الرابــع لإعداد حملة عسكرية لاحتلال قناة السويس. وكانت منطقة نفوذه تمتد من أقاصي حدود أضنة إلى المدينة المنورة. وكان أخص أعماله أن يشغل الإنكليز في حــدود مصر ليُضطروا إلى وضع قوة كبيرة من جيشهم في ترعة السويس، ليخففوا بــذلك عن الدولة في جناق قلعة، وعن الألمان في الجبهة الغربية، في حين بقي يراقب تقدم البريطانيين وهم يحتلون العراق على امتداد سنوات الحرب العالمية الأولى[1].

قبض جمال باشا على زمام السلطة في سوريا بيد من حديد، مستخدمًا كــل وسائل البطش والإرهاب والقتل والتشريد لكل الناشطين العرب[2].. ويبدو لي أن سياسته كانت جزءًا من مخطط واسع الأبعاد محققًا أهدافه التي أضــرَّت بالدولــة العثمانية ضررًا كبيرًا، ومنها:

1. تأمين الجبهة السورية لوقف اختراق البريطانيين للعراق والسيطرة عليــه لكنه لم يفعل شيئًا لإنقاذ العثمانيين من التقهقر أمام البريطانيين.
2. تأخره في إعداد الحملة العثمانية ضد البريطانيين في قناة السويس، وبعد أن وجد الخصم فرصة للاستعداد للدفاع، حتى إذا سارت الحملــة في 4 فبراير/شباط 1915 فشلت وهُزمت وعادت بقاياها منهوكة ممزقة شــرَّ ممزق.
3. خلق حكمه وأساليب سياسته العنيفة ردود فعل عربية ضد العثمــانيين والسياسة التركية الجديدة التي اتبعها الاتحاديون، ممــا هيَّــأ الأجــواء

---

(1) راجع التفاصيل في:
Cleveland, "World War I and the End of the Ottoman Order", 146-167. See also Fromkin: *A Peace to End All Peace*, p. 214.

(2) من المفيد جدًا مراجعة مذكرات الوالي جمال باشا (السفاح). انظر: **مــذكرات جمــال باشا**، إعداد محمد السعيدي، تقديم سليمان الرياشي، مراجعــة عفيــف عثمــان، دار الفارابــي، بيروت 2013، ص 324-9.

والأسباب لاندلاع الثورة العربية الكبرى عام 1916.

4. دخلت منطقتنا العربية منذ ذلك التاريخ دائرة الصراعات بين بريطانيا وفرنسا، وخصوصًا بعد أن زجَّت الدولة العثمانية نفسها في أتون الحرب العالمية الأولى؛ فالعرب لم يكونوا مسؤولين عن ذلك أبدًا، ولكنهم وجدوا أنفسهم في مركب يتنازع عليه الآخرون.
5. كانت سياسة جمال باشا مؤسَّسة على فلسفة تتريك العناصر العربية، ونُسب إليه أنه كان يعمل من أجل الاستقلال عن الدولة العثمانية في البلاد العربية لينصِّب نفسه إمبراطورًا عليها، وأنه أجرى مخابرات سرية بذلك مع الروس، ولكنَّ هذه المزاعم لم تثبت أبدًا.

9- شهداء 1916

شهداء مايو/أيار الأبرار

حمل جمال باشا معه إلى دمشق أضابير التهم وأوراق التحقيقات وتقارير الجواسيس، فشرع بالتحقيق مع أبناء النخب الأحرار من الذين كانت الدولة قد رصدت نشاطاتهم وفعالياتهم وكتاباتهم واجتماعاتهم وخطاباتهم، وعُدُّوا جميعًا زمرًا من المتهمين المدانين. وأسس جمال باشا ديوانًا عُرفيًا في قصبة عالية اللبنانية، فحكم في أوائل أغسطس/آب 1916 على 11 رجلاً نفذ فيهم القتل شنقًا في ساحة البرج في بيروت، وقبض على غيرهم بتهمة العمل للانسلاخ عن السلطنة العثمانية وإدخال الفرنسيين والإنكليز إلى الشام، وأفراد هذه القافلة الثانية 21 رجلاً شُنق منهم سبعة في دمشق والباقون في بيروت في يوم واحد[1].

بقي جمال باشا ممعنًا في غيِّه وبطشه، حتى أدركت الدولة العثمانية نتائج سياسته الفظيعة وردود الفعل الوخيمة، فقامت بنقله إلى أفغانستان حيث عُهد إليه بتنظيم جيشها، وقد قُتل عام 1921 في مدينة تفليس على يد أرمني يُدعى إسطفان زاغكيان.

---

(1) أنطونيوس، **يقظة العرب**، ص 156-9.

الاتهامات الباطلة ضد الرواد الأحرار وسياسة التتريك والتجويع

لقد عصفت المآسي المحزنة بالمنطقة العربية إبَّان الحرب العالمية الأولى، ومرَّ على كلٍّ من العراق وبلاد الشام أخطر الأحداث الجسام مع مجاعات طاحنة ونهب منظم من قِبل الدولة لموارد السكان وأرزاقهم، ومُورس شتى سياسات الإبادة والتجويع؛ حيث تم ارتكاب المجازر الشهيرة بحق الأرمن والسريان، واشتعلت الفتن القومية بين عناصر وأعراق مختلفة ومتنوعة، كما تركزت حملات الملاحقة على الوطنيين العرب، وبشكل خاص ضد النخبة المثقفة من المستنيرين الذين كانوا يعملون على بعث الحضارة العربية من خلال صنع إرادة عربية كبرى بأدوات ثقافية. واتبع الوالي جمال باشا سياسة ماكرة في تجويع الناس واللعب بالورقة الاقتصادية، قاطعًا خطوط الإمدادات التجارية وركَّز على مناطق جبل لبنان، وتمثَّل ذلك بصورة خاصة باحتكار السلطات التركية تجارة المواد الغذائية، ومنع استيراد جبل لبنان للحبوب من مناطق الداخل (البُر السوري)، وقطع مسالك الإمدادات العراقية – السورية عبر الجزيرة الفراتية مما جعل السكان يعانون أشد المعاناة في كلٍّ من سوريا والعراق. وعليه، فإن أقل ما يمكن أن يوصف به حكم الاتحاديين العثماني في البلاد العربية أنه كان حُكمًا ظالمًا لبشاعاته وانعدام أخلاقياته، فضلاً عن جلاء الجانب العنصري باحتقار الأتراك الاتحاديين للعرب احتقارًا فظيعًا فهم يصفونهم بـ "بيس عرب"، أي: العرب الأقذار[1].

10- الثورة العربية وجبهة بلاد الشام في الحرب العالمية الأولى

ما يخصنا هو جبهة الثورة العربية (1916-1918) التي أشعلها وبدأها الشريف حسين بن علي بهدف تأمين الاستقلال العربي عن الأتراك العثمانيين الاتحاديين وبهدف تأسيس دولة عربية موحدة تمتد من حلب في سوريا شمالاً إلى عدن في اليمن جنوبًا، كما وعده البريطانيون بذلك من خلال مراسلاته مع ممثلهم السير هنري ماكماهون في مصر.

---

(1) For details, see Kramer, Martin: "Ambition, Arabism, and George Antonius" in *Arab Awakening and Islamic Revival: The Politics of Ideas in the Middle East*, ed. Martin Kramer, New Brunswick, 1996, pp. 112-23.

على الرغم من أن ثورة الشريف حسين بن علي كانت تمثل زهرة التطلعات العربية عصر ذاك، ويميل أغلب المؤرخين المتخصصين في تاريخ العرب الحديث إلى اعتبارها ثورة متجذرة في المشاعر القومية العربية وتحقيق دولة مَلَكية تجمع كل المشرق العربي، يتزعمها الشريف حسين نفسه، قام هذا الأخير في شهر يونيو/حزيران 1916 بإطلاق الرصاصة الأولى من دون أن يدرك ما كان الفرنسيون والإنكليز يتفقون عليه لتقسيم التركة العثمانية في البيئات العربية؛ فقام باتهام الاتحاديين بأنهم سمحوا لتركيا الفتاة بانتهاك المبادئ المقدسة للإسلام، ودعا المسلمين العرب إلى التمرد والحرب المقدسة ضد الحكومة العثمانية الآثمة[1].

يُقدَّر عدد القوات المشارِكة في الثورة العربية بحوالي خمسة آلاف جندي، فضلاً عن مقاتلين عرب اشتركوا في جيش اللنبي البريطاني القادم من مصر نحو فلسطين وقد قاتلوا خلال حملة سيناء وفلسطين مع قوة مشاة مصرية قادها الجنرال اللنبي، في حين كان الجيش العربي المنطلق من الحجاز والمتألّف من قوات غير نظامية عربيًّا خالصًا بقيادة الأمير فيصل بن الحسين، وكان لورنس مستشار بريطانيا يحقّق تقدمًا نحو دمشق ضد الجيش العثماني الذي كان يتراجع أمام عمليات الكرِّ والفرِّ العربية في الليل والنهار. وكانت أعداد القوات العربية تتزايد مع تقدم الحملة؛ إذ انضم كثير من العرب إلى الثورة، ولكن بشكل متقطع، وبالأخص عندما كانت القوات العربية تحقق المزيد من الانتصارات الباهرة. فقد انضم خلال الغارة على العقبة الأردنية مثلاً أكثر من ألف مقاتل ينتمون إلى قبائل محلية. ووصلت قوات فيصل المتقدمة خلال عام 1918 إلى 30000 مقاتل. وكانوا يتقدمون مع تدريبات تنظيمية على أيدي الضباط العراقيين الذين التحقوا بالثورة

---

(1) من أجل تفاصيل الثورة العربية الكبرى عام 1916، يُراجَع كل من: سعيد، أمين: **الثورة العربية الكبرى: تاريخ مفصَّل جامع للقضية العربية في ربع قرن، المجلد الأول: النضال بين العرب والأتراك**، مكتبة دبولي، القاهرة، د. ت،. وموسى، سليمان (محرِّر) **الثورة العربية الكبرى (وثائق وأسانيد)**، وزارة الثقافة والفنون، عمان 1966. وأيضًا: موسى، سليمان (محرِّر)، **المراسلات التاريخية: الثورة العربية الكبرى 1920– 1924**، المجلد الثالث، عمَّان، 1978. وطلاس، مصطفى: **الثورة العربية الكبرى**، ط4، دار طلاس للترجمة والنشر، دمشق 1987.

وخصوصًا نوري السعيد رئيس أركان قوات فيصل والعشـرات مـن الضـباط العراقيين الذين التحقوا مع فيصل إثر هروبهم من المعسكرات والثكنات العثمانيـة. وكانت قبائل عربية من غير النظاميين تشن حرب عصابات ضد قـوات الدولـة العثمانية النظامية وبخطط الجيش الشريفي، الذي قاتل جنوده في معارك تقليديـة. وبحلول نهاية عام 1916 كان فيصل قد تمكّن من إقناع العرب الجنـود والضـباط الذين يخدمون في الجيش العثماني بالتمرد والانضمام إلى قضيتهم التاريخية، ولكـن الحكومة العثمانية كانت قد أرسلت معظم القوات العربية إلى الخطـوط الأماميـة للحرب في الجبهات الأوروبية[1].

عند اندلاع الثورة العربية في يونيو/حزيـران عـام 1916، كانـت قـوات العثمانيين ممثلة بالفيلق السابع تتمركز في الحجاز وانضمت إليها فرق أخرى مـن أجل الحفاظ على سكة حديد الحجاز في مواجهة تزايد الهجمات على ذلك الخط، كما دعمت العثمانيين بعضُ القوات العربية التي بقيت موالية لهم وفي مقدمتها ابن رشيد حاكم حائل، ولكن ضعفًا كبيرًا أصاب القوات العثمانية بسـبب ضـعف الإمدادات إثر تفجير السكة وتقطع السبل بالعامل اللوجستي، وغالبًا مـا كانـت دفاعاتهم متعثرة بسبب الكرِّ والفرِّ الذي تميز به العرب في الصحاري الصعبة. ولقد خدم في صفوفهم لورنس البريطاني وتكشَّف من سيرته لاحقًا أنه كان من أخطـر الجواسيس البريطانيين. وقد اشتُهر كثيرًا وكتب عنه الكثير بعد أن أصدر مذكراته "أعمدة الحكمة السبعة"[2].

ويشير أغلب المؤرِّخين إلى أن الشريف حسين وأولاده بدأوا التحـالف مـع البريطانيين إثر ما سبَّبه القمع الذي مارسه العثمانيون مع الشـباب العربـي في سوريا ولبنان، فجمع الشريف حسين حوالي 50.000 من الرجال المسلحين، ثم زاد

(1) انظر: بيضون، تغاريد: **الثورة العربية الكبرى 1916–1925**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1998، ص 96–112.

(2) T. E. Lawrence, *Seven Pillars of Wisdom*, Oxford Private Copy 1926.
لم ينشر نص لورنس الكامل الذي دونه في العام 1922 وأدخل عليه بعض التنقيحات إلا في العام 1997 بعد أن حرره جيرمي ويلسون (Jeremy Wilson). وقد أضـاف عليـه ويلسون تنقيحات إضافية في طبعة 2003.

العدد إلى أقل من 100.000، وأصبح ابنه فيصل قائدًا لجيشه، ونجح في أخذ الطائف في 22 سبتمبر/أيلول 1916. وقد هاجم ميناء جدة بقوات قوامها 3500 مقاتل في 10 يونيو/حزيران 1916، وسيطر على ساحل البحر الأحمر والمدن الساحلية من رابغ وينبع وقنفذة وأسَرَ حوالي 6000 من العثمانيين. هنا، انضم نوري السعيد القائد العراقي ليكون رئيس أركان الجيش العربي. وكان الهجوم العثماني المضاد بخمسة عشر ألف جندي مسلحين جيدًا على المدينة المنورة في أكتوبر/تشرين الأول هو الأكثر دموية، لكن صدته القوات العربية[1].

هنا، أرسلت الحكومة البريطانية في مصر ضابطًا شابًا في الاستخبارات اسمه الكابتن لورنس، للعمل مع القوات العربية في الحجاز في أكتوبر/تشرين الأول 1916. وأعاد العثمانيون الكَرَّة في هجوم مضاد على المدينة المنورة، لكنهم تكبدوا خسائر فادحة في ينبع خلال حرب العصابات وتفجير سكة الحديد، فانسحبوا في 11-12 ديسمبر/كانون الأول 1916، وعادوا إلى الوراء في 18 يناير/كانون الثاني 1917 في حين ارتفعت أعداد القوة العربية إلى حوالي سبعين ألف رجل مسلح مع ثمانٍ وعشرين ألف بندقية والمنتشرة في ثلاث مجموعات رئيسية. وفي أواخر عام 1916 بدأ تشكيل الجيش العربي (المعروف أيضًا باسم الجيش الشريفي) ووُضع تحت قيادة فيصل وبإمرة كلٌّ من العراقيين نوري السعيد وجعفر العسكري وعزيز علي المصري الذي اختلف معهما، فترك الجيش ورحل إلى مصر. وكانت 1917 مليئة بعمليات الكرِّ والفرِّ وتفجير الجسور وحرب المباغتة ثم دخل الجيش العربي، وقد أصبح نظاميًا، إلى معان[2] في ربيع عام 1918 وبدأت عملية القنفذ، وهي محاولة منسقة لقطع وتدمير خط سكة حديد الحجاز. وفي شهر مايو/أيار عام 1918، أدَّى القنفذ إلى تدمير 25 جسرًا من السكك الحديدية، واستمر التقدم نحو دمشق بعد السيطرة على عَمَّان، وكان الشباب السوري قد أعد الإعلام لاستقبال فيصل وهو على رأس

(1) راجع: السعيد، نوري المذكرات: **محاضرات عن الحركات العسكرية للجيش العربي في الحجاز وسورية 1916-1918**، مطبعة الجيش، بغداد 1947، وقد اعتمدنا هنا على الطبعة الثانية، بغداد، 1956، ص 16-38.

(2) التفاصيل مع الخرائط في طلاس، **الثورة العربية الكبرى**.

جيشه وهو يدخل دمشق التي انسحب منها الأتراك نهائيًا، ودخل فيصل دمشق منتصرًا ومن ثَمَّ أبرم هدنة مع الأتراك في 31 أكتوبر/تشرين الأول 1918، ثم سيطر على حلب وانجلت القوات العثمانية نهائيًا عن بقية المدن السورية[1] ليؤسس أول حكومة عربية في بلاد الشام باسم الحكومة العربية الفيصلية، التي سيقضي عليها الفرنسيون عام 1920 باحتلالهم سوريا وطرد فيصل الذي سُمي ملكًا على سوريا إثر مشاركته على رأس وفد عربي في مؤتمر الصلح في باريس عام 1919[2].

استنتاجات

انتهت الحرب العالمية الأولى بعد أن أُسدل الستار نهائيًا على تاريخ أربعة قرون حكم العثمانيون فيها البلاد العربية ومنها بلاد الشام، التي اختلف هنا تاريخها عن العراق، فإذا كان العراق قد بقي موحَّدًا إثر الحرب، فإن بلاد الشام قد قُسِّمت إلى أربعة أوطان: سوريا ولبنان وفلسطين والأردن. وكانت الحرب العظمى الأولى مفترق طرق صعبة أمام السوريين كلهم إذ وقعوا بين زمنين صعبين جدًّا، فهم قاسوا الأمَرَّيْن على أيدي الاتحاديين العثمانيين وخصوصًا على عهد جمال باشا من ناحية، وعانوا من الهجمة الاستعمارية الشرسة سواء البريطانية ومن ثم الفرنسية من ناحية أخرى، وتكلَّلت المأساة بفقدان فلسطين التي تأسس فيها الكيان الصهيوني لاحقًا.

لقد كانت الحرب العالمية الأولى في فصولها وتتابُع أحداثها ومن ثم نتائجها وتداعياتها من أهم الأسباب التي طبعت تاريخ العرب في القرن العشرين وتكوينهم السياسي على امتداده الطويل، بكل ما حفل به من تكوينات وتأثيرات على المجتمعات الداخلية وكل الإقليم. وأعتقد أن بلاد الشام قد دفعت الأثمان الغالية جرَّاء ما حدث فيها من انقسامات، وما طُرح من مشاريع بصدد مستقبلها ومستقبل سكانها الذين تنوعت أديانهم وعناصرهم ومذاهبهم وقومياتهم.

---

(1) باشا، محمد جمال: **كيف جلَت القوات العثمانية عن البلاد العربية؟** ترجمة فؤاد الميداني، بيروت، د. ن.، 1932.

(2) حيدر، محمد رستم: **مذكرات محمد رستم حيدر**، تحقيق وتقديم نجدة فتحي صفوت، دار الموسوعات العربية، بيروت 1989.

ملحق 1

المؤتمر العربي الأول وولادة نخبة جديدة

التقت نخبة عربية مؤلّفة من أبرز المثقفين والساسة العرب في قاعة الجمعية الجغرافية الفرنسية في سانت جيرمان بباريس في يونيو/حزيران 1913 من أجل المطالبة لأول مرة بحقوق عربية عادلة وفي زمن من عدم اليقين والتغير في السنوات الأخيرة من حياة الإمبراطورية العثمانية، وتحديدًا في السنة التي سبقت الحرب العالمية الأولى، عندما كانت الدولة قد خضعت لسياسة الاتحاديين (حزب الاتحاد والترقي) الذين وصلوا إلى السلطة عام 1908 باسم المشروطية الثانية، وبدأوا بممارسة سياسة غاية في التفرقة بين السكان على أساس عِرقي، وقد دُعيت تلك السياسة بـ "التتريك"، فكان ذلك كله مدعاة للعرب، الذين رحَّبوا في البداية بالتغيير والمشروطية، للانقلاب على الاتحاديين كي يطالبوا بحقوقهم القومية في إطار العثمنة، أي إنهم طالبوا باللامركزية العثمانية وعاشوا لحظة تاريخية مليئة بالتناقضات والإرهاصات والمعاناة والآلام معًا.

لقد كان المؤتمر العربي الأول عام 1913 يشكّل بصيصًا مبكرًا لولادة القومية العربية، وهي ظاهرة تاريخية كان لا بد أن تظهر في ظل نمو حركات قومية أخرى في كلٍّ من تركيا العثمانية وإيران القاجارية. لقد وُلدت الحركة القومية العربية على أيدي نخبة عربية متميزة من المثقفين العرب في الجمعيات والمنتديات التي تأسَّست في مدن عربية معروفة في كل من بلاد الشام والعراق، أو في العاصمة العثمانية إسطنبول بفعل وجود الطلبة العرب الذين كانوا يدرسون فيها العلوم المدنية أو العسكرية، وكانت الجمعيات تلك مكوَّنة من عدد من الجماعات الثورية الشابة التي كانت توجهات الأعضاء فيها إصلاحية سواء كانت علنية أم سرية.

ويتألّف أولئك الأعضاء من سوريين وعراقيين ولبنانيين وفلسطينيين (مع عزيز علي المصري). لقد دفعتهم ضمائرهم إلى العمل عندما وجدوا أوطانهم العربية تتعرض للتهديد الداخلي جرّاء السياسات الاتحادية العثمانية أولاً، كما أنها تتعرض أيضاً للتهديدات الخارجية التي يمثّلها التوسع الاستعماري ثانيًا، في حين بدا لهم بالمقابل أن الاتحاديين الذين اعتمدوا مبادئ تركيا الفتاة ليسوا على استعداد لتبرير حماية العرب من شتّى التهديدات أولاً، كما أنهم رأوا أن فرص العرب في الحكم الذاتي ضعيفة جدًّا جرّاء المركزية العثمانية الشديدة ثانيًا[1].

نخبة مستنيرة

إن هذا كله وذاك كانا وراء دعوة نخبة من المثقفين والطلبة العرب الذين يعيشون في باريس إلى عقد المؤتمر العربي الأول الذي سيعقد من أجل التعبير عن رغبتهم في المطالبة بحقوق العرب وليس بالاستقلال، بل بالمشاركة في الإدارة وإبقاء التعليم عروبيا ومناقشة الإصلاحات في العهد العثماني، بعدما وجدوا أن مجلس المبعوثان العثماني غير قادر على الإيفاء بالوعود التي كان يطالب بها العرب الشباب، الذين وجدوا في حركتهم ما يعكس الديناميات السياسية والاجتماعية في بلدانهم العربية في بداية القرن العشرين، وهي نفس الديناميات للجيل الذي أسميه بجيل الاستنارة، والتي استمرت في لعب دور حاسم في مستقبل مختلف البلدان إزاء الجيل القديم، فكان أن ترسخت أصول القومية العربية لأول مرة خلال تلك السنوات الحاسمة التي شهدت زوال الإمبراطوريات متعددة الجنسيات، ومنها الإمبراطورية العثمانية، وتراكم التوتر السياسي وضعف العرب، وهي أسباب خلقت الظروف التي أحاطت بالهجرة الصهيونية إلى فلسطين وردود الفعل العربية على ذلك.

---

(1) لقد تابع أعمال المؤتمر العربي الأول بباريس في يونيو/حزيران 1913 الأستاذ عبد المسيح الأنطاكي الذي حضر خصيصًا من القاهرة، وشهد كل أيام المؤتمر، وكتب تقاريره التفصيلية الممتازة، ونشرها في مجلته (**العمران**) التي كان يصدرها في القاهرة. راجع مجلة **العمران**، القاهرة، يوليو/تموز 1913.

ثمة تساؤلات عديدة حول المؤتمر العربي الأول يونيو/حزيران 1913 تدور ضمن إثارة إشكالية حقيقية حول ما عاناه العرب وطبيعة النخبة السياسية في جيل الاستنارة الذي انتهى - كما أزعم - مع نهاية الحرب العالمية الأولى، ليبدأ جيل جديد عاش في ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية.

وعليه، فما هي طبيعة تلك النخبة المستنيرة التي قادت مواجهتها مع الآخر وبوجوده في باريس عام 1913؟ ما هي الخلفيات التاريخية التي أنضجت ذلك الحدث والذي تحقق بوجود 23 مندوبًا من سوريا والعراق ولبنان وفلسطين مع مراقبين من مصر؟ ما طبيعة علاقاتهم النخبوية السياسية ومراسلاتهم (التي كُشف عن بعضها، وخصوصًا بين القوميين السوريين والعراقيين) بين 1909-1913، أي على أيام حكم الأتراك العثمانيين الاتحاديين الذي كان يزداد غلظة وتوحشًا إزاء العرب يومًا بعد آخر؟ وما الذي انتهى إليه الأحرار من المستنيرين الأوائل، وكان بعضهم من أخصب المثقفين المتميزين؟ ولماذا شُنق بعض المناضلين المثقفين العرب منهم ظُلمًا وعدوانًا؟ ولماذا شُرِّد البعض الآخر في البراري والمنافي؟ وما الظروف التي جعلت البعض يتقبَّل مساعدة الآخر سواء قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى أو أثناءها؟ ثم ماذا كانت ردود فعل الحكومة التركية وقتذاك؟ بماذا وعدت المؤتمِرين؟ ولماذا تنصلت من وعودها لهم، وقد كانت مطالبهم واضحة وغير تعجيزية بدءًا بتحقيق اللامركزية والحقوق العادلة، فلم يكن لها أي سقف قومي متعصب يروم الانفصال؟[1]. والسؤال الأخير: ما مدى تداعيات الحدث على النخب العربية في الداخل؟ أي: كيف استقبلت الدواخل العربية المؤتمر العربي الأول عام 1913؟[2].

---

(1) Report from Consul-General Cumberbatch to Sir G. Lowther., F.O. /29037/13/44, No. 47, Beirut, 30 May 1913.29037

(2) راجع كوثراني، وجيه: (تقديم ودراسة)، **وثائق المؤتمر العربي الأول 1913: كتاب المؤتمر والمراسلات الدبلوماسية الفرنسية المتعلقة به (الدولة العثمانية وظروف نشأة الحركة العربية)**، ط1 (دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1980).

درس تاريخي

إن إعادة إعمال التأريخ في تلك "المرحلة" تُعدُّ ضرورة أساسية تحتاجها ثقافتنا العربية اليوم بعد مضي أكثر من مئة سنة على ذلك الحدث، كما أنها حاجة أساسية للمعرفة التاريخية عمومًا ردًّا على المؤرخين الأتراك على امتداد مئة سنة؛ إذ تجنَّى البعض منهم على المستنيرين العرب تجنّيًا كبيرًا وعلى "المؤتمر العربي الأول"، وكأن العرب ليست لهم عروبتهم القديمة المتجذرة تاريخيًّا في عمق الزمن! وكأنهم أول من قال بالقومية أو بالحقوق القومية في التاريخ الحديث! وكأن الأتراك لم ينادوا بقوميتهم قبل العرب! ناهيكم عن الأصوات المضادة التي ظهرت اليوم عربيًّا ضد الحدث، وكالت الاتهامات جزافًا لتلك النخبة القومية المستنيرة التي كانت مصداقيتها السياسية أقوى بكثير من أباطيل البعض ضدها، وخصوصًا عند محاكمتها تاريخيًّا من خلال مفاهيم سياسية وأجندات أيديولوجية معاصرة تنتشر بعد مئة سنة على ذلك الحدث التاريخي المتقدِّم من دون فهم متغيرات العالم الواسعة أو ظروف الأمس الصعبة[1].

وقفة تحليلية

إن تاريخ المؤتمر العربي الأول وملابساته واتجاهات أعضائه من جيل الاستنارة العربية تطرح عدة أفكار تاريخية مع تساؤلات متنوعة، خصوصًا لجهة معالجة مواقف المؤتمرين في باريس وما أحدثوه من تعاطف عربي معهم سواء من خلال الرسائل التي وصلت المؤتمر أو أخباره التي نُشرت في الصحف والمجلات العربية؛ ذلك أن أهم صحفي غطى أعمال المؤتمر هو عبد المسيح الأنطاكي، صاحب مجلة العمران، ذلك الحلبي الأصل الذي عاش في القاهرة وقَدِم منها إلى باريس خصيصًا لتغطية أعمال المؤتمر ونشر تقاريره المهمة عنه. إن أسرارًا تاريخية تتعلق بمصرع الصدر الأعظم للدولة العثمانية، الفريق أركان حرب محمود شوكت

---

(1) الجميل، سيار: "مؤتمر باريس 2013 في معهد العالم العربي: مئوية المؤتمر العربي الأول في باريس 1913"، مجلة **عمران**، للعلوم الاجتماعية والإنسانية، العدد 5، المجلد الثاني، صيف 2013، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، ص 227-233.

باشا، قبل انعقاد المؤتمر بأسبوعين فقط، كشفت من خلال الوثائق علاقة الاتحاديين بتصفية الصدر الأعظم الذي كان متعاطفًا مع اللامركزيين العرب، وبالأخص علاقته بالسيد عبد الحميد الزهراوي، وما قاله شوكت باشا وهو القائد البغدادي عن العرب وحقوقهم! إن جيل الاستنارة العربية الذي عاش مُخضرمًا بين القرنين التاسع عشر والعشرين كان جيلاً مهمًّا جدًّا مثّله المناضلون العرب الذين كانوا من المثقفين الأقوياء والذين جمعهم مؤتمر باريس بتنوع اتجاهاتهم السياسية التي يمكن حصرها بأربعة اتجاهات: الاتجاه العروبي الذي مثّله عبد الكريم الخليل وجماعته في المنتدى الأدبي (جماعة القسطنطينية) والاتجاه اللامركزي الذي مثّله عبد الحميد الزهراوي عن اللامركزية العربية، والاتجاه الليبرالي الذي مثّله عبد الغني العريسي صاحب المفيد، والاتجاه الإصلاحي الذي مثّله أحمد طبارة وجماعته. وقد ذهب الشهداء الأربعة مع غيرهم من المناضلين عندما أعدمهم جمال باشا (السفاح) في كلٍّ من دمشق وبيروت! وثمة أسئلة مهمة أخرى تبحث لها عن أجوبة وثائقية، ويمكن أن تُختزل بالتالي: لماذا لم يحضر المؤتمرَ البعضُ من جماعة القسطنطينية إلى باريس، ومن أبرزهم جماعة المنتدى الأدبي؟ ولماذا اعتذر بعض الأعضاء العرب عن حضوره، ومنهم عبد الكريم الخليل وعلي الجميل وزكي الخطيب وشكري القوتلي وأحمد عزت الأعظمي؟[1].

---

(1) عن ورقة الكاتب في الندوة المئوية بمناسبة مرور 100 سنة على المؤتمر العربي الأول عام 1913، والتي عُقدت في معهد العالم العربي بباريس يونيو/حزيران 2013، والورقة بعنوان: **المؤتمر العربي الأول 1913: رؤية جديدة لزمن الاستنارة بعد مائة عام.**

ملحق 2

عيد الشهداء

هي مناسبة وطنية وقومية عربية يُحتفل بها في اليوم السادس من شهر مايو/أيار من كل عام في كل من سوريا ولبنان. لقد كان هذا اليوم مشؤومًا عند العرب قاطبة كونه اختير لتنفيذ أحكام الإعدام من قِبل السلطات العثمانية بحق نخبة مثقفة ومستنيرة من الشباب الوطنيين السوريين في كل من بيروت ودمشق إبَّان مجريات الحرب العالمية الأولى للفترة 21 أغسطس/آب 1915 وأوائل 1917، وقد اختير يوم 6 مايو/أيار بسبب كونه اليوم الذي أُعدم فيه أكبر عدد من الشهداء، واتُّهم هؤلاء من قِبل جلّاديهم بالتعاون مع الفرنسيين والإنكليز؛ إذ اكتشفت السلطات العثمانية وثائق يطلب فيها وطنيون سوريون من الإنكليز والفرنسيين التخلص من الحكم العثماني إمَّا بالالتحاق بالثورة العربية أو بالطلب من الفرنسيين احتلال لبنان. لقد قام والي الشام العثماني جمال باشا بإنشاء محكمة صورية في عالية في جبل لبنان، وأصدر أحكامًا بالإعدام على عدد من الوطنيين العرب في دمشق وبيروت. ولقد نُفِّذت أحكام الإعدام شنقًا حتى الموت على دفعتين: واحدة في 21 أغسطس/آب 1915 وأخرى في 6 مايو/أيار 1916 في كلٍّ من ساحة البرج في بيروت، فسُمِّيت ساحة الشهداء، وساحة المرجة في دمشق. إن السادس من مايو/أيار عُدَّ في الذاكرة الجمعية العربية عيد الشهداء، كونه يحمل أقسى ذكرى تاريخية سجَّلها حكم الاتحاديين ضد العرب. واعتُبر الراحلون أول قافلة للشهداء سارت نحو ساحة الموت في سبيل الحرية منذ تلك الأيام الصعبة. ولم تزل مجتمعاتنا تعاني من التحديات وهي تحكي قصصًا عمَّا جرى في ذلك اليوم المجيد. ونستعرض هنا أسماء أولئك الشهداء الأبرار الذين يتهمهم البعض هذه الأيام بتهم باطلة، بل ويطعنون في أعز ما حملوه من شرف وأمانة من أجل هذه الأمة وما أبدوا من شجاعة منقطعة النظير إزاء جلّاديهم.

1- شهداء الحادي والعشرين من أغسطس/آب 1915

عبد الكريم الخليل، من الشياح قرب بيروت.
محمد المحمصاني، من بيروت.
محمود المحمصاني، من بيروت.
عبد القادر الخرسا، أصله من دمشق ومقيم في بيروت.
نور الدين القاضي، من بيروت.
سليم أحمد عبد الهادي، فلسطيني من قرية عرّابة بفلسطين.
محمود نجا العجم، من بيروت.
الشيخ محمد مسلّم عابدين، مأمور أوقاف اللاذقيّة من دمشق.
نايف تللو، من دمشق.
صالح حيدر، من أهالي بعلبك.
علي الأرمنازي، من حماة.

2- شهداء 6 مايو/أيار 1916 في دمشق

شفيق بك مؤيد العظم، من دمشق.
الشيخ عبد الحميد الزهراوي، من حمص.
الأمير عمر الجزائري، حفيد الأمير عبد القادر الجزائري من دمشق.
سليم الجزائري، من دمشق.
شكري بك العسلي، من دمشق.
عبد الوهاب الإنكليزي، من دمشق.
رفيق رزق سلّوم، من حمص.
رشدي الشمعة، من دمشق.

3- شهداء 6 مايو/أيار 1916 في بيروت

شخص من التابعية اليونانيّة، مقيم في بيروت.

جورجي الحداد، من جبل لبنان.

سعيد فاضل عقل، من الدامور.

عمر حمد، من بيروت.

عبد الغني العريسي، من بيروت.

الشيخ أحمد طبارة، إمام جامع النوفرة في بيروت.

محمد الشنطي اليافي، من يافا.

توفيق البساط، من صيدا.

سيف الدين الخطيب، من دمشق.

علي بن عمر النشاشيبي، من القدس.

محمود جلال البخاري، من دمشق.

سليم الجزائري، من دمشق.

أمين لطفي الحافظ، من دمشق.

4- شهداء آخرون: وهناك العديد من الشهداء الآخرين منهم:

الخوري يوسف الحايك، من سنِّ الفيل في بيروت، أُعدم في دمشق يوم 22 مارس/آذار سنة 1915.

نخلة باشا المطران، من أهالي بعلبك اغتيل قرب أُورفه بالأناضول في 17 أكتوبر/تشرين الأول سنة 1915.

الشقيقان فيليب وفريد الخازن من جونية بلبنان أُعدما ببيروت يوم الثاني من مايو/أيار سنة 1916.

عبد الله الظاهر، من عكار، أُعدم ببيروت يوم الأول من مارس/آذار سنة 1916.

يوسف الهاني، من بيروت، أُعدم ببيروت في إبريل/نيسان سنة 1916.

محمد الملحم، شيخ عشيرة الحسنة، أُعدم بدمشق في أوائل سنة 1917.

فجر المحمود، من عشيرة الموالي، أُعدم بدمشق أوائل سنة 1917.

شاهر بن رحيل العلي، من عشيرة التركي، أُعدم بدمشق على إثر إعلان الثورة العربية الكبرى.

الشيخ أحمد عارف، مفتي غزة، وولده، من مدينة غـزة أُعـدما في القـدس الشريف سنة 1917.

الشقيقان أنطوان وتوفيق زريق، من طرابلس، أُعدما بدمشق سنة 1916.

يوسف سعيد بيضون، من بيروت، أُعدم بعالية بلبنان يوم العاشر من شـهر مارس/آذار سنة 1916.

هنا نسأل: هل من الإنصاف والضمير الحي أن نتهم كل أبناء هذه القوافـل بالعمالة للأجنبـي، كي نصفق لما فعله الاتحاديون بالعرب؟ وهـل مـن الأمانـة التاريخية والأخلاقية العالية أن يصدِّق المرء أكذوبة جمال باشا واتهامه العرب، أدباءً ومثقفين مستنيرين وشيوخ عشائر وفقهاء ومفتين ورجال دين.. ليُقدَّموا طعامًا إلى المشانق مسلمين ومسيحيين؟[1].

(1) راجع: شريف، محمد حامد شريف: **الأدباء الشهداء في العصر التركي على يد جمال باشا السفاح**، دار التركي، طنطا، ط1، د.ت، ص 56.

مصر والحرب العالمية الأولى بين 1914-1918

د. علي عفيفي علي غازي
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
عضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية
ومدير تحرير مجلة زواق التاريخ والتراث*

شهد العالم في أوائل القرن العشرين عددًا من التطورات السياسية والعسكرية أدَّت إلى اشتعال أتون حرب بين الدول الكُبرى في عام 1914، عُرِفَت بالحرب العظمى، والتي قسمت العالم إلى مُعسكرين متحاربين: الحلفاء، والمحور. ورغم أنها لا تعدو أن تكون حربًا أهلية أوروبية، فإن أثرها قد امتد لكل العالم المعمور، وتُعد أحد أعنف صراعات التاريخ الحديث؛ إذ بلغت خسائرها البشرية نحو ثمانية ملايين جندي، وأكثر من ستة ملايين من المدنيين[1]، وجُرح وفُقد آخرون، كما خلَّفت خسائر اقتصادية ضخمة، وشكّلت النهاية للأرستقراطيات والملَكيات الأوروبية، ومهَّدت لتغيرات سياسية كبرى، تمخضت عن ثورات انفجرت في العديد من الدول.

---

(1) إيزار، مارسال: "من أرشيف اللجنة الدولية في الحرب العالمية الأولى: قصتنا في المنطقة العربية تبدأ من مصر"، **مجلة الإنساني**، العدد 55، شتاء/ربيع 2013، ص 46.

انضمت بريطانيا العظمى إلى الحرب في 4 أغسطس/آب 1914 إلى جانب فرنسا وروسيا[1]؛ لتُعلن الدولة العثمانية الحرب ضد الحلفاء في 5 نوفمبر/تشرين الثاني، وبالتالي فُرض على العرب الاشتراك في الحرب، رغم أنهم لم يكن لهم فيها ناقة ولا جمل، باعتبارهم من رعايا السلطان العثماني. ولم تكن مصر طرفًا في الحرب، ولم تنضم لأيٍّ من طرفي الصراع، بصورة مُعلنة، إلا أن المصريين وجدوا أنفسهم يُقاتلون بين صفوف الحلفاء. وأدخلتهم العلاقة الاضطرارية مع بريطانيا في حرب لم يكن لهم بها أي شأن "والمشاركة فيها لم تكن خيارًا مصريًّا؛ فمصر كانت تحت الاحتلال البريطاني، وبريطانيا العظمى كانت تُمثّل رأس الحربة في قوات الحلفاء"[2]. والتي نظرت لمصر باعتبارها ذات أهمية استراتيجية لموقعها المتوسط، كما أنها يُمكن أن تمد الجيوش البريطانية بالمؤن الغذائية، بالإضافة إلى أن قناة السويس تُعد طريقًا حيويًّا لبريطانيا سواء لإيصال الإمدادات، أو لتموين قواتها في الجبهة الغربية[3].

توجَّب على إنجلترا كي تعبئ مصر في خدمة مصالحها الإمبريالية/الكولونيالية أن تحل عدَّة مشكلات تتعلق بوضع مصر في مواجهة المتطلبات السريعة للحرب، وكذلك علاقة مصر بتركيا، بالإضافة لمعالجة الوضع الداخلي في مصر من الناحية الرسمية: الخديو[4] والوزراء، والشعبية: القوى الوطنية المعارضة للاحتلال. وفي محاولة لكسب الرأي العام المصري أصدر مكسويل، القائد العسكري في مصر، إعلانًا نُشر في الوقائع المصرية الصادرة في 7 نوفمبر/تشرين الثاني 1914، يذكر أن

---

(1) الرافعي، عبد الرحمن: **ثورة 1919، تاريخ مصر القومي من 1914 إلى 1921**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1955، ص 11.

(2) عزوز، سليم: "وانتصرنا في الحرب العالمية الأولى"، **صحيفة القدس العربي**، العدد 7928، 15 نوفمبر/تشرين الثاني 2014، ص 15.

(3) الحميد، عبد اللطيف بن محمد: البحر الأحمر والجزيرة العربية في الصراع العثماني البريطاني خلال الحرب العالمية الأولى، مكتبة العبيكان، الرياض، 1994، ص 151.

(4) تُلفَظ "خديف"، لفظ مشتق من أصل تشترك فيه اللغة الفارسية واللغات الجرمانية، ويدل على اسم الجلالة، وفيها معنى السيادة والسلطة، وتميَّز به والي مصر عن سائر ولاة الدولة العثمانية. إميل زيدان (تحرير): **الهلال في أربعين سنة 1892-1932**، إدارة الهلال بمصر، القاهرة، 1932، ص 103.

"إنجلترا تُحارب لغرضين، وهما: الدفاع عن حقوق مصر وحريتها التي كسبها محمد علي (والي مصر 1805-1848) في ميدان القتال، واستمرار تمتع مصــــر بالســــلام والرخاء، وأن إنجلترا أخذت على عاتقها جميع أعباء هذه الحرب، وأنها لا تطلــــب من الشعب المصري سوى الامتناع عن أي أعمال عدائية ضــــدها"[1]. ثم تحــــرص بريطانيا على تدعيم قوتها العسكرية في مصر، وتقوم بإرسال حملــــة عســــكرية إلى الإسكندرية في ديسمبر/كانون الأول 1914 لحماية مصر من التعرض لأي هجــــوم عسكري من العثمانيين[2]. وانتهى الأمر بأن أصبحت مصر في حالة حــــرب مــــع الدولة صاحبة السيادة عليها من الناحية القانونية.

يهدف هذا البحث إلى استعراض مؤثّرات الحرب العالمية الأولى على مصر من النواحي: السياسية والإدارية، والعسكرية، والاقتصادية والاجتماعية، والفكرية.

التغيرات السياسية والإدارية

فرضت أوضاع الحرب على مصر تغييرات في أوضاعها السياسية والإداريــــة؛ إذ استغلت بريطانيا دخول حكومة إسطنبول الحرب إلى جانب دولتي الوسط، واتخــــذت السلطات البريطانية عددًا من الإجراءات التي مكّنتها في النهاية من قطع آخــــر خــــيط يربط مصر بالباب العالي، ومن ثَمَّ تغيير الوضع القانوني الذي ظلّ قائمًا منــــذ تســــوية 1840-1841، وذلك بإعلان حمايتها على مصر في 18 ديسمبر/كــــانون الأول 1914، في صيغة بيان قصير وبسيط يُعلِن وضع البلاد تحت حماية صاحب الجلالــــة، ويُنــــهي سيادة السلطان، لتخلع رداء الاحتلال، وترتدي زي الحماية، بعد أن تُسقط الســــيادة العثمانية[3]. واستُبدل منصب المعتمد البريطاني في القاهرة بمنصب المنــــدوب الســــامي، الذي أصبح لصاحبه وضع متميز، وقد اختير لهذا المنصب السير هنري مكمــــاهون[4].

---

(1) الرافعي: **ثورة 1919**، ص 16.

(2) Holt. p. M: *Egypt and the Fertile Crescent 1516-1922, A political History*, Cornell University Press, London, 1966, p. 262.

(3) الرافعي: **ثورة 1919**، ص 18.

(4) سالم، لطيفة محمد: **مصر في الحرب العالمية الأولى**، الهيئة المصــــرية العامــــة للكتــــاب، القاهرة، 1984، ص 49.

وتم ذلك عن طريق إرسال إنجلترا خطابًا دوريًّا إلى الدول يُفيد بأن "مصر قد وُضعت تحت حماية صاحب الجلالة البريطانية، وأصبحت تُمثّل محمية بريطانية"[1]، "وأصبح الدخول في الحرب والدفاع عن مصر أمرًا إنجليزيًّا بحتًا"[2]. وتُحدّد وزارة الخارجية البريطانية الوضع القانوني الدولي لمصر بأنها "ليست بالبلاد التابعة لبريطانيا، ولكنها إقليم مستقل إداريًّا عن السلطنة العثمانية تحت الاحتلال العسكري البريطاني"[3].

قامت بريطانيا أولاً بضرب الممثلين الرئيسيين على مسرح السياسة المصرية: الخديوِ والحركة الوطنية. فبعد أن تولى عباس الحكم اتضح له كيف استأثر الاحتلال بالسلطة في مصر من دون أصحابها الشرعيين: الخديو والنُّظّار، لذلك أخذ يلتفت حوله بحثًا عن حلفاء يستعين بهم في مقاومة الاحتلال، واسترداد سلطاته، فوجد الحركة الوطنية، وكانت الحياة قد بدأت تدبُّ واهنة في شرايينها منذ أيام أحمد عرابي (1841-1911)، ووجد عباس تلك الحركة في بدايتها فتعهدها وساعدها للاستعانة بها ضد الاحتلال[4]. كما سعى للحصول على مساعدة فرنسا وألمانيا لتحقيق هدفه، فدعا إمبراطور ألمانيا لزيارة مصر، ولكنَّ الإمبراطور اعتذر، وأثناء زيارته فرنسا اتصل ببعض الساسة، وأفراد اللجنة السرية الفرنسية لاستقلال مصر، لكن من دون جدوى، وحين زار إسطنبول لم يحصل على أية مساعدة من السلطان[5]. وقد كانت علاقات عباس بالوجود البريطاني في مصر متردية منذ بداية عهده، ومن ثم عزمت بريطانيا على عزله في أكثر من مناسبة، وحينما سافر إلى الأستانة في مايو/أيار 1914، ونشبت الحرب في

(1) الحميد: **البحر الأحمر والجزيرة العربية**، ص 151. نقلاً عن
F. O.: 371/1973, Tele No. 323, From M. Cheetham, Cairo, December 18th, 1914.

(2) الثاني، عباس حلمي: **"عهدي"، مذكرات عباس حلمي الثاني خديوِ مصر الأخير**، ترجمة جلال يحيى، دار الشروق، القاهرة، 2006، ص 280.

(3) ذو الفقار، سعيد إبراهيم: **الإمبريالية البريطانية في مصر 1882-1914**، أديشنز بليريال، باريس، 1988، ص 110.

(4) عزمي، محمود: "أعلام النهضة الحديثة 2 - عباس حلمي الثاني"، **مجلة الكتاب**، المجلد الأول، السنة الأولى، الجزء الثاني، ديسمبر/كانون الأول 1945، ص 177-181.

(5) المصري، محمد جمال الدين: "الاحتلال والحركة الوطنية في مصر في أوائل القرن العشرين"، **المجلة التاريخية المصرية**، المجلد 22، لسنة 1975، ص 83-85.

4 أغسطس/آب، ودخلت تركيا الحرب في 29 أكتوبر/تشرين الأول، أعلنت بريطانيا الأحكام العُرفية في 2 نوفمبر/تشرين الثاني، ومنعت الخديوِ عباس حلمي الثاني (1892-1914) من العودة لمصر[1]، وأعلنت الحماية على البلاد في 18 ديسمبر/كانون الأول، وفي اليوم التالي قامت بعزل عباس، وتعيين حسين كامل (1914-1917) سلطانًا على مصر في نفس اليوم[2]، في إشارة لإنهاء تبعية مصر للدولة العثمانية[3]. وبذلك تخلصت من الخديوِ المناوئ لسياستها.

ألّف حسين رشدي باشا، في نفس يوم تعيين السلطان المصري، وزارته الثانية، وهي تقريبًا نفس وزارته التي كانت قائمة، مع تعديل يسير في مناصب بعض الوزراء، ولكن من دون وزير للخارجية[4]. ولأول مرة في تاريخ النظام الوزاري المصري الذي بدأ عام 1878 تختفي وزارة الخارجية رمزًا للسيادة البريطانية الوافدة، وإهدارًا لأهم رموز الاستقلال المصري، وتعبيرًا عن ديمومة الاحتلال الأجنبي للتراب الوطني[5]. وأجبرت سلطاتُ الاحتلال رشدي باشا، رئيس مجلس النظّار المصري، على قطع العلاقات مع كل الدول التي اشتبكت في الحرب مع بريطانيا، وأصدر في 5 أغسطس/آب 1914، قرارًا يقضي بتأمين مصالح إنجلترا ضد أعدائها، وتضمّن القرار منع الشعب المصري من الاتجار أو التراسل مع رعايا الدول المعادية لبريطانيا، كما تُمنع السفن المصرية من دخول موانئ الأعداء، وفي

(1) Holt: *Egypt and the Fertile Crescent*, p. 262.

(2) بكر، عبد الوهاب: "العلاقات السرية بين الملك فؤاد والخديو عباس حلمي"، **المجلة التاريخية المصرية**، المجلد 34، لسنة 1987، ص 114-115.

(3) حين نشبت الحرب العظمى في صيف عام 1914 كان كيتشنر يُمضي إجازته في إنجلترا، وكان عباس يمضي رحلته المعتادة إلى إسطنبول، و لم يعد أيٌّ منهما لمصر، فقد تولّى كتشنر وزارة الحرب الإنجليزية، وخُلع عباس. عباس حلمي الثاني: مصدر سابق، ص 7. ويُصرِّح الأخير بأنه فوجئ بتنحيته عن السلطة في الوقت الذي لم تكن فيه الدولة العثمانية قد انحازت إلى جانب المعسكر المعادي للحلفاء، وهو يعزو ذلك إلى عدم رضى الحكومة البريطانية عن مناوأته لها. نفس المصدر، ص 270-271.

(4) الرافعي: **ثورة 1919**، ص 26.

(5) رزق، يونان لبيب: "وزارة الخارجية المصرية بين الإلغاء 1914 والإعادة 1922"، **المجلة التاريخية المصرية**، المجلد 24، لسنة 1977، ص 274.

نفس الوقت يعطي القوات البريطانية الحربية والبحرية حقَّ استخدام الأراضي والموانئ المصرية في العمليات الحربية[1]. وهكذا خوَّلت الحكومة المصرية إنجلترا حقَّ التمتع بحقوق الحرب كافة في الموانئ المصرية، وفي جميع جهات البلاد[2].

سعت السلطات البريطانية في مصر إلى تعطيل الحياة النيابية فيها، باستبدال القانون النظامي لسنة 1913 بخصوص المجلس التشريعي والجمعية العمومية، بجمعية تشريعية واحدة، كانت هي الهيئة شبه النيابية القائمة في ذلك العهد، وانتهى الفصل التشريعي الأول والوحيد لها في شهر يونيو/حزيران 1914، وحاول أعضاء الجمعية أن يُقيموا الدليل على سلطتهم، وأخَّروا تنفيذ القرارات الوزارية[3]؛ فلما شبَّت الحرب رأت السياسة البريطانية تعطيل اجتماعها، تفاديًا لأن تُصدر قرارات قد يكون فيها معنى الاحتجاج على الانقلاب. وبمقتضى مرسوم صدر في 18 أكتوبر/تشرين الأول 1914 قامت بتأجيل ابتداء دور الانعقاد الثاني، إلى أول يناير/كانون الثاني 1915، ثم أُرجئ انعقادها إلى أجل غير مسمى، ولم تُدْعَ بعد ذلك إلى الاجتماع، ولم تنعقد بعدئذٍ على الإطلاق، وظلَّت البلاد محرومة من هيئة نيابية أو شبه نيابية حتى أُعلن دستور العام 1923[4]. وبذلك تخلصت بريطانيا من عائق كبير قد يقف حجر عثرة في طريق استغلالها لموارد وأراضي وموانئ مصر.

أصدرت حكومة رشدي باشا، في 18 أكتوبر/تشرين الأول 1914، مرسومًا يمنع التجمهر ويُعاقب عليه، ويعتبر تجمهرًا كل اجتماع من خمسة أشخاص على الأقل في طريق أو محل عمومي ولو لم يكن له قصد جنائي، كما يفرض عقوبات على من يُخالف هذا الأمر لم ترد من قبل في قانون العقوبات. وأصدرت الحكومة في 20 أكتوبر/تشرين الأول، بناء على تعليمات بريطانية، مرسومًا يقضي بتحريم

---

(1) رزق، يونان لبيب: "مصر تحت الهيمنة البريطانية 1882-1918"، في يونان لبيب رزق (تقديم ومراجعة): **المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر**، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2009، ص 404.

(2) الرافعي: **ثورة 1919**، ص 12-13.

(3) ذو الفقار: **الإمبريالية البريطانية في مصر**، ص 126-127.

(4) متولي، محمود: **مصر والحياة الحزبية والنيابية قبل سنة 1952 دراسة تاريخية وثائقية**، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1980، ص 71-72.

الاجتماعات، ويفرض الرقابة على البرقيات. ثم تلا ذلك مطاردة الوطنيين؛ الأمر الذي أدَّى إلى سفر عدد من قادة الحزب الوطني إلى تركيا فرارًا من بطش الحكومة بهم "لأنها مشدِّدةٌ المراقبة عليهم وتنوي الإيقاع بهم وبغيرهم"[1]. ويُعلن الجنرال مكسويل، قائد جيوش الاحتلال في مصر، في 2 نوفمبر/تشرين الثاني، الأحكامَ العُرفية، "ليُعلن أنَّ القُطر المصري قد صار تحت الحكم العسكري من تاريخه"[2]، وأصبحت السلطة العليا في أيدي القائد العام للقوات البريطانية في مصر.

تبع إعلان هذه القرارات اتخاذ مجموعة من الإجراءات القمعية؛ بإلقاء بضعة آلاف من رجال الحركة الوطنية في السجون، أو احتجازهم في معسكرات التجميع، أو نفيهم إلى الواحات النائية أو مالطة[3]، واعتقال عدد كبير من أعضاء الحزب الوطني، ونفي بعضهم إلى مالطة وأوروبا[4]، ومن أُفرج عنهم قُيِّدت حريتهم ووضعوا تحت المراقبة. كما قُبض على عدد كثير من المصريين في الأقاليم ووُضعوا في السجن "وأخذت الشرطة في جمع العصي الغليظة من الناس محافظة على الأمن". كذلك أقدم الإنجليز على حركة اعتقالات واسعة النطاق في منطقة غربي مديرية البحيرة والفيوم، وقام مكسويل بزيارات لشيوخ العرب فيها محاولة منه لضمهم لصفوف بريطانيا[5]. وفُرضت رقابة مشددة على الصحف؛ وعُطِّل بعضها، وظهر البعض الآخر وبه أماكن المقالات بيضاء مما يعني حذف الرقابة لها؛ بل صدرت أحكام تأديبية على بعض مراقبي الصحف في وزارة الداخلية لتركهم بعض المقالات تُنشر[6].

استكملت السلطة العسكرية البريطانية في مصر أعمالها الإرهابية، بتصفية معقل مهم من معاقل الحركة الوطنية هو نادي المدارس العليا وقامت بإلغائه نهائيًّا،

---

(1) الرافعي، عبد الرحمن: **مذكراتي 1889–1951**، دار أخبار اليوم، القاهرة، 1989، ص 38، 39.

(2) الرافعي: **ثورة 1919**، ص 14.

(3) رزق: **مصر تحت الهيمنة**، ص 405.

(4) الرافعي: **ثورة 1919**، ص 30، 31.

(5) سالم، لطيفة محمد: "الصراع العسكري بين الدولة العثمانية وبريطانيا في مصر 1914–1918"، **المجلة التاريخية المصرية**، المجلدان 28 و29، لسنة 1981–1982، ص 390.

(6) الرافعي: **ثورة 1919**، ص 30، 31.

وإلغاء وزارة الخارجية في 19 ديسمبر/كانون الأول 1914، بموجب رسالة بعث بها تشيثام للسلطان حسين كامل يقول فيها: "إن المسؤولية الحديثة التي أخذتها بريطانيا العظمى على نفسها تستدعي أن تكون المخابرات من الآن بين حكومة سموكم وبين وكلاء الدول الأجنبية بواسطة وكيل جلالته في مصر"[1]. وتؤكد الوثائق البريطانية أن التخطيط لإلغاء وزارة الخارجية قد واكب التفكير في فرض الحماية، وأن موقف الحكومة البريطانية في هذا الأمر كان حاسمًا وغير قابل للنقاش أو المساومة، وذلك لأن وزارة الخارجية المصرية ظلّت رمزًا للسيادة والاستقلال الوطنيين[2]. وبذلك أخمدت بريطانيا الحركة الوطنية، ولكن إلى حين؛ إذ ستظل بركانًا ينتظر اللحظة المناسبة ليثور، وتمثّلت تلك اللحظة في دعوة سعد زغلول (1858-1927) لجمع التوكيلات لسفر الوفد لباريس لعرض القضية المصرية على مؤتمر الصلح، كما سنوضح لاحقًا.

سعت السلطات البريطانية، في الوقت نفسه، لكسب الرأي العام المصري، والتقرب من المصريين، فسافر المفتشون ومستشار الداخلية نفسه إلى عواصم المديريات وخطبوا في العمد والأعيان[3]. وقام جنود الاحتلال بالطواف في شوارع العاصمة، حتى يلقوا الرعب في الجماهير، ويؤكدوا قوة بريطانيا، فكانت عربات الجيش الإنجليزي تجري في الشوارع غير عابئة بآداب المرور. وعلى إثر ذلك تكرَّرت حوادث التصادم والإصابات بين المدنيين المصريين[4].

التغيرات العسكرية

سعت بريطانيا إلى تدعيم تواجدها في مصر بشتى الطرق، لتكون معسكرًا لقواتها، نظرًا لموقع مصر المتميز بين الشرق والغرب، وهو ما دفعها لإعلان الأحكام

---

(1) يوسف، مصطفى النحاس جبر: **سياسة الاحتلال تجاه الحركة الوطنية 1906-1914**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1975، ص 208-210، 213؛ سليم قبعين: **اللآلىء السَّنيَّة في التهاني السلطانية**، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2013، ص 21.

(2) رزق: **وزارة الخارجية**، ص 272.

(3) يوسف: **سياسة الاحتلال**، ص 202-204.

(4) سالم: **مصر في الحروب**، ص 278.

العرفية، وتعيين اللفتنانت جنرال السير جون ماكسويل (John Maxwell) قائداً للقوات في مصر، باعتباره "الضابط العام لجيوش جلالة الملك في القُطر المصري"، وقامت بسحب القوات البريطانية من سيناء إلى مواقع الدفاعات الأصلية عن مصر. ووقع على كاهل المصالح المصرية تلبية المتطلبات العسكرية البريطانية كمَدِّ السكة الحديدية من الزقازيق إلى الإسماعيلية لنقل القوات البريطانية من الإسكندرية إلى القناة. وأُجبر المصريون على المشاركة والتعاون مع الإنجليز في الأعمال الإنشائية التي تخدم أغراض الحرب، وهذا العبء الذي وقع على كاهل أصحاب البلاد أورثهم النفور من الأسلوب البريطاني، وبالتالي تهيأت الفرصة للحراك الشعبي في ثورة 1919[1].

نشطت السلطة العسكرية البريطانية، منذ اليوم الأول لنفير الحرب، في تجنيد ما تستطيع من العمال والفلاحين المصريين بطريق الإكراه في صفوف الجيوش البريطانية، بالرغم من عدم إعلان مصر الحرب، وبالرغم من إعلان بريطانيا حياد مصر. وفُرض على مصر أن تُقدم أبناءها للقتال والمعاونة في صفوف قوات الحلفاء. ويُقدَّر عدد المصريين الذين شاركوا في الحرب، بأوامر من بريطانيا، "بمليون ومائتي ألف جندي في وقت كان تعداد سكان مصر لا يزيد عن 14 مليون نسمة"، وجُلُّهم مصريون بسطاء، كانوا من الجنود وفيالق العمال والحمَّالة. وشاركت "فيالق العمال المصرية" في بناء التحصينات والجسور، ومدِّ أنابيب المياه، والخطوط الحديدية عبر الصحراء، وحمل الأثقال علِى الظهور، وحفر الآبار والخنادق في العديد من الأماكن. وكان فيلق العمال المصريين في طليعة الحملة البريطانية المتقدمة إلى العريش عبر سيناء في سنة 1916، إضافة إلى أن المصريين قاموا بتزويد وحدات الحملة بالتعيينات والمياه[2]. ونتيجة للاحترافية في تنفيذ المهام والبطولات التي أبداها الجيش المصري، لم يقتصر استخدام فيالق العمال المصرية على جبهة قناة السويس فقط، وإنما تم استخدام أكثر من ثمانية آلاف في العراق، وفي عام 1916 تم إرسال أكثر من 10 آلاف من العمال والفلاحين إلى ميادين القتال على الجبهة الأوروبية

(1) الحميد: البحر الأحمر والجزيرة العربية، ص 131، 349، 352.

(2) سالم: الصراع العسكري، ص 400.

في فرنسا[1]. وسقط لمصر شهداء حتى ما بعد النهاية الرسمية للحرب في عام 1918؛ فالقوات المصرية ظلّت تُقاتل في بيروت ودمشق وفلسطين حتى عام 1920. وسالت دماء الكثير منهم، ووُريَت جثثهم في كل من فرنسا وإيطاليا ومالطا واليونان[2].

تعرضت فرق العمال المصريين للكثير من المتاعب في ميادين القتال المختلفة، وفي شهادة للجنرال كامبل، في مايو/أيار 1918، أن ثلاثة آلاف من بين 21 ألف عامل في هذه الفرق تحت قيادته يرقدون في المستشفيات، كما يذكر البريجادير جنرال سيرما كولي أيضًا أن فرق النقل بالجمال قد تكبَّدت خسائر كبيرة في تلال فلسطين، بالإضافة إلى المتاعب الصحية التي عانى منها الفلاحون المصريون في منطقة وادي الأردن[3].

أعلنت بريطانيا أن جمع هؤلاء العمال يتم بطريق الاختيار والتطوع، ولذلك سُمُّوا "متطوعين"، ولكن الحقيقة أنهم كانوا مُكرَهين، يؤخذون بطريق التجنيد، ووضعت الحكومة المصرية سلطتها وموظفيها رهن أوامر السلطة العسكرية البريطانية، فكان الحكام الإداريون من المديرين وعُمد البلاد وخفرائها يقومون بعملية جمع الرجال قسرًا وتجنيدهم في هذه الأعمال. يقول اللورد ملنر في تقريره: "إن الشعب المصري تحمَّل التكاليف والقيود التي اقتضتها تلك الحرب بالصبر والرضا، وإن الخدمات التي أداها الفيلق المصري للعُمَّال لا تُقدَّر بثمن، ولم يكن عنها غنى للحملة على فلسطين"[4]. والمعاناة الكبرى كانت خلال تجنيد الفلاحين المصريين للعمل لحساب السلطة العسكرية الإنجليزية أثناء الحرب في فرقة العُمَّال المصرية، ولا يزال الفلكلور المصري يحفظ بين ما يحتفظ به ذلك الموال الحزين الذي يبدأ بالمطلع الشهير: "بلدي

---

(1) طارق الشيخ: "رحلة البحث عن حقوق شهداء مصر في الحرب العالمية الأولى"، **صحيفة الأهرام**، العدد 46627، 4 أغسطس/آب 2014.
انظر أيضا:
Hopwood, Derek: *Egypt Poltics and Society 1945-1981*, George Allen & Unwin, London, 1981, p. 14.

(2) سالم: **مصر في الحرب العالمية الأولى**، ص 262.

(3) بركات، علي محمد: "الفلاحون بين الثورة العُرابية وثورة 1919"، **المجلة التاريخية المصرية**، المجلد 22، لسنة 1975، ص 226.

(4) بكر: "العلاقات السرية"، ص 40.

يا بلدي والسُّلطة خَدِتْ (أخذت) ولدي، يا عزيز عيني وأنا بِدِّي (أَوَدُّ) أرَوَّح بلدي".

والذي تردَّد في جنبات البلاد خلال سنوات الحرب العالمية الأولى تعبيرًا عن الظلم الذي لقيه الفلاحون من السلطة العسكرية الإنجليزية في تلك الفترة، والذي كان العامل الرئيس وراء مشاركة الفلاحين الواسعة في ثورة 1919؛ إذ إن مشاركة الفلاحين المصريين ضمن فرق العُمَّال لخدمة المجهود الحربي البريطاني لم تكن تطوعًا، فقد توافرت فيها كل أنواع القهر والإجبار، ففي شهادة لأحد الضباط المسؤولين عن الإمدادات للجيش البريطاني في مصر أمام لجنة من كبار الموظَّفين البريطانيين شُكِّلت لبحث هذا الموضوع في عام 1917 يذكر أنه في زيارة إلى أسيوط وجد قائد المعسكر البريطاني فيها يُحيط مناطق تواجد العمال المصريين بالأسلاك الشائكة، وفي جانب آخر من هذه الشهادة يذكر أن من بين 200 من هؤلاء المتطوعين أمكن التعاقد معهم في بني سويف، وصل عامل واحد إلى القاهرة وهرب الباقون في الطريق. كما أن سياسة تدخل الإدارة المصرية للقبض على الفلاحين وتصديرهم إلى فرق العمال لم تكن بدورها تطوعًا من رجال الإدارة المصرية من المأمورين والعمد، بقدر ما كانت سياسة مرسومة من الإدارة البريطانية[1].

استولت السُّلطة العسكرية البريطانية على الدوابِّ اللازمة لها، فلم تُبقِ على جمل أو حِمار صالح للعمل إلا استولت عليه بأبخس الأثمان، وقامت بمصادرة الحاصلات الزراعية والحبوب والمؤن وعلف المواشي، وفرضت على كل مركز إداري مقدارًا معيَّنًا من الحبوب يورِّده للجيش بأسعار بخسة؛ فكان الفلاحون يُطلب منهم في بعض الأحيان أكثر مما عندهم فيضطرون تحت تأثير الضغط إلى شراء ما يُطلب منهم بأسعار السوق، حتى لم يجد الناس ما يلزمهم لقوتهم الضروري وعلف مواشيهم، وكذلك استولت على معظم الأشجار الخشبية لتنتفع بأخشابها. ولم تكتف السلطة العسكرية بجمع العمال والمؤن والمواشي والدواب، والاستيلاء عليها بأبخس الأثمان وبأسعار تقل كثيرًا عن أسعار السوق[2]؛ بل استدعت الرديف من الجيش المصري لتستخدمه في الأعمال الحربية، وبلغ عدد من

---

(1) بركات: "الفلاحون بين الثورة العُرابية وثورة 1919"، ص 223.

(2) نفس المرجع، ص 223-226.

جُمعوا من الرديف تنفيذًا لهذا القرار نحو 12 ألف مجند. وتم جمع الرديف قسرًا من كل ناحية، فوقع تذمر شديد بين أفراده لسوء معاملتهم، ورداءة الغذاء الذي كان يُعطى لهم[1].

استعان البريطانيون بالمصريين خلال الحرب في القوات المعاونة، وكوَّنوا جيشًا من الجنود المصريين، وكذلك الرديف، وهو عبارة عن فرق تشكَّلت من فيالق العُمَّال والجمَّالة. وكان يتم تعبئة المصريين في هذه الفيالق مرتين أو ثلاث مرات سنويًّا، وكان يُستدعى في كل مرة منها حوالي 135 ألف رجل، على هيئة تطوع من الناحية الشكلية، إلا أنه في الحقيقة كان يتم تحت ضغط وإجبار، إلا أن نظام التطوع أُلغي في عام 1917، وعمل وكلاء البريطانيين في الريف "على المكشوف"، وعمل أفراد فيالق العمال في الأعمال الشاقة، وكانوا أول من يتلقى نيران العدو، فمثلاً عندما كان البريطانيون يتقدمون عبر سيناء كانت فيالق العمال المصرية في مقدمة قواتهم يُمهِّدون لهم الطريق بجهدهم وبأجسادهم[2].

استخدمت السلطات البريطانية، مع تطور الحرب، أسلوب التجنيد الإجباري بشكل صريح، وقد تطلَّب هذا النظام إعداد قوائم بالقادرين على العمل من الفلاحين ممن تتراوح أعمارهم بين 18 و45 سنة، على أساس قوائم الفلاحين العاملين سنويًّا في تقوية الجسور، وقد صاحب هذا النظام مظالم واسعة النطاق، ذلك أن العُمد قد استغلوا الصلاحيات الواسعة التي مُنحت لهم لتقديم الفلاحين إلى رجال الإدارة لتحقيق منافع شخصية أو للتشفي في خصومهم الشخصيين، هذا بالإضافة إلى المعاملة السيئة التي لقيها الفلاحون من رجال الشرطة في هجماتهم الدورية على القرى. وكان رجال الحكومة يدخلون القرية، وينتظرون رجوع الفلاحين إلى منازلهم في الغروب، فيحدقون بهم كالأنعام، وينتقون أقدرهم على الخدمة، فإذا رفض أحدهم هذا التطوع الإجباري، جُلد حتى الإقرار بالقبول، وعلى هذا النحو ساقوا أطفالاً من سن 14 سنة، وشيوخًا من سن السبعين، وكان هؤلاء يعملون في ظروف قاسية مما جعلهم فريسة للأمراض الوبائية، وضاعف من

(1) الرافعي: **ثورة 1919**، ص 30-41.

(2) رزق: **مصر تحت الهيمنة**، ص 408.

تأثير هذه الأمراض الجوع والبرد فكانوا يموتون كالذباب[1].

تناول سلامة موسى (1887-1958) هذا الأمر بقوله: "رحلـــتُ إلى الريـــف، ورأيت كيف كان يُسلِّط الإنجليز علينا الموظفين المصريين مـــن مـــأمورين ومـــديرين وحكمدارين وشرطة لخطف محصولاتنا، وكانت الجمال والحمير بل الرجال يُخطفون أيضًا كما لو كانوا في قرية زنجية على خط الاستواء قد كبسها النخاســـون لخطـــف سكانها وبيعهم في سوق الرقيق. وكان المنظر تئنُّ منه النفس كما يُفتِّت القلب فكـــان الرجل يُربط بالحبل الغليظ من وسطه وخلفه أمثاله، ويسيرون على هذه الحال صفًّا إلى أن يبلغوا المركز فيُحبسوا في غرفة المتهمين، ثم يُرحَّلوا إلى فلسطين، وكنت أنجح أحيانًا بالرشوة في استخلاص بعض هؤلاء المساكين. وذات مرة وأنا بالمنزل سمعتُ صُـــراخًا ودخلت عليَّ نسوة في فزع ونحيب، وعرفت أن ثلاثة ممن يزرعون أرضنا أُلقي القبض عليهم وهم يحرثون في الحقل، فخرجت ووجدهم مربوطين بالحبال الغليظـــة بحراســـة أحد الشرطة، أمَّا سائر الشرطة فقد تركوهم كي يغزوا قريـــة أخـــرى، واســـتطعت بمساومات مع الشرطة أن أحصل على الإفراج عنهم، ولكني لم أنجح في كل مرة، ففي ذات يوم قصدت إلى مأمور الزقازيق أطلب منه إطلاق اثنين من الفلاحين فتـــأملني ثم قال: أنا عايز أرحَّلك أنت لفلسطين؛ فتركتُه إذ لم تكـــن الظـــروف وقتئـــذٍ تـــأذن بالتحدي. وفي تلك السنوات السود أثرى كثير من العمد ثراءً فاحشًا، فقـــد فرضـــوا ضرائب على جميع الشباب من سنِّ العشرين إلى الخمسين على مقدار ما يملك، فهـــذا يؤدي خمسة جنيهات وذاك عشرة جنيهات حتى يعفيهم من الاعتقـــال وبعـــثهم إلى فلسطين، وعرفت عمدة كان يملك ستة أفدنة فقط جمع نحو خمسة آلاف جنيه بهـــذه الطرق، وكان الفلاحون يجوعون كي يجمعوا هذه الغرامات ويؤدوها"[2].

قدَّم أطباء مصر كذلك خدماتهم للجيش الإنجليزي، وتحمَّلت الحكومة المصرية نفقاتهم، فأصدر مجلس الوزراء في جلسته المنعقدة في 27 فبراير/شباط 1917 موافقتـــه

---

(1) الرافعي: **ثورة 1919**، ص 42.

(2) موسى، سلامة: **تربية سلامة موسى**، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2014، ص 90، سلامة موسى: "تربيتي العلمية"، **مجلة فكر وفن**، العـــدد 42، لســـنة 1985، ص 36-41.

على منح المستخدمين الخارجين عن هيئة العمال والملتحقين بجيوش الحلفاء نفس الامتيازات الممنوحة للموظفين الدائمين، وذلك بأن تُعطى لعائلاتهم إعانة توازي ثلث مرتباتهم، وأن تُحسب لهم المدة التي يقضونها في تلك الجيوش من المُدد التي يستحقون عليها المكافأة. ويذكر مراسل التايمز بالقاهرة أن "مصر تلقَّت آلافًا عديدة من جرحى البريطانيين ومرضاهم الذين استفادوا من مناخها الصحي، وأن المستشفيات ودور النقاهة فُتحت في جميع أنحاء البلاد، وقد أنفق المصريون على بعضها"[1].

التغيرات الاقتصادية والاجتماعية

أعلنت بريطانيا في بداية الحرب أنها ستتحمل كل مسؤولياتها دون طلب أية معونة من مصر. إلا أن البريطانيين استخدموا إلى أقصى حدٍّ إمكانيات مصر المادية والبشرية[2]، حتى إن الحكومة المصرية أنفقت منذ نشوب الحرب لحساب الحكومة البريطانية ولأغراضها العسكرية مبالغ طائلة في مختلف المصالح، وقُيِّدت هذه المبالغ في حساب العُهد على الحكومة البريطانية، ووضع السير ويليم برونيت، المستشار المالي بالنيابة، كشفًا في أوائل سنة 1918 بالمبالغ التي أنفقتها الحكومة في هذا الصدد حتى 31 ديسمبر/كانون الأول 1917، فأربتْ على 2 مليون و500 ألف جنيه، مع تقدير مبلغ نصف مليون جنيه آخر، كان منظورًا صرفه حتى آخر تلك السنة المالية، أي إن ما أقرضته الخزانة المصرية للحكومة البريطانية بلغ ثلاثة ملايين جنيه، أي ما يعادل 28 مليار جنيه إسترليني تقريبًا في الوقت الحالي. وقرَّر مجلس الوزراء المصري في 9 مارس/آذار 1918 برئاسة السلطان أن تتحمل الخزانة المصرية المبالغ المذكورة "اعترافًا بجميل بريطانيا العظمى التي حمت البلاد من خطر الغارات"[3].

يُعلِّق سعد زغلول فيقول: "لم يمرَّ على مصر زمان كانت الأمور فيه أكثر فوضى من هذا الزمان، ولم تكن الحكومة محاربة للأمة في وقت أكثر من محاربتها

(1) سالم: **مصر في الحرب**، ص 271-272.
(2) الباشا، سهام: "شهداء مصريون في الحرب العالمية الأولى حاربوا بالسُّخرة ودُفنوا في دول غربية.. ومصر لا تعرفهم منذ 94 عامًا"، **صحيفة اليوم السابع**، 27 أبريل/نيسان 2011.
(3) الرافعي: **ثورة 1919**، ص 49.

لها الآن لأنها سلبت منها ثلاثة ملايين قدمتها للحكومة الإنجليزية"[1]. ويقول ملنر على أثر هذه المنحة: "إن حكومة السلطان أيّدت رجال السلطة البريطانية بأعظم تعاون حبي، والدلائل على ذلك كثيرة منها تنازلها عن ثلاثة ملايين جنيه إنجليزي من حساب الأمانات والعهد التي كانت قد سلّفتها، وكان يحق لها المطالبة بها"[2]. وهكذا تبرعت الحكومة المصرية بهذا المبلغ الكبير وتحملت هذه النفقات في الوقت الذي كان شعب مصر يُعاني فيه الأمَرَّيْن بسبب تلك الظروف التي أقحمت الشعب المصري في هذه الحرب. وكان لهذا أثره على المصريين، ولما اطّلع الناس على هذه المذكرة سخطوا سخطًا شديدًا على الوزراء، واستنزلوا عليهم اللعنات.

قدَّمت مصر كذلك لبلجيكا، لإنقاذها من الجوع ومرض السل في الفترة من 1918 إلى 1920، أموالاً تُقدَّر بثلاثة ملايين فرنك فرنسي، وقد أرسلت ملكة بلجيكا خطابات بخط يدها تشكر شعب مصر على إنقاذه للشعب البلجيكي. وكانت هذه أعلى قيمة تبرعات وصلت بلجيكا، وزار الملك ألبرت والملكة إليزابيث مصر بعد الحرب مباشرة لتقديم الشكر للشعب المصري[3].

وضعت السلطة العسكرية البريطانية يدها على الموانئ المصرية، وكل وسائل النقل والصناعة والزراعة، وتم تنظيم الاقتصاد المصري على خطوط جديدة تستهدف خدمة العجلة الحربية البريطانية؛ فقد اتخذت السلطات عددًا من الإجراءات السريعة لتوفير الغذاء للقوات البريطانية التي تُرابط في مصر، ووصل تعدادها إلى 275 ألف رجل، وذلك بتثبيت سعر أوراق البنكنوت، ومنع تصدير المواد الغذائية، وعدم التعامل في الأوراق التجارية بشكلٍ عام، وفرض الضرائب

---

(1) زغلول، سعد: **مذكرات سعد زغلول**، تحقيق عبد العظيم رمضان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1996، ج8، ص 161-162.

(2) ملنر: **"المسألة المصرية في دورها الأخير" مجموعة تشتمل على تقرير ملنر وأهم الردود الوطنية وغيرها كالمبيَّن بالفهرست**، دار البستاني للنشر والتوزيع، القاهرة، 1921، ص 31.

(3) أيوب، ميرفت: "ديون مصر على بلجيكا.. هل أصبحت في طي النسيان؟"، **صحيفة وطني**، 10 سبتمبر/أيلول 2014.

على التعريفات الأكثر ارتفاعًا بالنسبة للمواد الغذائية ومواد الضرورات الأوليـــة، ودراسة الوسائل اللازمة لتمويل محصول القطن[1]. وتعذّر تصريف محصول القطن، عندما قامت الحرب، فأدّى ذلك إلى هبوط أسعاره، وخوفًا من حدوث الهيـــار في الاقتصاد القومي، أصدرت الحكومة قانونًا عُرف باسم "قـــانون ثُلُـــث الزمـــام" وبمقتضاه أصبح لا يجوز لأي فرد أن يزرع أكثر من ثلث الأرض الزراعيـــة الـــتي يملكها قطنًا، وكان من نتائج هذا القانون أن زادت المساحة المزروعة قمحًا وأرزًا. كما اضطرت مصر إلى إنقاص مساحة الأراضي المزروعة قطنًا لزيـــادة مســـاحة الأراضي المنتجة للحبوب، وذلك لتموين الجيوش المتدفقة على مصر أو في ميـــادين القتال. وتوقفت مشروعات الري في مصر كليةً أثناء الحرب، وعملـــت سياســـة الاحتلال على أن تتخصص مصر في الزراعة، وبخاصة زراعة القطن حتى تســـتطيع بريطانيا أن تحصل على حاجتها من هذا المحصول من جهة، وحتى تظل مصر سوقًا رائجة للمنتجات البريطانية تامة الصنع من جهة أخرى[2].

أُضيفت خلال الحرب أعباء جديدة على الفلاحين المصريين؛ إذ انخفض سعر القطن من 20 ريالاً قبل الحرب إلى حوالي عشرة ريالات في بدايتها فاشتد الضـــيق بالفلاحين، وأسهمت البنوك في اشتداد الأزمة فبنوك التسليف توقفت عن التسليف على القطن، بينما أخذت البنوك العقارية تتشدد في المطالبة بأقساطها، وتشـــددت الحكومة في تحصيل الضرائب، وأصدرت تعليماتها إلى الصيارفة والحكام الإداريـــين باستعمال الشدة في تحصيل الأموال الأميرية ومطلوبات البنك الزراعي؛ فبلغ الضيق غايته بالفلاحين، واضطر الكثير منهم إلى بيع أقطانهم بأدنى سعر، وباع بعضـــهم قطنه بمبلغ 120 قرشًا، وأكرهت الحكومة معظم الفلاحين على بيع ما لديهم مـــن مصاغ وحلي وماشية ودواجن لأداء بقية المال المطلوب، واضطر الكثير منـــهم إلى الاستدانة من المرابين بالرِّبا الفاحش، ولم تتخذ الحكومة لمواجهة هذا الموقـــف أي إجراء، وعندما ارتفعت أسعار القطن مع نهاية الحرب كان ذلك مصحوبًا بارتفاع

(1) الثاني، عباس حلمي: **عهدي**، ص 273.

(2) لطفي، علي: التطور الاقتصادي، دراسة تحليلية لتاريخ أوروبا ومصر الاقتصادي، مكتبة عين شمس، القاهرة، 1983، ص 248–251.

حادٌ في الأسعار، وهو الوضع الذي عانت منه الطبقات الفقيرة[1].

يذكر ملنر في تقريره "أن أسعار هذه الأشياء ارتفعت في مصر ارتفاعًا لم يسبق له مثيل، ولا سيما أسعار الحاجات كالحبوب والأقمشة والوقود، وبلغت وطأها على الفقراء لا سيما وأن أجورهم لم تكن لتكفي النفقات التي كان يقتضيها غلاء المعيشة في حين أنهم كانوا يرون عددًا من مواطنيهم ومن الأجانب غير المحبوبين عندهم يجمعون الثروة الكثيرة فإن عائلة مكونة من أربع أنفس، رجل وزوجته وطفلين، لم تكن تستطيع في أوائل 1919 الحصول على ما يكفيها من القوت إلا بثمن يفوق كثيرًا متوسط الأجر وقتئذ، فهذه العوامل المختلفة أفضت ولا ريب في أواخر 1918 إلى الاستياء والقلق بين معاشر الفلاحين"[2].

منعت السلطات العسكرية البريطانية، منذ الشهور الأولى للحرب، تصدير بعض السلع المصرية، وخاصة الحبوب، التي كانت تُصادرها لحسابها بأسعار منخفضة عن سعر السوق، وكان أصحابها يحصلون على حقوقهم من السلطة بعد وقت طويل، كما فرضت رقابة صارمة على الأسعار. ونتيجة لما سبَّبته الحرب من صعوبة استيراد القمح، وما ترتب على ذلك من احتمالات نقص الخُبز في البلاد توسعت السلطات البريطانية في المنطقة المزروعة قمحًا وذرة فقلَّتِ الأراضي المزروعة قطنًا. إلا أنه ونتيجة لحاجة الصناعات البريطانية الحربية للقطن لم يمضِ وقت طويل حتى أُلغيت كل القيود على زراعته، وعاد إنتاجه يزداد مرة أخرى، وأخذت أسعاره تتزايد أيضًا، فبينما كان سعر القنطار 14 ريالاً عام 1913 وصل عام 1917 إلى 28 ريالاً[3]، ولكن هذا الارتفاع لم يستمر طويلاً؛ حيث بدأت الأسعار في الانخفاض، وأخذت تتقلب ارتفاعًا وانخفاضًا. كما أن أغلب الأرباح الناتجة عن هذه الزيادة لم تذهب إلى جيوب الفلاحين المصريين بقدر ما ذهبت إلى جيوب المستثمرين الأجانب؛ إذ كان أغلب أراضيهم مرهونًا لحساب ما عليها من

---

(1) الرافعي: **ثورة 1919**، ص 56.

(2) نفس المرجع، ص 57.

(3) أدَّت هذه الزيادة إلى إصدار بريطانيا أوامر بتحريم التجارة في محصول القطن في عام 1917، نظرًا لعزمها على شرائه. الحميد: **مرجع سابق**، ص 350.

ديون، في نفس الوقت الذي زاد خلاله سعر ري الفدان من الأرض التي كانت تُروى بالآلات الرافعة لارتفاع أسعار الوقود، إلى جانب ارتفاع أسعار السماد، وأسعار الأجولة اللازمة لتعبئة القطن، وأجور النقل، ونتج عن ذلك أن أخَذَ البنك العقاري ينزع مساحات واسعة من الأراضي الزراعية من مالكيها، وشاركه في ذلك المرابون الأجانب، وبلغت قضايا الحجز على الأراضي 1200 قضية شهرية خلال عام 1916[1].

كان الصرَّافون يقومون بتحصيل الضرائب من الفلاحين على هيئة حبوب، وبقدر أكبر من المقرر، وكانوا يبيعون الزائد في الأسواق بأسعار أعلى، كما أن مصادرة دوابِّ النقل لصالح الأعمال الحربية، خاصة الحمير والجمال، قد سبَّبت ما يُشبه الكارثة للفلاح؛ إذ لم تكن التعويضات التي تُدفع في مقابل هذه الدواب تكفي لشراء دواب جيدة، هذا إلى جانب ما عاناه الفلاحون من التبرعات الإجبارية التي كانت تُجمع لصالح الصليب الأحمر والهلال الأحمر، والتي كان الموظفون يتسابقون في جمعها حيث كان جانب كبير منها يذهب إلى جيوبهم. واتُّبعت طريقة الإجبار، وذلك لتدبير الأموال اللازمة التي لم يتيسر الحصول عليها بطريق التبرع. واستُعملت وسائل الإكراه، ففرض على كل مدينة وكل قرية أن تدفع مبلغًا معينًا من المال، ومارس حكَّام الأقاليم الضغط بوسائلهم الخاصة والمعهودة على مرؤوسيهم الذين أرغموا الشعب على دفع الأموال بتهديدهم بالويل والثبور على يد الحكومة إذا لم يجمعوا المقرر جمعه[2]. ولعل هذه الصورة توضح العوامل التي كانت وراء اشتراك الفلاحين بشكلٍ حاد في أعمال ثورة 1919.

يقول سعد زغلول في مذكراته: "شرع السير مكماهون، نائب الملك، في اكتتاب عام بالقُطر المصري لجرحى الحرب البريطانية، عقد لذلك احتفالاً بالإسكندرية، وآخر في القاهرة، خطب في كل منهما خُطبًا طويلة في بيان مزايا الصليب الأحمر، والخدمات التي يؤديها، وأن الحاجة إلى المال إنما هي للأمور

(1) رزق: مصر تحت الهيمنة، ص 409-410.

(2) سالم: مصر في الحرب، ص 274.

الكمالية التي تُسلّي الجرحى لا للوازم الضرورية التي تقوم الحكومة بتوفيرها على غاية ما يرام. وما إن بلغت هذه الدعوة الأقاليم حتى قاموا يحثون الأهالي على الاكتتاب حتى بلغ المجموع مبلغًا عظيمًا قدَّرناه بمائة ألف جنيه على التقريب. ولكن الذي ساعد على ذلك الإقبال هو الرهبة من الأحكام العُرفية وتنفيذها، وإن لم يُهدد بالأحكام فعلاً"[1].

ارتبط ارتفاع الأسعار خلال سنوات الحرب بالأوضاع المالية في مصر، وما أصابها من تغيير، ففي 2 أغسطس/آب 1914 أعلنت السلطات البريطانية وقف التبادل بالعملات الذهبية، وأحلّت محلها الأوراق المالية "البنكنوت"، التي كان يُصدرها البنك الأهلي المصري، وتضم احتياطي الذهب في هذا البنك إلى الخزانة البريطانية. وقامت السلطات البريطانية بسحب كل العُملات الذهبية والفضية المتداولة، وأحلّت محلها أوراق البنكنوت. وفي أكتوبر/تشرين الأول 1916 سحبت أيضًا الغطاء الذهبي الذي كان يُغطّي هذا البنكنوت الجديد، وأعلنت أنه مضمون من الخزانة البريطانية وبقيمة الجنية الإسترليني، وهكذا أصبح الجنيه المصري تابعًا للجنيه البريطاني، واستطاعت بريطانيا بهذه الإجراءات أن تواجه تكاليف قواتها العسكرية في مصر من دون أن تُنفق جرامًا واحدًا من الذهب. وترتَّب على هذه التطورات المالية ارتفاع كبير في أسعار السلع الأساسية مثل الخبز والملابس والوقود، وعانت طبقة العمال من جرَّاء هذا أشد المعاناة، وازدادت الأعباء الواقعة عليها؛ إذ لم تتناسب الزيادة في الأجور مع استمرار ارتفاع تكاليف المعيشة. ومن هذه الصورة العامة للتغيرات الكمية والكيفية يُمكن تصور الدور الذي لعبته الطبقة الوسطى خلال ثورة 1919، بل كانوا عمادها الحقيقي[2].

تأثَّرت طبقة مُلاك الأراضي بارتفاع الأسعار، وخاصة من الارتفاع الكبير في أسعار القطن، بينما لم يتمكن الفلاح الصغير من الاستفادة من هذا الارتفاع؛ نتيجة إلى أنه لم يصمد لما أصاب المحصول من كساد خلال موسم 1914-1915،

---

(1) زغلول، سعد: **مذكرات سعد زغلول**، تحقيق عبد العظيم رمضان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1992، ج5، ص 266.

(2) رزق: **مصر تحت الهيمنة**، ص 411-414.

إلا أن كبار الملاك تمكَّنوا من الصمود خلال ذلك الموسم، فاستطاعوا أن يجنوا ثمار ارتفاع أثمان القطن خلال المواسم التالية؛ مما أدى إلى تحسن أحوالهم، وترتب على ذلك ظهور مشكلة سوء التوزيع الصارخ لملكية الأراضي الزراعية؛ مما زاد من حدة التناقض الاجتماعي بين الفلاحين وكبار الملاك؛ حيث تركَّزت المِلكية في أيدي عدد قليل من كبار الملاك. إلا أن هذا لا يعني أن كبار الملاك قد ارتبطوا بالأوضاع الجديدة التي ترتبت على إعلان الحماية؛ إذ استطاعوا خلال ارتفاع أسعار القطن والمحصولات الأخرى الحصول على عقود إيجار من الفلاحين تُغطي السنوات الثلاث القادمة، فلما انخفضت الأسعار عقب الحرب أصبح على الفلاحين أن يوفوا بالتزاماتهم الإيجارية بالأسعار العالية تجاه كبار الملاك، وهو وضع لم يكن في استطاعتهم. وأصبح الموقف يهدِّد بحدوث أزمة بين الفلاحين وكبار الملاك، وطالب الفلاحون الحكومة بالتدخل للحيولة بينهم وبين تنفيذ هذه العقود في مئات من الالتماسات، ولكن الحكومة صمَّت آذانها[1]. وإذا كانت هذه الأوضاع قد أفادت كبار مُلاك الأراضي الزراعية اقتصاديًّا، فقد حدَّت كثيرًا من حريتهم السياسية، فالجمعية التشريعية التي تشكَّلت أساسًا من هؤلاء لم تنعقد طوال فترة الحرب، في الوقت الذي صُودرت خلاله السياسة خارج الجمعية نتيجة لوقف العمل الحزبي بسبب الأحكام العُرفية. كما أدَّت ظروف الحرب إلى نمو رأسمالية صناعية مصرية، واكبها نشاط تجاري ومصرفي. وتزعَّم طلعت حرب (1867-1941) الدعوة لإنشاء بنك مصري، وتشكَّلت لجنة التجارة والصناعة، التي قدمت توصيات لدعم وتثبيت الرأسمالية المصرية، ودعت لتشكيل غرف تجارية وصناعية.

تمَّ قطع طرق المواصلات بين الدول، حينما نشبت الحرب، فأصبحت مصر معزولة نتيجة لذلك، وأصبح من المتعذر استيراد حاجات البلاد من السلع المصنوعة؛ مما أدى إلى ارتفاع أسعارها في الداخل، وكان من الطبيعي بل من الضروري أن ينشط بعض الصناعات في مصر لسدِّ النقص الذي أحس به الشعب، ولكفاية جيوش الحلفاء؛ الأمر الذي أغرى أصحاب رؤوس الأموال للقيام باستثمار

(1) بركات: "الفلاحون بين الثورة العُرابية وثورة 1919"، ص 221-222.

أموالهم في إنتاج السلع الاستهلاكية طمعًا في تحقيق أرباح استثنائية؛ مما أدى إلى تقوية الصناعات الوطنية، وإلى ظهور بعض الصناعات الجديدة. وعندما انتهت الحرب نشطت التجارة الدولية، وزادت حركة التصدير والاستيراد بين مختلف الدول، وأغرقت السلع الأجنبية الأسواق المصرية، ولما كانت معظمها صناعات صغيرة ناشئة فإنها لم تستطع الصمود أمام تيار المنافسة الأجنبية، فكانت النتيجة الحتمية أن لاقت الصناعات المصرية حتفها. ولكن مصر استفادت من تجربة التصنيع خلال فترة الحرب؛ إذ تنبهت إلى خطر الاعتماد على الزراعة وحدها، وضرورة الاتجاه للصناعة، كما تنبه المسؤولون إلى أن الصناعات الناشئة لا يُمكن أن تنهض وتنمو إلا إذا كانت هناك تعريفة جمركية تحميها من منافسة الصناعات الأجنبية[1].

ارتبطت التغيرات التي شهدتها طبقة العمال، أو من عُرفوا بالبروليتاريا المصرية، بالتغيرات التي أصابت الصناعة المصرية، فقد أدت أحداث الحرب إلى انخفاض حجم التجارة الخارجية، وبالتالي قلة الواردات الصناعية. وأدى هذا الوضع، وما ترتب عليه من نقص السلع المستوردة من أوروبا، ومن حماية المصنوعات المحلية من منافسة هذه السلع إلى نمو الصناعات القديمة، وظهور صناعات جديدة، وكان أهمها المصنوعات النسيجية، وصناعات دبغ الجلود والسكر والمشروبات الرُّوحية والأثاث وغيرها؛ مما أدى إلى تغيير في أكثر من جانب في طبيعة الطبقة العمالية؛ إذ زادت هذه الطبقة من حيث الحجم زيادة كبيرة، فبينما كان عددها لا يزيد عن 376 ألف عامل عام 1907 وصل في عام 1917 إلى 481 ألف عامل. أمَّا من حيث النوعية فقد ظهر التأثير في أكثر من جانب، فقد كانت الطبقة العمالية قبل الحرب تعمل في المشروعات الأجنبية مثل مصانع السجائر وغيرها، وأدت الحرب إلى اشتغال أعداد كبيرة من العمال لحسابهم الخاص، كما وفرت التغيرات التي نتجت عن الحرب الفرصة لانضمام المزيد من العمال المصريين لهذه الطبقة، كما تأثر وضع الطبقة العمالية الجديدة أشد التأثير بارتفاع الأسعار الملحوظ الذي ترتب على اندلاع الحرب. وبدأت التحركات العمالية مع مشارف نهاية الحرب في القطاعات

---

(1) لطفي: **التطور الاقتصادي**، ص 251، 253.

غير الحيوية، مثل السجائر، التي أدَّت ميكنتها إلى عمليـــات تســـريح جماعيـــة[1]، وصودرت التنظيمات الشعبية والعمالية[2].

تدل الإحصاءات على أن التجارة المصرية الخارجية شهدت نموًّا كبيرًا أثنـــاء سنوات الحرب، وأن ميزان المدفوعات كان في صـــالح مصـــر؛ إذ زادت قيمـــة الصادرات بسبب ارتفاع أسعار القطن، إضافة لزيادة نفقات القوات البريطانية التي كانت موجودة في مصر، وكان من الطبيعي أن يؤدي قيام الحرب العالمية الأولى إلى انكماش حجم التجارة الدولية بسبب صعوبة عمليات النقل البحري مـــن جهـــة، وبسبب تخصيص جزء كبير من الموارد الإنتاجية إلى الإنتاج الحربـــي مـــن جهـــة أخرى. ولم تكن سياسة تحديد إنتاج القطن في مصر فترة الحرب سليمة تمامًا، لأن القطن المصري لا يُمثِّل إلا نسبة ضئيلة من الإنتاج العالمي، ومن ثَمَّ فإن نقـــص أو زيادة الكميات المنتجة لن يؤثر كثيرًا في الأسعار الدولية، كما أن الارتفاع الشديد المستمر في أسعار الأقطان طويلة التيلة يدعو إلى تحويل الآلات إلى استعمال الأقطان قصيرة التيلة أو استنباط ألياف صناعية تحل محل الأقطان طويلة التيلة. وبمجـــرد أن انتهت الحرب عادت الموارد الإنتاجية إلى الإنتاج المدني، وانتهت صـــعوبة النقـــل البحري، ونشطت التجارة الدولية، مما أدى إلى زيادة الاســـتيراد زيـــادة كـــبيرة ومفاجئة لإشباع الطلب المؤجل خلال فترة الحرب التي دامت حوالي أربع سنوات، حُرِم الشعب خلالها من كثير من السلع، وبلغت قيمة الـــواردات في عـــام 1919 حوالي 47,4 مليونًا من الجنيهات، وقفزت في عـــام 1920 إلى 101,8 مليـــون أي بزيادة قدرها 115% تقريبًا. وتدل الإحصاءات على أن قيمة صادرات مصر خلال تلك الفترة كانت في مجموعها تزيد عن قيمة الواردات، أي إن الميـــزان التجـــاري كان في صالح مصر[3].

---

(1) حسني، محمد: "الحركة العمالية المصرية حـــتى 1952"، **مجلـــة أوراق اشـــتراكية**، 1 نوفمبر/تشرين الثاني 2009.

(2) عباس، رؤوف: **الحركة العمالية في مصر 1899–1952**، تقديم: أحمد عزت عبد الكريم، دار الكاتب العربـــي، القاهرة، 1967، ص 65.

(3) لطفي: **التطور الاقتصادي**، ص 263، 264.

تُشير الوثائق البريطانية إلى أن الفلاحين كانوا أسبق الفئات الاجتماعية في التمرد على الأوضاع التي فرضتها إنجلترا خلال الحرب، وبالذات في مواجهة عمليات جمع الفلاحين لفرقة العمل المصرية؛ ففي خطاب المندوب السامي إلى وزارة الخارجية البريطانية بلندن، في 15 سبتمبر/أيلول 1918، إشارات واضحة إلى نشوب عدة حوادث في المديريات خلال شهر مايو/أيار من نفس العام راح ضحيتها العديد من الأرواح نتيجة لمقاومة الفلاحين لأوامر السلطات المحلية، وإن كانت هذه المقاومة لم تتحول إلى اضطرابات واسعة النطاق غير أنها كانت مقدمة لمشاركة الفلاحين الواسعة في ثورة 1919[1].

التغيرات الفكرية

أثّرت الحرب العظمى كذلك على الحياة الفكرية عند المصريين، فإذا كان الفكر العلماني قد بدأ يظهر على استحياء منذ ما قبل الحرب برفض أحمد لطفي السيد (1872-1963) فكرة الجامعة الإسلامية كأساس من أسس الحركة الوطنية المصرية، إلا أن هذا الاتجاه ازداد وضوحًا خلال الحرب. وناقشت الصحف والجرائد الأمور العلمانية بفكر مُتجرد من قيود التأثيرات الغيبية. وشَنَّ الدكتور محمد حسين هيكل (1888-1956) حملة شعواء يتهم فيها أصحاب الاتجاه الديني بالنفاق والكذب والاتجار بالدين، وعلى رأسهم الشيخ رشيد رضا (1865-1935)، تلميذ الإمام محمد عبده (1848-1905) وصاحب جريدة المنار، ويكتب في إحدى مقالاته يطالب بالحرية في الفكر والعقيدة والسعي إلى الإصلاح، ويطالب الذين تصدوا للدفاع عن الفكر العلماني بألا يرهبوا برميهم بتهمة الإلحاد، بل ذهب إلى أكثر من ذلك بقوله: "إن المخلص في إلحاده خيرٌ من المنافق في إيمانه"[2].

انصبَّ اهتمام أحمد لطفي السيد حول القومية المصرية بمفهوم علماني في مواجهة الرابطة الإسلامية التي كان يُسميها: الجامعة الإسلامية، وكذلك المطالبة بانتهاج المذهب التحرري الليبرالي بما يستند إليه من أسس وقيم فلسفية وحضارية،

(1) بركات: "الفلاحون بين الثورة العُرابية وثورة 1919"، ص 228.
(2) هيكل، محمد حسين: "إلى إخواني الشبان"، مجلة السفور، 4 أغسطس/آب 1916.

مما يُستَشَف منه اتجاهه الفكري بشأن قضية تحديث المجتمع المصري. ومع سنوات الحرب، وبتسرب الضعف إلى الكيان الإسلامي الجامع؛ بدأت الحركة القومية المصرية تتخذ طابعًا وطنيًّا ومحليًّا، خاصة بعد أن بدأت دولة الخلافة تسقط صريعة الحضارة الغربية المتفوقة، فبرزت الأفكار العلمانية عن القومية التي تتخذ طابعًا جديدًا[1]. والخلاصة هي أن "الفكر المصري لم يعرف دعاة للعلمانية وتبنِّيها بعيدًا عن نطاق الدين، وما يؤكد هذه الحقيقة أن جميع من تبنَّوا أفكارًا واتجاهات تدخل في اهتمامات العلمانية كانوا من مشايخ وعلماء الأزهر معقل الثقافة والتربية الإسلامية في مصر، ولعل هذا كان وراء تسميتهم بالعلمانيين المسلمين"[2].

طلب الإنجليز تعطيل الدراسة في الأزهر، لتخوفهم من طلبته، "ولكن رجال الأزهر أفهموا مستشار الداخلية الإنجليزي أن الأزهر جامع تُؤدَّى فيه الشعائر الدينية، ولا يمكن إغلاقه، ففكر الإنجليز في تقليل عدد الطلبة، وكان عددهم في ذلك الوقت 8222 طالبًا، فأوعزوا إلى شيخ الأزهر بفصل الطلبة الذين عُرفوا بعدائهم للإنجليز من مصريين وأتراك وغيرهم من أبناء المستعمرات البريطانية، فتم فصل 3006 من الطلاب"، ثم قاموا بتخريج ألف طالب في امتحان سريع، وبذلك قلّلوا من عدد الطلبة إلى النصف[3].

اكتسب الفكر الاشتراكي أثناء الحرب الأصالةَ كأحد تيارات الفكر المصري، خاصة بعد نشر حسين المنصوري كتابه عن الاشتراكية في أوائل عام 1915، بعنوان "تاريخ المذاهب الاشتراكية"، الذي صدر بعد عامين من صدور كتيب سلامة موسى "الاشتراكية"، وكتب فيه عن الاشتراكية في مصر واحتمالات تطبيقها، ودعا إلى تمثيل طوائف العمال والتجار وأرباب المهن في الجمعية التشريعية. وكتب كذلك سلسلة مقالات في جريدة "السفور" عن الفكر الاشتراكي. ورأى سلامة موسى أن الاشتراكية في مصر "تكون بتربية الجمهور

(1) الشلق، أحمد زكريا: "العلمانية والفكر المصري الحديث"، **المجلة التاريخية المصرية**، المجلدان 30 و31، لسنة 1983–1984، ص 445–447.

(2) نفس المرجع، ص 463.

(3) يوسف: **سياسة الاحتلال**، ص 207.

على الحكم النيابـــي الديمقراطي أولاً، ثم نشر المبادئ الاشتراكية وإدخال بعضـــها بالتدريج في جسم الحكومة حتى تتشرب بها الأمة وتصبح عزيزة فيها فتتوجه فكرة الإصلاح إلى وجهات اشتراكية ثانيًا". "وعليه، يجب على كل مصري يرى بعينـــه الظلم الحاصل بالفلاح وحرمانه من ثمرة أتعابه أن يشجع خطة توطين المملوكـــات الفردية الحاضرة بإخراجها من يد الأفراد إلى يد البلديات والحكومة...، وعليـــه أن يشجع عمالنا على الاعتصاب السلمي حتى تزيد أجورهم ويقل شـــغلهم"[1]. ولا شك أن حدوث الثورة الاشتراكية في روسيا في أكتوبر/تشرين الأول 1917، ومـــا ترتب عليها من سقوط القيصرية كان مادة مهمة لمزيد مـــن الفكـــر الاشـــتراكي المصري، بل إن جريدة محافظة مثل "المقطم" ذكرت أن روح الاشتراكية بمعناهـــا الصحيح ستعم العالم بعد الحرب، ولا يُنتظر أن تبقى مصر بمعزل عـــن تأثيرهـــا. وانتشار هذه الأفكار كان بدوره من العوامل المهيِّئة لثورة 1919[2]. وظلّ الفكـــر الاشتراكي يتغلغل في الدوائر العمالية في أعقاب الحرب وخلال أحـــداث ثـــورة 1919، إلى أن انتهى الأمر بتشكيل الحزب الاشتراكي المصري[3].

شجعت السلطات البريطانية الفكر العربـــي، بل أصدر التعليمات الرسمية في 14 نوفمبر/تشرين الثاني 1914 بتشجيع الحركة العربية بأية طريقة ممكنة، وبتقـــديم الضمانات البريطانية باسم الحكومة البريطانية لهذه الحركة؛ إذ رأى السفير البريطاني في القسطنطينية أن "حركة عزيز علي المثيرة قد حرَّكت الرأي العربـــي عبر منطقة واسعة"[4]. كما سُمح لعزيز علي المصري بإعادة مزاولة نشاطه في المنطقة العربية، بالدعوة لإنشاء دولة عربية متحدة مستقلة عن الدولة العثمانية، مع إعطائه مبلغًا من

---

(1) موسى، سلامة: **الاشتراكية**، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، 2012، ص 17-23.

(2) رزق: **مصر تحت الهيمنة**، ص 414-415.

(3) الدسوقي، عاصم: "من أرشيف الحركة اليسارية في مصر 1919-1925"، **المجلة التاريخية المصرية**، المجلدان 28 و29، لسنة 1981-1982، ص 437-489.

(4) تقرير رقم 335، من السير لويس ماليت السفير البريطاني في القســـطنطينية إلى الســـير إدوارد غراي وزير الخارجية، في 12 مايو 1914. منشور في نجدة فتحي صفوة: **الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)، المجلد الأول 1914-1915**، دار الساقي، بيروت، 1996، ص 295.

المال، ودعمه في أية حركة يقوم بتنظيمها بين العرب؛ بشرط أن يُقدِّم التقارير للوكيل البريطاني، بعدما تأكد لديها أنه يميل إلى إمبراطورية عربية تحت سيادة بريطانية. وفي خلاصة لحديث دار بين راسل وعزيز علي في 16 أغسطس/آب 1914، اتضح للحكومة البريطانية أنها "حركة مستقلة عن الدِّين تمامًا، وعلى ذلك فهي متميزة عن حركة الخلافة الإسلامية والعربية"[1]. إلا أن هذا التشجيع قد تأجّل لعدم تحمس السلطات البريطانية في الهند التي رأت خطورة تبنِّي مثل هذه الحركة[2]؛ إذ أبرقت وزارة الخارجية إلى المستر تشيثام في القاهرة في 18 ديسمبر/كانون الأول 1914، بأن حكومة الهند رأت "عدم تشجيع العناصر الخارجية في وضع العراق... ولذلك عليكم في الوقت الحاضر الامتناع عن إبداء أي تشجيع قاطع إلى عزيز علي"[3].

(1) برقية من المستر تشيثام (القاهرة) إلى السير إدوارد غراي وزير الخارجية (لندن)، في 9 أغسطس/آب 1914. في صفوة: **مصدر سابق، ص** 445، 447.

(2) الحميد: البحر الأحمر والجزيرة العربية، ص 126، 127.

(3) برقية من وزارة الخارجية (لندن) إلى المستر تشيثام (القاهرة) في 18 ديسمبر/كانون الأول 1914. في صفوة: **مصدر سابق، ص** 475.

خاتمة

وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها بانتصار الحلفاء على دول المحـــور. وفي 11 نوفمبر/تشرين الثاني 1918 عُقدت الهدنة[1]، واختفت من الوجـــود الإمبراطوريـــات الثلاث: الألمانية، والروسية، والنمساوية - المجرية، كما انهارت الدولة العثمانية، الـــتي كانت مُسيطرة على المشرق العربـــي. ولم تكد الحرب تنتهي حـــتى تجمعـــت أمـــام المصريين آمال وطموحات عالم ما بعد الحرب وقد دفعتهم إلى ذلك معاناتهم ووطنـــهم خلال سِنِي الحرب. وإذا كانت مصر قد قبلت بحكم إنجلترا المحتلة لأراضيها، بحُكـــم ظروف الحرب التي فُرضت عليها، فإن بصيصًا من النور جاء ليُنعش آمال المصريين في غدٍ أفضل، وهو المبادئ التي أعلنها الرئيس الأميركي ويلسون (1913-1921) في أوائل سنة 1918. حيث تمحورت حول العدل العالمي، وحرية الشعوب صغيرها وكبيرهـــا، والاعتراف بحق تلك الشعوب في تقرير مصيرها[2]. إلا أن المحصلة النهائية أن مصـــر لم تجنِ أيًا من ثمرات الحرب؛ إذ سارعت بريطانيا لإخضاعها لاستعمارها. وفقدت مصر استقلالها تمامًا، وكما يقول روجيه لامبلان: "بجرَّة قلم وبلا استشارة للمصـــريين ولا دعوة للجمعية التشريعية تغيَّر نظام أرض الفراعنة؛ فمن احتلال مؤقت وعَرَضي في نظر القانون إلى حماية موضوعة تشبه حق الفتح في أرض مباحة لا يملكها أحد"[3].

فكَّر بعض السياسيين المصريين في طريقة لتمثيل مصـــر في مـــؤتمر الصـــلح في باريس، فتقدم سعد باشا زغلول الوكيل المنتخب للجمعية التشريعية، وعمل علـــى تأليف جماعة لرفع صوت مصر للمطالبة بحقوقها أمام المؤتمر. وتـــألَّف الوفـــد في 13 نوفمبر/تشرين الثاني 1919، وكانت مهمته هي السعي بالطرق السلمية المشروعة إلى استقلال مصر استقلالاً تامًّا[4]. وفي 20 نوفمبر/تشرين الثاني 1918 طلـــب ســـعد

---

(1) الرافعي: **ثورة 1919**، ص 50.

(2) إسماعيل، حمادة: "مصر من 1918 حتى 1922"، في يونان لبيب رزق (تقـــديم ومراجعـــة): **المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر**، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2009، ص 421.

(3) يوسف: **سياسة الاحتلال**، ص 210.

(4) أبو ضابة، ملاك نجدي: **دور الأقباط في المجتمع المصري 1922-1952**، رسالة ماجستير غير منشورة الإسكندرية: كلية الآداب جامعة الإسكندرية، 2012، ص 44-48.

زغلول من قيادة الجيش البريطاني السماح له ولأعضاء الوفد بالسفر إلى إنجلتـــرا، إلا أن المندوب السامي رفض الترخيص لأعضاء الوفد. وفي 6 ديســـمبر/كـــانون الأول 1918 بعث الوفد رسالة إلى معتمدي الدول الأجنبية بتأليف الوفد وأهدافه، وموقف السلطة العسكرية منه، كما أرسل إلى الرئيس الأميركي ويلسون برقية يطلب فيهـــا تحقيق مساعي الوفد في السفر لحضور مؤتمر الصلح[1]. وكانت ثورة 1919، كمـــا يذكر الرافعي، "انتفاضة على مظالم السلطة العسكرية البريطانية طيلة سنوات الحرب، أربع سنوات متتالية، ضاع فيها كل حق، وأُهدرت فيها كل كرامة"[2].

قامت سلطات الاحتلال البريطاني أمام إصرار الوفد على السفر بالقبض على سعد زغلول ومحمد محمود وإسماعيل صدقي وحمد الباسل في يـــوم 8 مـــارس/آذار 1918، وأقلتهم باخرة إلى مالطة، منفًى لهم ومعتقلاً. وهكذا تجمعت معاناة مصـــر خلال الحرب، إلى جانب القبض على سعد زغلول والذين معه لتشتعل في مصـــر واحدة من أقوى ثورات القرن العشرين، ولترضخ السلطات البريطانية في النهايـــة وتُقرر الإفراج عن سعد زغلول ورفاقه في 7 أبريل/نيسان، وتسمح لهم بالسفر إلى أوروبا. وبينما كان الوفد يرتب بيته في باريس، جاءت الضربة التي كبّلت مصـــر، إذ اعترف الرئيس الأميركي ويلسون، في 19 أبريـــل/نيســـان 1919، بالحمايـــة البريطانية على مصر[3]. ولما فشلت مفاوضات سعد - ملنر، قـــررت الحكومـــة البريطانية مفاوضة عدلي يكن باشا الذي شكّل وزارته في أعقاب اســـتقالة وزارة توفيق نسيم، فيما عُرف بمفاوضات عدلي - كـــيرزون (16 يوليـــو/تمـــوز - 19 نوفمبر/تشرين الثاني 1921). ولما ووجهت الحكومة البريطانية بإصـــرار المصـــريين على الاستقلال التام، بادرت بإصدار تصريح 28 فبراير/شباط 1922، الذي أعطى مصر الاستقلال الاسمي في ظل الحماية البريطانية، لتدخل مصر مرحلة جديدة مـــن تاريخها كدولة مستقلة بإصدار دستور الوحدة الوطنية المصرية في 1923[4].

(1) إسماعيل: "مصر من 1918 حتى 1922"، ص 425، 426.

(2) الرافعي: **ثورة 1919**، ص 54.

(3) سالم: **مصر في الحرب**، ص 88.

(4) غازي، علي عفيفي علي: "دستور الوحدة الوطنية المصرية 1923"، **مجلة تبين**، العـــدد الثالث، شتاء 2013، ص 109-122.

قائمة المراجع

أولًا: وثائق منشورة

- ملنر: "**المسألة المصرية في دورها الأخير" مجموعة تشتمل على تقرير ملنر وأهم الردود الوطنية وغيرها كالمبين بالفهرست**، (دار البستاني للنشر والتوزيع، القاهرة، 1921).
- نجدة فتحي صفوة: **الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)، المجلـــد الأول 1914–1915**، (دار الساقي، بيروت، 1996).

ثانيًا: مذكرات منشورة

- سعد زغلول: **مذكرات سعد زغلول**، تحقيق عبد العظيم رمضان، (الهيئة المصرية العامـــة للكتاب، القاهرة، ج5، 1992، ج8، 1996).
- عباس حلمي الثاني: **"عهدي" مذكرات عباس حلمي الثاني خديو مصر الأخير**، ترجمة: جلال يحيى، (دار الشروق، القاهرة، 2006).
- عبد الرحمن الرافعي: **مذكراتي 1889–1951**، (دار أخبار اليوم، القاهرة، 1989).

ثالثًا: رسائل جامعية

- ملاك نجدي أبو ضابة: **دور الأقباط في المجتمع المصري 1922–1952**، رسالة ماجســـتير غير منشورة (الإسكندرية: كلية الآداب جامعة الإسكندرية، 2012).

رابعًا: كتب عربية ومعرَّبة

- إميل زيدان (تحرير): **الهلال في أربعين سنة 1892–1932**، (دار الهلال بمصر، القـــاهرة، 1932).
- حمادة إسماعيل: "مصر من 1918 حتى 1922"، في يونان لبيب رزق (تقديم ومراجعـــة): **المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر**، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2009).
- رءوف عباس: **الحركة العمَّالية في مصر 1899–1952**، تقديم: أحمد عزت عبد الكـــريم، (دار الكاتب العربـــي، القاهرة، 1967).
- سعيد إبراهيم ذو الفقار: **الإمبريالية البريطانية في مصر 1882–1914**، (أديشنز بليريال، باريس، 1988).
- سلامة موسى: **تربية سلامة موسى**، (مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2014).
- سلامة موسى: **الاشتراكية**، (كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، 2012).
- سليم قبعين: **اللآلِيء السَّنية في التهاني السلطانية**، (مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافـــة، القاهرة، 2013).
- عبد الرحمن الرافعي: **ثورة 1919، تاريخ مصر القومي مـــن 1914 إلى 1921**، (مكتبـــة النهضة المصرية، القاهرة، 1955).

- عبد اللطيف بن محمد الحميد: **البحر الأحمر والجزيرة العربية في الصراع العثماني – البريطاني خلال الحرب العالمية الأولى**، (مكتبة العبيكان، الرياض، 1994).
- علي لطفي: **التطور الاقتصادي، دراسة تحليلية لتاريخ أوروبا ومصر الاقتصادي**، (مكتبة عين شمس، القاهرة، 1983).
- لطيفة محمد سالم: **مصر في الحرب العالمية الأولى**، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1984).
- محمود متولي: **مصر والحياة الحزبية والنيابية قبل سنة 1952: دراسة تاريخية وثائقية**، (دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1980).
- مصطفى النحاس جبر يوسف: **سياسة الاحتلال تجاه الحركة الوطنية 1906–1914**، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1975).
- يونان لبيب رزق: "مصر تحت الهيمنة البريطانية 1882–1918"، في يونان لبيب رزق (تقديم ومراجعة): **المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر**، (المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2009).

مراجع بلغات أجنبية

- Derek Hopwood: **Egypt Poltics and Society 1945-1981**, (George Allen & Unwin, London, 1981).
- Holt. P. M: **Egypt and the fertile Crescent 1516-1922, A political History**, (Cornell university press, London, 1966).

مقالات في دوريات

- أحمد زكريا الشلق: "العلمانية والفكر المصري الحديث"، **المجلة التاريخية المصرية**، (المجلدان 30 و31، لسنة 1983–1984).
- سلامة موسى: "تربيتي العلمية"، **مجلة فكر وفن**، (العدد 42، لسنة 1985).
- سليم عزوز: "وانتصرنا في الحرب العالمية الأولى"، **صحيفة القدس العربي**، العدد 7928، (15 نوفمبر 2014).
- سهام الباشا: "شهداء مصريون في الحرب العالمية الأولى حاربوا بالسخرة ودفنوا في دول غربية.. ومصر لا تعرفهم منذ 94 عامًا"، **صحيفة اليوم السابع**، (27 أبريل/نيسان 2011).
- طارق الشيخ: "رحلة البحث عن حقوق شهداء مصر في الحرب العالمية الأولى"، **صحيفة الأهرام**، العدد 46627، (4 أغسطس/آب 2014).
- عاصم الدسوقي: "من أرشيف الحركة اليسارية في مصر 1919–1925"، **المجلة التاريخية المصرية**، (المجلدان 28 و29، لسنة 1981–1982).

- عبد الوهاب بكر: "العلاقات السرية بين الملك فؤاد والخديو عباس حلمي"، **المجلة التاريخية المصرية**، (المجلد 34، لسنة 1987).
- علي عفيفي علي غازي: "دستور الوحدة الوطنية المصرية 1923"، **مجلة تبين**، (العدد الثالث، شتاء 2013).
- علي محمد محمد بركات: "الفلاحون بين الثورة العرابية وثورة 1919"، **المجلة التاريخية المصرية**، (المجلد 22، لسنة 1975).
- لطيفة محمد سالم: "الصراع العسكري بين الدولة العثمانية وبريطانيا في مصر 1914-1918"، **المجلة التاريخية المصرية**، (المجلدان 28 و29، لسنة 1981-1982).
- مارسال إيزار: "من أرشيف اللجنة الدولية في الحرب العالمية الأولى: قصتنا في المنطقة العربية تبدأ من مصر"، **مجلة الإنساني**، (العدد 55، شتاء/ربيع 2013).
- محمد جمال الدين المصري: "الاحتلال والحركة الوطنية في مصر في أوائل القرن العشرين"، **المجلة التاريخية المصرية**، (المجلد 22، لسنة 1975).
- محمد حسني: "الحركة العمالية المصرية حتى 1952"، **مجلة أوراق اشتراكية**، (1 نوفمبر/تشرين الثاني 2009).
- محمد حسين هيكل: "إلى إخواني الشبان"، **مجلة السفور**، (4 أغسطس/آب 1916).
- محمود عزمي: "أعلام النهضة الحديثة 2- عباس حلمي الثاني"، **مجلة الكتاب**، (المجلد الأول، السنة الأولى، الجزء الثاني، ديسمبر/كانون الأول 1945).
- ميرفت أيوب: "ديون مصر على بلجيكا.. هل أصبحت في طي النسيان"، **صحيفة وطني**، (10 سبتمبر/أيلول 2014).
- يونان لبيب رزق: "وزارة الخارجية المصرية بين الإلغاء 1914 والإعادة 1922"، **المجلة التاريخية المصرية**، (المجلد 24، لسنة 1977).

الفصل الخامس

الحرب العالمية الأولى وتداعياتها في السودان مقاربة تحليلية

د. أحمد إبراهيم أبوشوك
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة قطر

كان حادث اغتيال ولي عهد النمسا في 28 يوليو 1914[1] الشرارة الأولى لاندلاع الحرب العالمية الأولى، التي ارتكزت أصلاً على مسببات أخرى عديدة، نذكر منها سباق التسلح الأوروبي لتقوية النفوذ الاستعماري في آسيا وإفريقيا، والصراع التوسعي في إقليم البلقان، والتحالفات السياسية والعسكرية في أوروبا وارتباطاتها بالمصالح الإمبريالية في الخارج. وفي محيط هذه البيئة الحاضنة لبواعث الحرب اتسعت دائرة المواجهات العسكرية داخل أوروبا، ثم تحولت تدريجياً إلى صدام عسكري بين دول الحلفاء - أو الوفاق الثلاثي (المملكة المتحدة، فرنسا، والإمبراطورية الروسية) وقوى المركز (الإمبراطورية الألمانية، والإمبراطورية النمساوية المجرية، والخلافة العثمانية، والمملكة البلغارية). وبموجب هذه التطورات

(1) هو حادث اغتيال الأرشيدوق فرانز فرديناند، ولي عرش الإمبراطورية النمساوية، في 28 يوليو 1914 بمدينة سراييفو، عاصمة البوسنة والهرسك، على أيدي مجموعة من حركة الشباب البوسنيين التي كانت تعمل تحت إشراف تنظيم اليد السوداء السرية الذي أسس عام 1911 في صربيا بهدف توحيد الدول التي كان الصربيون يعيشون فيها بما في ذلك البوسنة والهرسك.

دخلت بريطانيا الحرب العالمية الأولى في 4 أغسطس 1914، وأعلنت الخلافة العثمانية انضمامها إلى جانب ألمانيا في 2 نوفمبر 1914. فدخول الخلافة العثمانية الحرب إلى جانب دول المحور عقّد المشهد السياسي بالنسبة للحلفاء؛ لأنه أعطى الحرب بعداً دينياً خفيًّا، ارتبط بمشاعر المسلمين تجاه الخلافة العثمانية، علماً أن معظم الدول ذات الوجود الإسلامي كانت تخضع سياسياً لسيطرة بريطانيا وحلفائها. ولذلك أعلنت بريطانيا الحماية على مصر، وعزلت الخديوي عباس حلمي باشا بعد إعلان انضمامه للدولة العثمانية، ثم عينت الأمير حسين كامل باشا، سلطاناً على مصر. وكسباً لتأييد الشعوب الخاضعة لنفوذ الدولة العثمانية، وعدت بريطانيا وفرنسا بمنح تلك الشعوب حق تقرير مصيرها بعد انتهاء الحرب. وكان لهذه التطورات والوعود مجتمعةً انعكاساتها السياسية على السُّودان الإنجليزي - المصري (1898-1956)، الذي كان ينتمي صورياً إلى الخلافة العثمانية عن طريق مصر.

يحاول هذا البحث أن يقدم مقاربة تحليلية عن تداعيات الحرب العالمية الأولى في السُّودان، ومدى استجابة الزعماء السُّودانيين لإفرازاتها السياسية على المستويين المحلي والإقليمي، محلياً في ضوء علاقتهم بالسُّلطة المركزية في الخرطوم؛ وإقليمياً حسب انتماءاتهم للخلافة العثمانية من طرف، والكينونات العربية النازعة نحو تكوين خلافة ثانية من طرفٍ آخر. في ضوء هذا المشهد السياسي المزدوج تسعى هذه الدراسة إلى إبراز دور القوى الطائفية (الختمية والأنصار)، والقبلية المساندة لحكومة السُّودان (يقصد بها حكومة الاحتلال الإنجليزي - المصري في السودان) في الحرب، وفي المقابل تهدف إلى تحليل الدور الذي قام به السُّلطان علي دينار في دارفور، عندما أعلن مؤازرته للخلافة العثمانية، وتواصل مع حليفها الشريف أحمد السنوسي في ليبيا. ونسبق هذه المقاربات بتوطين للسودان بشقيه (السُّودان الإنجليزي - المصري ودارفور) داخل منظومة الصراعات الاستعمارية الأوروبية في إفريقيا عشية اندلاع الحرب العالمية الأولى وأثناءها.

السُّودان في خارطة الدول الاستعمارية

تمثل حادثة فشودة 1898 ذروة التنافس الاستعماري الأوروبي في السُّودان[1]؛ لأنها كادت تفضي إلى نشوب حرب بين بريطانيا وفرنسا؛ لأن كلاً منهما كانت تطمع في إحكام سيطرتها على بلاد السُّودان والساحل، تماهياً مع استراتيجيتها الاستعمارية في القارة السمراء. لكن هذا الصراع حُسم دبلوماسياً بين لندن وباريس، وبموجب ذلك أضحى السُّودان في قبضة الحكم الإنجليزي - المصري، الذي استمد حقه القانوني والتاريخي من احتلال مصر للسودان عام 1821[2]. بَيْدَ أن السُّودان عاد مرة أخرى إلى واجهة التنافس الاستعماري عشية اندلاع الحرب العالمية الأولى، حينما برز في الأفق مشروع الإمبراطورية الألمانية، الذي كان يهدف إلى توسيع المستعمرات الألمانية في وسط إفريقيا على حساب المستعمرات الإنجليزية والفرنسية والبلجيكية، من ثم ربطها بشرق إفريقيا. وكانت لهذه النظرة الألمانية أبعاد سياسية وتجارية، تتمثل في ربط ألمانيا بجنوب إفريقيا وأستراليا والهند، وتمكينها من تحجيم النفوذ البريطاني في المنطقة. ولتحقيق طرفٍ من هذه الاستراتيجيا الاستعمارية، كما سنرى لاحقاً، حاولت ألمانيا أن توظف التعاطف الإسلامي في السُّودان عن طريق الخلافة العثمانية؛ لزعزعة الوجود البريطاني في شرق إفريقيا والفرنسي في غربها[3]. وفي الوقت ذاته

---

(1) فشودة مدينة صغيرة، تقع على النيل الأبيض في مديرية أعالي النيل بجنوب السودان، ارتبط اسمها بالمواجهة العسكرية التي حدثت بين الجيشين البريطاني والفرنسي عام 1898 نتيجة لاحتلال الجيش الفرنسي القادم من غرب إفريقيا لمدينة فشودة في يوليو 1898. وقبل انفجار المواجهة العسكرية بين الطرفين، توصلت لندن وباريس إلى اتفاق دبلوماسي، يقضي بملكية بريطانيا لمنطقة أعالي النيل وانسحاب القوات الفرنسية من السودان. ومنذ ذلك التاريخ أضحت فشودة تابعة للحكومة الثنائية في السودان، وفي عام 1904 تمّ تعديل اسمها إلى كودوك.

(2) لمزيد من التفصيل انظر:

Spencer-Churchill, Winston, "The Fashoda Incident", in *The North American Review*, Vol. 167, No. 505, Dec., 1898, pp. 736-743; Cockfield, Jamie, "Germany and the Fashoda Crisis, 1898-99", *Central European History*, Vol. 16, No. 3, Sep., 1983, pp. 256-275.

(3) لمزيد من التفصيل انظر:

Townsend, Mary Evelyn, *The Rise and Fall of Germany's Colonial Empire, 1884-1918*, New York: Macmillan Co. 1930.

تنامت الأطماع الإيطالية في السُّودان بعد اتفاقية لندن لعام 1915م، والتي وعدت إيطاليا بامتيازات معينة في أوروبا، والبحر المتوسط وإفريقيا؛ وبموجب تلك الاتفاقية وطدت إيطاليا نفوذها في ليبيا وإريتريا والصومال، وأضحت تتطلع إلى التوسع في شرق أفريقيا على حساب ألمانيا، وتسعى لضم جوبا في جنوب السُّودان، وكسلا والتاكا في شرقه إلى دائرة نفوذها الاستعماري.

وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى حاولت ألمانيا أن تبث بعض الأخبار المناهضة لدول الحلفاء في السُّودان عن طريق مستعمراها في شرق إفريقيا. ونوثّق لذلك بالرسالة التي بعثها الحاكم البريطاني في يوغندا إلى الحاكم العام في السُّودان، معلماً إياه "أنَّ المسلمين الموجودين في الأراضي الألمانية قد أرسلوا الرسائل إلى السُّودانيين، يعدونهم بتكوين إمبراطورية إسلامية في شرق إفريقيا تحت الرعاية الألمانية"[1]. وإلى جانب خطر الدعاية الألمانية كان هناك التحدي العثماني الذي تجسد في فكرة الدعوة للجامعة الإسلامية وإعلان الجهاد ضد "الكفرة" وأعداء الإسلام. ولا مندوحة أن هذه الدعاية قد وجدت طريقها إلى الأراضي السُّودانية، وأسهمت في تحريض السُّلطان علي دينار لإعلان الجهاد ضد حكومة السُّودان وأنصارها. وبهذه الكيفية أثّرت المطامع الاستعمارية في تشكيل المواقف السياسية في السُّودان أثناء فترة الحرب العالمية الأولى، كما تركت أيضاً بصماتها على الرأي العام، المناصر للحلفاء والمعارض لهم. ويقودنا هذا الواقع إلى طرح حزمة من الأسئلة الجوهرية التي سنجيب عنها في مواقع مختلفة من هذا البحث: كيف تعاملت حكومة السُّودان مع القيادات السياسية والدينية في ظل التناقضات التي شهدتها فترة الحرب العالمية الأولى؟ وكيف وظّفت التناقضات السياسية المحلية لتعزز وحدة الجبهة الداخلية، لمواجهة التحديات التي شكلتها أطماع دول المحور في السُّودان؟

---

(1) رزق، يونان لبيب، **السُّودان في الحكم الثنائي الأول، 1899–1924**، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة 1976، ص 354.

حكومة السودان الثنائية والزعماء الدينيون والقبليون

بعد أن أعلنت بريطانيا انضمامها للحرب، قطع السير ونجت باشا[1]، حاكم عام السُّودان (1899-1916)، زيارته إلى بريطانيا وعاد إلى السُّودان في التاسع من سبتمبر 1914. وفور عودته أصدر منشوراً لتنظيم إجـــراءات العقـــود التجاريـــة والمعاملات المالية داخل السُّودان[2]، ومنشوراً آخر يُوجِّهُ "جميـــع رعايـــا ألمانيـــا والنمسا والمجر المقيمين في السُّودان أن يبادروا لتقييد أسمائهم بأكملها وأمـــاكن إقامتهم وصناعتهم أو أشغالهم ورتبهم أو أوصافهم في ديوان المديرية المقيمين فيها، أو التي يتفق وجودهم فيها"[3]. وفي 20 ديسمبر 1914 دعا ونجت باشـــا كبـــار ضباط الجيش المصريين والسُّودانيين وأعيان الخرطوم إلى اجتماع بســـرايا الحـــاكم العام، حيث قرأ عليهم نصَّ تعليمات الحماية البريطانية على مصر[4]، ومرسوم عزل الخديوي عباس حلمي الثاني، وتعيين حسين كامل سلطاناً على مصر[5]. وأعقـــب

(1) هو الجنرال السير فرانسيس ريجنالد ونجـــت (Francis Reginald Wingate)، ولـــد في بورت غلاسغو (Port Glasgow) في مقاطعة رينفرو شـــاير (Renfrewshire) درس في الأكاديمية العسكرية الملكية، تخرج فيها ملازماً بسلاح المدفعية الملكية عام 1880، عمل في الهند وعدن ثم التحق بالكتيبة الرابعة في الجيش المصري وترقى إلى مـــدير مخـــابرات الجيش المصري في القاهرة. اشترك في الغزو عام 1898، ثم عمل حاكماً عاما للســـودان بعد كتشنر (1899-1916) ثم عمل مندوبا ساميا في القـــاهرة (1917-1919). وبعـــد تقاعده شغل عددا من المناصب التشريفية السامية، توفى عام 1953.

(2) **غازيتة الحكومة السُّودانية**، 9 سبتمبر 1914، العدد 260، ص 135-137.

(3) **المصدر نفسه**، 18 ديسمبر 1914، العدد 261، ص 139-140.

(4) نشرت **غازيتة الحكومة السُّودانية** إعلان الحماية البريطانية على مصر حســـب الـــنص الآتي: "يعلن ناظر الخارجية لدي جلالة ملك بريطانيا العظمى أنه بالنظر إلى حالة الحرب التي سببها عمل تركيا قد وضعت بلاد مصر تحت حماية جلالته، وأصبحت مـــن الآن فصاعدا من البلاد المشمولة بالحماية البريطانية، وبذلك قد زالت سيادة تركيا علي مصر، وستتخذ حكومة جلالته كل التدابير اللازمة للدفاع عن مصر وحاية أهلها ومصالحها"، 18 ديسمبر 1914، العدد 269، ص 180.

(5) نشرت **غازيتة الحكومة السُّودانية** قرار عزل الخديوي عباس حلمي الاتي نصه: "يعلن نـــاظر الخارجية لدي جلالة ملك بريطانيا العظمى أنه بالنظر لإقدام سمو عباس حلمي باشا خديو مصر السابق على الانضمام لأعداء الملك، قد رأت حكومة جلالته خلعه عن منصب الخديوية، وقد عرض المنصب السامي مع لقب سلطان مصر على سمو الأمير حسين كامل باشا، أكبر الأمراء الموجودين من سلالة محمد علي، فقبله."، 19 ديسمبر 1914، العدد 270، ص 181.

ذلك بجولة تنويرية لعدد من مديريات السُّودان، شملت النيل الأزرق، والنيل الأبيض، وكسلا، حيث تأكد من ولاء الزعماء الدينيين والقبليين للحكومة، وشرح لهم السبب الذي دفع بريطانيا لدخول الحرب، وموقفها من الإسلام والمسلمين[1]. وفي نوفمبر 1914 دعا ونجت باشا علماء الدين البارزين، وزعماء الطرق الصوفية، ووجهاء المجتمع إلى اجتماع بسرايا الحاكم العام، وأوضح لهم بأن الحرب لم تكن ضد الإسلام والمسلمين، بل ضد ألمانيا وحلفائها الأتراك الذين يسعون في الأرض فساداً. وفي ذلك الاجتماع، أعلن الزعماء السُّودانيون ولاءهم للحكومة البريطانية: "نحن مع الحكومة الحالية قلباً وقالباً، ولا شأن لنا بتركيا التي تبعت مشورة ألمانيا، وأعلنت الحرب بالارتباط معها"[2]. وطُبع ذلك الإعلان في منشور، أضحى يُعرف بـ "سفر الولاء"[3]. وإلى جانب ذلك الإعلان انهالت التبرعات النقدية لجمعية الصليب الأحمر (8400 جنيه)، ولصندوق أمير الغال (1500 جنيه)، وأرسل بعض أصحاب الإبل (الجمال) وملاكها 1175 جملاً لمساعدة الحملات العسكرية في نقل المؤن والعتاد[4]. وأبدى الزعماء الدينيون والقبليون تأييدهم للحكومة والإمبراطورية البريطانية في حربها ضد الخلافة العثمانية وألمانيا، ثم وقّعوا على سفر الولاء الذي نشرته جريدة السُّودان تايمز في 4 أغسطس 1915م، تحت رعاية الحاكم والعام والسكرتير الإداري، والشيخ مصطفى المراغي (قاضي القضاة)، والشيخ الطيب هاشم (مفتي السُّودان)، والشيخ أبو القاسم أحمد هاشم (رئيس لجنة العلماء)، والسيِّد

---

(1) لمزيد من التفصيل انظر: محمد، ظاهر جاسم: **الختمية في السُّودان: تيار سياسي في بناء الدولة الحديثة والمعاصرة، دراسة وثائقية**، مركز جوهرة القدس التجاري، عمان 2008، ص 83-89.

(2) شبيكة، مكي الطيب: **السُّودان عبر القرون**، دار الجيل، بيروت، ط2، 1991، ص 85، نقلاً كتاب **سفر الولاء**.

(3) لمزيد من التفصيل انظر، شبيكة: **السُّودان عبر القرون**، ص 505-507؛ محمد: **الختمية في السُّودان**، ص 83-89.

(4) بشير، محمد عمر: **تاريخ الحركة الوطنية في السُّودان، 1900-1969**، دار الجيل، بيروت، ط2، 1987، ص 80.

علي الميرغني[1]، والشريف يوسف الهندي. وسفر الولاء هو عبارة عن مجموعة من العرائض والتلغرافات والرسائل التي بعثها بعض الزعماء الدينيين ورجال الإدارة الأهلية، وعلماء السُّودان إلى مكتب الحاكم العام بالخرطوم، معربين عن ولائهم لحكومة السُّودان وتأييدهم للإمبراطورية البريطانية في حربها ضد الدولة العثمانية وألمانيا[2]. وجاء في مقدمة هذا السفر التلغراف الذي بعثه السيِّد علي الميرغني من كسلا، والذي يُقرأ نصه هكذا:

"كسلا في 12 نوفمبر 1914... عطوفة الحاكم العام... إن الحزن والأسف لملء أفئدتنا لدخول تركيا في حرب ضد بريطانيا العظمى، الأمر الذي حصل بلا شك رغم وضد إرادة ورغبة السُّلطان وعقلاء دولته، والذي تكدر منه المسلمون في أربع جهات الأرض. ولا ريب أن العالم الإسلامي كله يصب مقته وسخطه الشديد على الدولة الألمانية الباغية المسببة لكل هذه الشرور والمصائب، والمنقادين إليها من رجال حكومة تركيا. إنّ عطف المسلمين على الدولة التركية لا لأنها تركيا، بل لاعتبارات أخرى معروفة، أما وقد ألحقت الحكومة التركية نفسها بالدولة الألمانية واتحدت بها حتى صارت كإحدى حكومات الاتحاد الجرماني، فلا ريب أنها فاقدة ذاك العطف الثمين الذي لا يقدر، وتلك خسارة عظمى عليها لا تقوم ولا تعوض.. هذا وإننا نرفع خالص ولائنا وإخلاصنا العظيمين جداً عنا، وعن الشعب السُّوداني كله لدولة بريطانيا العظمى، تلك الدولة العادلة التي تحترم ديننا، وتهتم بمصالحنا، والتي عمَّرت بلادنا بنعم العدل والعمران، والتي يظلل عدلها نحو التسعين مليوناً من إخوتنا

---

(1) هو السيد علي الميرغني (ت. 1968)، زعيم الطائفة الختمية في السُّودان، كانت اتصالات مع الشريف حسين قبل نشوب الحرب، وقد استغل الإنجليز هذه العلاقة، حيث كلفة اللورد ونجت، حاكم عام السُّودان آنذاك، بتجديد الاتصال مع الشريف حسين بشأن الثورة العربية، وكان السيد علي يكتب رسائله إلى الشريف حسين بإيحاء من الإنجليز وبإطلاعهم عليها. منحته الحكومة المصرية لقب الباشوية المصرية، ومنحه الإنجليز وساماً رفيعاً. لقب "سير"، فأصبح يُدعى السير علي الميرغني باشا. توفي في الخرطوم عام 1968. لمزيد من التفصيل انظر، نجدة فتحي صفوة، **الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية**، مجلد 1، ص 112؛ قاسم، عون الشريف، **موسوعة القبائل والأنساب في السُّودان وأشهر أسماء الأعلام والأماكن**، ج2، شركة أفرو قراف للطباعة والتغليف، الخرطوم، 1996.

(2) شبيكة: **السُّودان عبر القرون**، ص 505-508؛ محمد: **الختمية في السُّودان**، ص 85-89.

المسلمين بأنحاء الأرض، والتي هي المحبة حقاً للمسلمين والصديقة الحميمة لهم... علي ميرغني"[1].

ووصف ل. ب. جرديني، محرر جريدة السُّودان تايمز، الرسائل والتلغرافات الواردة في سفر الولاء أنها "دليل قاطع على سيادة المبادئ الأساسية للحكم البريطاني... رغم أنَّ السُّودان أحد أكثر المستعمرات البريطانية حداثة إلا أنه أثبت... من بين الدول القليلة المخلصة والمتفانية في سبيل خدمة أغراض الإمبراطورية"[2].

لكن بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ظهرت شريحة من المتعلمين السُّودانيين، مساندة لمطالب الثورة المصرية القاضية باستقلال وادي النيل من قبضة الاستعمار البريطاني. ويبدو أن موقف هذه الشريحة قد تأثر بالمظاهرات التي قادها بعض العاملين المصريين في بورتسودان وعطبرة والخرطوم منددين بالاستعمار البريطاني، ومطالبين باستقلال مصر والسُّودان. وفي الخرطوم وقَّع عدد من الضباط المصريين على مذكرة لتأييد استقلال مصر، ثم وزعوا منشوراً بعنوان "نداء لأهالي السُّودان"، مطالبين فيه باستقلال وادي النيل من الاستعمار البريطاني. واستجابة لهذه المظاهرات والنداءات ظهرت بعض الآراء السُّودانية المناهضة للاستعمار البريطاني، ونذكر على سبيل المثال موقف محمد الأمين هديب، أحد الضبَّاط السُّودانيين المتقاعدين بالمعاش، الذي ألقى خطبةً في مسجد أم درمان، مطالباً جميع السُّودانيين بالاتحاد مع المصريين لإجلاء البريطانيين؛ إلا أنَّ السُّلطات الأمنية ألقت عليه القبض ثم قدمته إلى محاكمة إيجازية حكمت عليه بالسجن لمدة ثلاث سنوات[3]. ويبدو أن حكومة الخرطوم قد أحست بموقف المتعلمين السُّودانيين المتعاطف مع الثورة المصرية؛ لذلك استثنتهم من الوفد الذي بُعث إلى لندن لتهنئة الملك والحلفاء بالانتصار في الحرب. وفرضت حكومة الخرطوم رقابة لصيقة على المصريين الموجودين في السُّودان أثناء فترة الحرب، وحظرت دخول الصحف والمجلات

---

(1) شبيكة: **السُّودان عبر القرون**، ص 506.

(2) بشير: **تاريخ الحركة الوطنية في السُّودان**، ص 81.

(3) نفس المرجع، ص 89.

الداعمة لخط الثورة المصرية، أو المروجة للدعاية التركية وأنشطة دول المحور[1].

السيّد علي الميرغني وفكرة الخلافة الهاشمية

ظهر السيِّد علي الميرغني حليفاً استراتيجياً لإدارة الحكـــم الثنـــائي (1898-1956) في السُّودان منذ عودته إلى الخرطوم عام 1901؛ إذ تمَّ استثمار نفوذه الديني والسياسي في مواجهة أنصار الإمام المهدي، الذين كانوا يشكلون تحـــديا حقيقيـــا للقوات الاستعمارية ودورها في استتباب الأمن والاستقرار في ربـــوع السُّـــودان. وبعد اندلاع الحرب العالمية الأولى وظفت الحكومة شبكة علاقات الميرغني الدينيـــة والاجتماعية لتعزيز النفوذ البريطاني في مواجهة التأثير العثماني؛ وذلك اســـتناداً إلى علاقته الشخصية بالشريف حسين بن علي[2] في مكة، واللورد كتشنر[3] المندوب

(1) انظر:
Warburg, Gabriel, *The Sudan under Wingate: Administration in the Anglo-Egyptian Sudan, 1899-1916*, Frank Cass & Co. LTD, 1971, pp. 106-108.

(2) هو الحسين بن علي بن محمد بن عبد المعين بن عون الحسني الهاشمي (1854-1931)، أول من نادى باستقلال الحجاز من دولة الخلافة العثمانية، وآخر من حكـــم مكـــة مـــن الأشراف. خلف عمه عبد الإله علي إمارة مكة عام 1908، ووقف في الحرب العالميـــة الأولى إلى جانب بريطانيا ضد الدولة العثمانية وألمانيا، وبمساندة بريطانيا أحكم قبضـــته على الحجاز، ونادى بتأسيس الخلافة العربية الهاشمية، وأعلن الثورة العربية الكبرى ضد العثمانيين، ثم وجه ابنه فيصل إلى بلاد الشام، فدخل سوريا واحتلها عنوة بمعاونة الجيش البريطاني، وسيطر ابنه عبد الله على عمان؛ إلا أن نفوذه لم يدم طـــويلاً في الحجـــاز، فسرعان ما قلب له البريطانيون ظهر المجن، وناصروا منافسه عبد العزيـــز آل ســـعود. وأخيراً نصحه أهل مكة بالتنازل لابنه علي، ثم أجبره البريطانيون على الإقامـــة بجزيـــر قبرص، حيث وافته المنية، ثم نقل جثمانه إلى فلسطين، ودفن في المسجد الأقصى. انظر الزركلي، خير الدين: **قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمســـتعربين والمستشرقين**، دار العلم للملايين (بيروت ط14، 1999، ج2، ص 49-50.

(3) هوراشيو هربرت كتشنر (Horatio Herbert Kitchener)، بدأ حياته العملية في الجيش البريطاني، وخدم في الهند، ومصر. قاد الجيش الإنجليزي المصري الذي غزا السُّودان عام 1896، وبعد سقوط المهدية عام 1898 عُين حاكماً عاماً على السُّودان لمدة عام واحد، وبعد ذلك انتدب إلى حرب البوير في جنوب وإفريقيا، ثم عمل مندوباً سامياً في مصر، وأخيراً ختم حياته العسكرية وزير للحربية. توفي عام 1916 إثر تحطم ســـفينة حربيـــة بريطانية كانت تقله إلى روسيا بواسطة لغم ألماني.

السامي البريطاني (1911-1914) في القاهرة، والسير ونجت باشا، حاكم عام السُّودان (1899-1916). وبدأ هذا التوظيف برسالة بعثها الميرغني إلى السير ونجت باشا، مقترحاً عليه تبني مشروع دولة عربية مستقلة عن تركيا يكون الحجاز مركزاً لها. وتثميناً لذلك الاقتراح بعث السير ونجت نسخة من مذكرة الميرغني إلى السير إدوارد جراي[1]، وزير الخارجية البريطانية، الذي استجاب لاقتراح الميرغني استجابةً جزئيةً، حسب البرقية التي بعثها إلى السير هنري مكماهون[2]، المندوب السامي البريطاني (1914-1916) في القاهرة، موضحاً فيها أن حكومة جلالة الملك تكلّف السير ونجت بأن يعلن عن سياستها الخارجية المتمثلة في إبقاء "الجزيرة العربية وما فيها من أماكن إسلامية دولة مستقلة ذات سيادة، شرطاً أساسياً من شروط أي اتفاق للسلام"[3]، وذلك دون تحديد لحدود الدولة المقترحة في ذلك الوقت، وأوضح أيضاً أن "مسألة الخلافة" من المسائل التي يجب أن يحسمها المسلمون أنفسهم، دون تدخل من أي جهة غير إسلامية، وألمح إلى أن الأماكن الشيعية المقدسة ستعامل معاملة منفصلة[4].

---

(1) هو السير إدوارد غراي (Sir Edward Grey) (1862-1933)، درس في جامعة أكسفورد وبدأ حياته السياسية نائباً في مجلس العموم عن حزب الأحرار، وبعدها عُين وزيرا للخارجية البريطانية (1905-1916) حيث قام بدور مهم في الحرب العالمية الأولى وخاصة في إقناع إيطاليا والولايات المتحدة الأميركية بدخول العرب العالمية إلى جانب الحلفاء. وبعد اعتزاله العمل في وزارة الخارجية، عُين سفيراً لبريطانيا في واشنطن (1919-1920). توفي عام 1933.

(2) هو السير هنري مكماهون (Sir Arthur Herny MacMahon) - (1862-1949)، درس بكلية ساندهرست العسكرية وتخرج منها ضابطاً عكسرياً عام 1883، ثم انتقل للعمل في حكومة الهند وتقلد العديد من المناصب. عين في أواخر العام 1914 مندوباً بريطانياً سامياً في القاهرة وكانت بينه والشريف الحسين مراسلات سياسية. كان من الشخصيات الفاعلة في مؤتمر الصلح بباريس.

(3) برقية من السير إدوارد غري إلى السير هنري مكماهون، (سري)، وزارة الخارجية، 14 أبريل 1915 (Public Record Office, London, FO 371/2486/44598)؛ صفوة، نجدة فتحي: (ترجمة وتحرير) **الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، (نجد والحجاز)، المجلد الأول: 1914-1915**، دار الساقي، بيروت/لندن 1996، ص 483.

(4) نفس المرجع.

كلّف السير ونجت السيِّد علي الميرغني بأن يقوم بنقل هذه الرسالة إلى الشريف حسين بن علي، وزوده أيضاً بنسخة من الإعلان السياسي البريطاني الخاص بالجزيرة العربية. وفي رسالة مؤرخة في 25 أبريل 1915م، شكر الميرغني ونجت باشا على السماح له بمعرفة نوايا بريطانيا وسياستها الخارجية تجاه الجزيرة العربية، وأكدَّ له أن الإعلان البريطاني الذي يرمي لقيام دولة مستقلة في الحجاز سيلقى ترحيباً واهتماماً بالغاً في العالم الإسلامي. وفي 5 مايو 1915، بعث الميرغني رسالة ثانية للحاكم العام، اقترح فيها طباعة الإعلان الرسمي الخاص بموقف بريطانيا تجاه قضية الخلافة، ثم أوصى بتوزيعه في الجزيرة العربية لتنوير الرأي العام. ويبدو أن الميرغني قد أشار في إحدى الرسائل المتبادلة مع الخارجية البريطانية إلى ترشيح الشريف حسين لمنصب الخلافة المقترحة؛ لأن الخطاب السري الصادر من وزارة الهند إلى الخارجية البريطانية يشير إلى اهتمام المستر تشمبرلين باقتراح الميرغني الذي يقضي بترشيح "كبير أشراف مكة" إلى رئاسة الخلافة العربية[1]. ويؤكد الخطاب أن وجهة النظر المشار إليها تتطابق مع وجهة نظر حكومة البريطانية، لكن وزارة الخارجية ومجلس اللوردات يفضلان أن يترك التعامل مع هذه القضية للمسلمين أنفسهم. ثم تساءل الخطاب عن المقصود بالإعلان الرسمي الذي يقترحه الميرغني، وطبيعة العون المادي والمعنوي الذي ينبغي أن يُقدم إلى الشريف حسين. وأخيراً خلص الخطاب إلى:

> **"أن سياسية حكومة صاحب الجلالة ينبغي أن تقوم على تشجيع شريف مكة بكل السبل والوسائل الممكنة، باستثناء التدخل العسكري، للقضاء على الهيمنة التركية، ومؤازرته ضد تركيا بصفته حاكم الحجاز المُستقل، وأن تبذل حكومة صاحبة الجلالة مساعيها الحميدة لدى القادة العرب الآخرين، ممن تستطيع**

(1) من وزارة الهند إلى وزارة الخارجية البريطانية، 24 يونيو 1915 (Public Record Office, London, FO 371/2486/84355)؛ نجدة فتحي صفوة، **الجزيرة العربية**، مج 1، ص 488. أوستن تشمبرلين (Austen Chamberlain)، هو سياسي بريطاني محافظ، شغل منصب وزير شؤون الهند في فترة الحرب العالمية الأولى، وبعد فترة عمله في الهند تقليد العديد من الحقائب الوزارية في لندن، مثل المالية والخارجية، والحرب. توفي عام 1937.

التأثير فيهم (كالسيِّد الإدريسي[1] وأمير نجد[2]) للاعتراف به حاكماً على الحجاز... وإن طالب بالخلافة بعد أن يكون قد نال استقلاله فسيكون بمقدور السيد علي الميرغني وغيره المناداة به خليفة"[3].

أما الشريف حسين فقد كان على تواصل مع السيِّد علي الميرغني، عبر وسائط مكتوبة وشفهية، لكن مكاتباته التي وقفنا عليها اتسمت بالغموض وعدم وضوح الرؤية في كثير من جوانبها. ويبدو أن السبب في ذلك أن الشريف لم يكن مطمئناً إلى السُّلطات البريطانية بشأن قضية الخلافة الإسلامية، ومنزعجاً من تراخيها في وضع حدود دولة الخلافة المقترحة. ونوثِّق لذلك بالرسالة السريَّة التي بعثها الشريف إلى الميرغني، قائلاً: "فيما يتعلق بالعرض الذي تشيرون إليه، لا يسعني إلا أن أسال الله أن يبارككم، ويكافئكم بالنيابة عن الإسلام والمسلمين. وقد أجريت الترتيبات مع حامله حول إرسالها، وكذلك بشأن إرسال رسائلكم في المستقبل"[4]. وفي رسالة أخرى إلى الميرغني يجدد الشريف مطالبته بترسيم الحدود،

---

(1) هو السيد محمد بن علي الإدريسي (1876-1922)، أصله من فاس، ولُد في صبيا، ودرس في الأزهر. نشر في صبيا طريقة جدَّة السيد أحمد بن إدريس، وبعد أن كثر أنصاره ثار على الشريف أحمد الخواجي حاكم صبيا فاستولى على البلدة سنة 1909، وامتلك عسير واتسع نطاق سلطانه وقاوم الأتراك. عقد السيد محمد الإدريسي معاهدة صداقة مع بريطانيا سنة 1915 واحتفظ بعلاقته الطيبة مع الإيطاليين. احتل الحديدة سنة 1920 لكن الإمام يحيى حميد الدين، إمام اليمن، استردها في السنة التالية. توفي السيد محمد بن علي الإدريسي سنة 1922، فخلفه ابنه علي الذي لم يستطع الحفاظ على ملك والده، فترك عسير سنة 1925، وفي السنة التي تلتها وضع عمه السيد حسن ما تبقى من عسير تحت حماية الملك عبد العزيز آل سعود الذي ضمها إلى مملكة الحجاز ونجد. انظر صفوة: **الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية**، مج 1، ص 69.

(2) يقصد بأمير نجد عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل بن تركي آل سعود (1876-1953)، ومؤسس المملكة العربية السعودية الحديثة.

(3) من وزارة الهند إلى وزارة الخارجية البريطانية (مرجع سابق)، انظر كذلك صفوة: **الجزيرة العربية**، مج1، ص: 488. المقصود بحكومة صاحب الجلالة الواردة في الاقتباس الحكومة البريطانية.

(4) من الشريف حسين إلى السيِّد علي الميرغني، د. ت، (Public Record Office, London, FO 141/461/1198)، انظر كذلك نجدة: **الجزيرة العربية**، مج 1، ص 527-528.

قائلاً: "لقد سبق أن أوضحت الحدود التي ستمكننا من المحافظة على أراضينا وكياننا. وكانت الإجابة على أن مناقشة موضوع الحدود مسألة سابقة لأوانها"[1]. وهنا يظهر بوضوح تماطل الحكومة البريطانية بشأن قضية الحدود؛ لأن مقترح إنشاء خلافة إسلامية بالجزيرة العربية لم يكن مقصوداً لذاته، بل كان وسيلة لفصل المنطقة العربية من الخلافة العثمانية، وخلق نوع من العداء بين الأتراك والعرب. ومن جانب آخر يوضِّح الشريف حاجته للدعم المالي من الحكومة البريطانية، قائلاً: "أما المسألة الثانية فهي أننا سنظل في حاجة إلى المال؛ لنستخدم جزءاً منه في النفقات التمهيدية، ونحتفظ بالجزء الأكبر حتى يحين الوقت بعون الله لتناول العملية برمتها بنجاح"[2]. وبعد هذا الإفصاح النسبي، يطلب الشريف من الميرغني الالتزام بالسرية، قائلاً: "هذه هي خلاصة ما أود أن أبلغكم به، وأشدد على أملي في أنكم ستبقونه في طي الكتمان، وستتصرفون بمنتهى الحكمة والهدوء. وإني اعتمد على رسولكم، ولن اتخذ أية خطوات أخرى في تعاملي مع أصدقائنا إلا عن طريقكم، وسأقتصر في اتصالاتي ومعاملاتي معكم، وأنا على ثقة كاملة بالله وبصدق إيماننا"[3].

وإلى جانب مشروع الخلافة العربية المقترحة تشير المراسلات المتبادلة بين الميرغني والشريف إلى أن الأول كان من المحرضين على إعلان الثورة العربية ضد الخلافة العثمانية، باعتبارها أداة لتحقيق الخلافة الهاشمية، واستقلال العرب من "نير الحكم التركي". ويتجلى ذلك في خطابه الذي بعثه إلى الشريف بتاريخ 17 نوفمبر 1915م، قائلاً:

> **"بريطانيا العظمي، عقدت العزم أن تساعد العرب على استعادة حكمهم المغتصب وسلطانهم، وعلى استرداد استقلالهم المفقود. لقد أضاع العرب هذا منذ عدة قرون بسبب عسف الأتراك ومساوئ حكمهم، وها قد سنحت**

---

(1) من الشريف حسين إلى السيِّد علي الميرغني (نفس المرجع)، انظر كذلك نجدة: **الجزيرة العربية**، مج1، ص 531-534.

(2) نفس المرجع.

(3) نفس المرجع.

الفرصة الآن لاستعادة كل ما ضاع [...] والوقت الراهن هو أنسب القوميين ومطامعهم الاستقلالية، وليجددوا أمجاد أسلافهم العظماء. وليس عليهم الآن إلا أن يغتنموا الفرصة السانحة في هذا الظرف الملائم جداً، ويثوروا كما يثور العربـــي حقاً، ويهتبلوا الفرصة التي تتاح لهم بعد مضي هذه القرون العديدة. وكيف يمكن للعرب أن يثوروا إذا لم يحركهم ويتولى قيادتهم الرجل المناســـب، والمنحدر من أشرف وأنبل سلالة مقدمة من قـــريش، الـــذي يســـتطيعون أن يجتمعوا حول رايته، ويستردوا حقوقهم المغصوبة"[1].

وفي موقع آخر من هذا الخطاب يؤكد الميرغني عزيمة بريطانيا على مســـاعدة الشريف، قائلاً: "إنه لأمر صحيح أنّ بريطانيا العظمى بالتعاون مع حلفائها الكبار، ترغب في قيام حكومة عربية قرشية، وأن تحل محل هذا العرش التركـــي المتـــداعي الذي طفح كيل مظالمه وعسفه. وهم يرغبون في أن تنهض هذه الحكومة القرشية، وتؤسس مثلما كانت قبل عدة قرون، وأن تسير يداً بيد مع الحضـــارة الحديثـــة، وتنهض بالعرب الكرام إلى قمة الرقي والرخاء"[2]. يعكس هذا الخطاب من زاوية أخرى أنّ الشريف كان يحتاج إلى ضمانات سياسية من البريطانيين لإعلان الثـــورة العربية الكبرى، وأنّ الميرغني قد اتصل بالسُّلطات البريطانية، وحصل منـــها علـــى بعض التأكيدات الشفوية التي نقلها إلى الشريف حسين في هذا الخطاب قبل خمسة أشهر من إعلان الثورة على الخلافة العثمانية، دون أن يدرك الشريفان أن وعـــود البريطانيين كانت وعوداً مرحلية؛ لتحقيق استراتيجيتهم المتمثلة في القضـــاء علـــى الخلافة العثمانية، وتوزيع أملاكها حسبما في جاء في اتفاقيات سايكس - بيكـــو 1916، ووعد بلفور 1917.

وواضح من هذه النصوص المختارة أن السيِّد علي الميرغني والشريف حســـين كانا يتفاعلان مع ظاهرة السياسة البريطانية التي فرضتها ظـــروف الحـــرب، دون إدراك للاستراتيجيات التي كانت تُخطط في صالونات السياسة البريطانية بســـرية

(1) من السيِّد علي الميرغني إلى الشريف حســـين، 1915/11/17 (Public Record Office, London, FO 882/18)، انظر كذلك صفوة: (ترجمة وتحرير)، **الجزيـــرة العربيـــة في الوثائق البريطانية**، مج 1، ص 605. النص الكامل للخطاب، ص 605-607.

(2) صفوة: **الجزيرة العربية**، نفس المرجع.

تامة. لذلك عندما كثر إلحاح الميرغني بشأن دولة الخلافة العربية وتحديد حـــدودها ومعالمها حاولت المخابرات البريطانية عزله تدريجياً عن موضوع الحجاز، بعـــد أن وضعته في موقفٍ معارضٍ للوجود المصري في السُّودان[1]. ويتجلى هـــذا المقصـــد الاستراتيجي في الخطاب الذي بعثه الكولونيل كلايتون[2]، مـــدير الاســـتخبارات البريطانية في مصر، حاثاً السير ونجت باشا على أن يتواصل مباشرة مع الشـــريف دون وسيط؛ إلا أن ونجت باشا أوضح إليه أن الاتصال المباشر يقتضي رفع الحصار المفروض على ميناء جدة، وبما أن الحصار عمل اســـتراتيجي فينبغـــي اســـتمرارية الاتصال بالشريف عبر الميرغني. وفي النهاية فالقضية ليست مرتبطة بأهمية الوســـيط أو عدمه، وإنما هي في المقام الأول مرتبطة بسياسة الحكومة البريطانية، الرافضـــة في

(1) حمد، محمد أبو القاسم حاج: **السُّودان: المأزق التاريخي وآفاق المســـتقبل**، دار ابـــن حزم، بيروت، ط2، مج 2، ص 372–373. لمزيد من التفصيل عن عـــرائض ورســـائل الولاء التي بعثها الزعماء السُّودانيون إلى مكتب الحاكم العام بالخرطوم، انظر أرشـــيف السُّودان بجامعة درم (SAD):

Al-Sharīf Yūsuf wad al-Hindī, Expressing Loyalty to the Government (SAD, 192/2/66-67); F.R.W. to Clayton, Fitzgerald, Cheetham, and Grenfell re the support and loyalty from the Sudanese and various religious groups (SAD, 192/2/68-71,75-76,77-78,81-82,158-161); Copy of F.R.W.'s speech to the *`ulamā`*, (SAD, 192/2/52-55); Declaration of loyalty to Britain by the *`ulamā`* and religious *shaikhs* of White Nile Province and the *nāẓirs*and *`umdahs* of the Gimmeh tribe (SAD, 192/2/128-129); Pledges of loyalty by Sayyid `Alī al-Mīrghanī, the Grand Muftī and religious *shaikhs* (SAD, 192/2/238-242); Statement of loyalty and support for the British cause from the people of the Sudan (copy from *The Sudan Times*), (SAD, 193/4/15-16); Declaration of loyalty to the British Government by the *`ulamā`*, *shaikhs* and notables of the Sudan (SAD, 193/4/68-69).

(2) غلبرت فلكنغهام كلايتون (Gilbert Falkingham Clayton) – (1875–1929)، ضابط مخابرات بريطاني وإداري عسكري، عمل في حكومة السُّودان، وبعد نشوب الحـــرب العالمية الأولى أصبح وكيلاً للسودان، وضابط استخبارات في القاهرة. أسهم في إشعال الثورة العربية في المنطقة ومارس العمل الإداري في فلسطين والجزيرة العربية والعـــراق. أشرف أيضاً على مفاوضات تسوية الحدود الإدارية والسياسية بين إســـرائيل والأردن وسوريا والمملكة العربية السعودية والعراق. صـــفوة: **الجزيـــرة العربيـــة في الوثـــائق البريطانية**، مج 2، ص 87–88.

قرارة نفسها لمشروع الخلافة العربية تحت إمرة الشريف حسين، أو غيره. ولـــذلك نلحظ أن بريطانيا بعد الحرب مالت إلى دعم الشيخ عبد العزيز آل سعود، حـــاكم نجد آنذاك، وبناءً على ذلك أجبرت الشريف حسين وأفراد أسرته علـــى مغـــادرة الحجاز والتوجه إلى الأردن، ممهدةً الطريق لابن سعود؛ ليحكم قبضته على الحجاز ونجد وملحقاتهما، ثم يوحدهما تحت اسم المملكة العربية السعودية عام 1932.

على الصعيد المحلي، حاولت حكومة السُّودان أن تستغل نفوذ الســيِّد علـــي الميرغني السياسي والديني في خدمة قضيتين أفرزتهما الحرب العالمية الأولى. تـــرتبط القضية الأولى بتأليب الرأي العام السُّوداني ضد الدولة العثمانية، بينما تتمثل القضية الثانية في طمأنة السُّودانيين بأن الحرب ضد تركيا وألمانيا لم تكن حرباً ضد الإسلام والمسلمين. وكما أشرنا من قبل فإن الميرغني كان في مقدمة الزعماء الذين دعـــاهم السير ونجت لاجتماع سرايا الحاكم العام التنويري، الذي عُقد في 8 نوفمبر 1914، بهدف تأييد السُّودانيين لمعسكر الحلفاء، فكان موقف الميرغني موقفاً إيجابياً من تلك الدعوة، بدليل توقيعه على سفر الولاء الذي تُقرأ إحدى فقراته هكذا:

> **"نحن آسفون للغاية وقلوبنا مليئة بالحزن لعمل تركيا بالاشتراك في الحرب ضد بريطانيا... لقد ضحَّت ألمانيا بتركيا على مـــذبح أطماعهـــا وغاياهـــا الـــتي ستنتهي حتماً بدمار كامل ومؤكد. إنَّ هذه الحرب هي ضد مصلحة المسلمين، ولا علاقة لها بالدين بأي شكل من الأشكال، وعلى العكـــس فـــإنَّ الإيمـــان الإسلامي الصحيح يفرض على المؤمنين أن يكونوا أوفياء ومخلصين لالتزاماهم، وفي مثالنا هذا لم تعد تركيا مخلصـــة لوعودهـــا وتأكيـــداهّا بأنهـــا ســـتبقى محايدة"[1].**

وإلى جانب هذا التأييد والولاء المطلق للحلفاء، سنرى لاحقاً كيف تمّ توظيف السيِّد علي الميرغني في إقناع السُّلطان علي دينار بالعدول عـــن موقفـــه المعـــارض لبريطانيا، وكيف نُصِّب رئيساً لوفد السُّودان الذي زار لندن في يوليو 1919 لتقديم التهنئة للملك جورج الخامس بمناسبة انتصار الحلفاء في الحرب، ولتحديد شـــروط الولاء والطاعة لبريطانيا العظمى.

---

(1) محمد، الختمية في السُّودان، ص 86.

السيِّد عبد الرحمن المهدي وتجاوز العزلة السياسية

بعد واقعة كرري عام 1898 اتخذت الحكومة الثنائية سياسة متشددة تجاه أنصار المهدية، حيث عاقبت بعضهم بالسجن والنفي، ووضعت آخرين تحت الإقامة الجبرية والرقابة الأمنية، ونجدها من جانب آخر قد استوعبت فريقا ثالثا في مؤسسات الإدارة الأهلية[1]. أما السيِّد عبد الرحمن المهدي فظل محل تشكك حكومة السُّودان، التي فرضت عليه رقابة لصيقة في محل إقامته بأم درمان، وحددت مسارات حركته السياسية والاجتماعية، وساندت نفوذ خصومه التقليديين في العاصمة الخرطوم والأقاليم. ولم يتبدل هذا الوضع إلا بعد نشوب الحرب العالمية الأولى، عندما شعرت الحكومة بأنها في حاجة لتأييد السيِّد عبد الرحمن المهدي الذي يضمر عداءً تقليدياً موروثاً للأتراك العثمانيين؛ فضلاً عن أنه صاحب نفوذ في دارفور التي يسيطر عليها السُّلطان علي دينار، المناصر للخلافة العثمانية. في ظل هذه الظروف السياسية المعقدة سمح السير ونجت باشا، حاكم عام السُّودان آنذاك، للسيد عبد الرحمن المهدي بأن يقوم بزيارة تنويرية في منطقة الجزيرة لضمان تأييد أنصار المهدي لبريطانيا في حربها ضد ألمانيا والدولة العثمانية. خرج المهدي متدثراً بعباءة العداء لاستانبول، وأجندة خاصة به تمثلت في إنشاء شبكة من الوكلاء (أو المناديب) المحليين في أماكن ثقله السياسي؛ ليكونوا حلقة وصل بينه وجماهير الأنصار المنتشرين في المدن والأرياف والبوادي. إلا أن هذا الانفراج السياسي واجه معارضة من بعض الإداريين البريطانيين الذين وصفوه بأنه "لعب بالنار"؛ لأنهم لا يرون فرقاً بين المهدية القديمة والمهدية الجديدة، كما يسميها أ. ف. ولس (A. F. Willis)، مدير قلم المخابرات آنذاك، فكلاهما ينطلق من رمزية الجزيرة أبا، والشعائر والتقاليد المصاحبة لفكرة المهدي المنتظر. تمّ تجاوز هذا الصراع الديواني نسبياً عندما اندلعت الثورة المصرية في مارس 1919، حيث اتفق الرأي البريطاني في الخرطوم على إرسال وفد سوداني إلى لندن لتهنئة الملك جورج الخامس بالانتصار في الحرب، لكن الهدف الأساس من ذلك كان يتبلور في بعث رسالة للمصريين بأن السُّودان كيان

---

(1) لمزيد من التفصيل انظر، إبراهيم، حسن أحمد: **الإمام عبد الرحمن المهدي: دراسة حول المهدية المهدية الجديدة ودور الإمام عبد الرحمن المهدي في الحركة الوطنية السُّودانية، 1898–1934**، جامعة الأحفاد للبنات، أمدرمان 1988.

سياسي مستقل عن مصر، وأهل السُّودان هم المناط بهم تحديد طبيعة العلاقة مع دولتي الحكم الثنائي، وتحديد استقلال قطرهم مستقبلاً. وقد كان السيِّد عبد الرحمن المهدي من ضمن أعضاء الوفد السُّوداني، فضلاً عن أنه استثمر المناسبة، وأهدى سيف والده إلى الملك جورج الخامس، كما سنرى لاحقاً، معلناً ولاءه للمستعمر البريطاني. ولذلك يعتبر البروفسور حسن أحمد إبراهيم أن زيارة لندن ومخرجاتها كانت "بمثابة اعتراف رسمي وفعلي بالمهدية كمؤسسة دعويَّة، والإمام عبد الرحمن زعيماً لها"[1]؛ لذلك كانت هذه الزيارة تصب في مصلحة المهدي على المدى البعيد، بدليل أن سلاطين باشا[2] عندما زار السُّودان عام 1926 انتقد مُنفذيها، وانتقد السيِّد عبد الرحمن قائلاً: "أنه لا يمثل إلا المهدية المتعصبة التي تشكل خطراً حقيقياً على الحكومة"، ثم وصف عملية تقديم

(1) إبراهيم، **الإمام عبد الرحمن المهدي**، ص 80. يعلّق السيِّد عبد الرحمن على زيارة الوفد السُّوداني إلى لندن في كتاب **جهاد في سبيل الاستقلال**، قائلاً: "وفي عام 1919 دعت الحكومة البريطانية وفداً من زعماء السُّودان وأعيانه؛ لزيارة لندن لتهنئة الملك [جورج الخامس] بالنصر في الحرب العظمى، وسررت بهذه الدعوة؛ لأنها تنطوي على نوع من الاعتراف بالمكانة التي كان خصومي يعملون جاهدين لإنكارها، واعتقدت أن تلك الزيارة ستتيح لي فرصة أوضح فيها للإنجليز في بلادهم أن الحرب التي كانت بيننا وبينهم انتهت منذ سنين، ورغم ذلك مازلت أعامل من وكلائهم في السُّودان وكأنها قائمة، وأن من حقي أن أعيش في وطني كمواطن له من الحقوق ما لسائر السُّودانيين. وفي لندن قابلت ملك الإنجليز، وقلت له حديثا في المعنى المتقدم، وقدمت له سيفا كهدية ورمزا للصداقة، وقبل الملك السيف، ثم تفضل بإعادته إلي قائلا: "احتفظ بهذا السيف لك ولأولادك"، وعلى الرغم من أن الملك أبدى لي إحساساً طيباً؛ إلا أنني لما رجعت إلى السُّودان لم أجد تغييراً في مسلك الحكومة نحوي، وقد قال أحد كبار الإنجليز في تبرير تحديهم لرغبة ملكهم: أن مقابلتي للملك كانت خصوصية لم ترتب عن طريق حكومة السُّودان، ولذلك فهي لا تتقيد بنتائجها".

(2) هو رودلف سلاطين (Rudolf Carl von Slatin) المعروف بسلاطين باشا، من أصل نمساوي، جاء إلى السُّودان سائحاً عام 1974. عينه غرودن باشا مفتشاً للمالية عام 1979، ثم حاكماً على دارفور عام 1881، وبعد أن حرر الأنصار دارفور عام 1884، أعلن سلاطين إسلامه تقية، وانضم إلى صفوف الأنصار المحاربة، وأطلق عليه المهدي اسم عبد القادر سلاطين. ظل حبيس أمدرمان إلى أن هرب إلى مصر عام 1895 وألف كتابه المعروف بالسيف والنهار. عاد إلى السُّودان مع الجيش الإنجليزي المصري الغازي عام 1898، حيث عينه ونجت باشا في وظيفة مفتش عام الضرائب والشؤون الدينية. استقال من منصبة بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى لأن النمسا كانت ضمن دول المحور. توفي في النمسا عام 1933. هل، 1967، ص 339-340.

السيف للملك بأنها "خطأ بيِّن وعرض مسرحي"[1]. وأثناء فترة الحرب وبعدها حقق السيِّد عبد الرحمن حزمة من الإنجازات، نذكر منها، أنه اقنع حكومة السُّودان برفع الحظر عن راتب الإمام المهدي والسماح للأنصار بتلاوته من أجل التعبد، ثم حصل على تصديق بإقامة مسجد في أم درمان لأداء الصلوات الجامعة والشعائر الدينية الأخرى. وبهذه الكيفية مهدت تناقضات الحرب العالمية الأولى الطريق للسيد عبد الرحمن المهدي ليتبنى سياسة عملية مع حكومة السُّودان، مكنته من أن يتصدر زعامة الأنصار السياسية والروحية، وأن يظهر في الأفق السياسي منافساً حقيقياً للسيد علي الميرغني، الذي دفعه التقارب بين المهدي وحكومة السُّودان إلى مساندة دعاة الاتحاد مع مصر[2].

السُّلطان علي دينار (1860-1916) ومناصرة الخلافة العثمانية

بعد هزيمة السُّلطان إبراهيم قرض في واقعة منواشي عام 1874 تمّ القضاء على سلطنة دارفور، وضمها رسمياً إلى إدارة الحكم التركي - المصري في السُّودان، وبعد عشر سنوات من ذلك التاريخ أضحت دارفور جزءاً من الدولة المهدية (1885-1898). وعندما سيطرت المهدية على دارفور كان عمر الأمير علي دينار بن السُّلطان زكريا بن السُّلطان محمد فضل قد تجاوز أربعة وعشرين عاماً؛ إلا أن أنصار المهدي لم يضعوه في منصب قيادي في عمالة دارفور؛ ولذلك أضحى أقل ولاء للمهدية، الأمر الذي جعل الخليفة يتشكك في سلوكه السياسي، ثم يستدعيه إلى أم درمان عام 1897، حيث فرض عليه إقامة شبه جبرية. وفي اليوم السابق لمعركة كرري (2 سبتمبر 1898) انتهز الأمير علي دينار حالة الارتباك السياسي، فانسحب من أرض المعركة، متجهاً إلى الفاشر، حاضرة عرش أجداده المسلوب. وبعد وصوله الفاشر أعلن نفسه سلطاناً على دارفور، فبايعه أعيان القبائل. وبهذا الإعلان أضحت دارفور خارج حدود دولة الحكم

---

(1) إبراهيم: **الإمام عبد الرحمن المهدي**، ص 79.

(2) لمزيد من التفصيل انظر، إبراهيم: **الإمام عبد الرحمن المهدي**، ص 67-88؛ حامد: **استقلال السُّودان بين الواقعية والرومانسية**، شركة مطابع السُّودان للعملة المحدودة، الخرطوم 2005، ص 59-70. انظر أيضاً مارتن دالي:

Daly, M. W., *Empire on the Nile: The Anglo-Egyptian Sudan, 1898-1934*, Cambridge University Press2003 , pp. 278-287.

الثنائي (1898-1956)، التي اعترفت بالسُّلطان علي دينار حاكماً مستقلاً على دارفور، شريطة أن يدفع ضريبة سنوية قدرها خمسمائة ريال مجيدي، إشعاراً بولائه للسلطة الحاكمة في الخرطوم[1]. وظل ذلك التقليد قائماً بين الطرفين إلى 1909م، وبعدها بدأ السُّلطان علي دينار يتشكك تدريجياً في نوايا حكومة السُّودان تجاه سلطنته في دارفور، ومن بين الأسباب الكامنة وراء ذلك التشكك عدم تعاون الحكومة معه عندما سيطرت القوات الفرنسية على دار تاما، ودار قمر، ودار سيلا التي كانت تتبع تاريخياً إلى دارفور، فضلاً عن شعوره بروح الاستعلاء في خطابات سلاطين باشا الذي كان يمثل حلقة وصل بينه وحكومة الخرطوم[2]. ونلحظ روح الاستعلاء هذه في فقرات خطاب سلاطين الصادر في 8 يناير 1914:

"إنني قد كتبت لكم مرات عديدة، وصرحت لكم أنني كنت أول العاملين لإعادة الراحة إلى هذه البلاد وإعطاء الحرية والأمان لأهلها. وإطلاق أعناقهم من قيود الظلم والاستبداد. وكيف أنني كنت الواسطة لأجل تمتعكم بنعمة العودة إلى بلاد آبائكم وأجدادكم؛ لتحكموا بالعدل والحكمة... وقد ذكرت لكم مراراً أن الحكومة لا تزال على عهدها القديم معكم، تحفظ لكم أصدق العواطف، وتميل إلى مساعدتكم ومعاونتكم بكل وسيلة ممكنة، وكان الأولى بكم أن تثقوا بما قلته لكم مراراً، وأقوله الآن؛ لأن غايتي، كما يعلم الله، هي راحتكم ودوام مجدكم"[3].

---

(1) شبيكة: **السُّودان عبر القرون**، ص 509-511.

(2) انظر:

Richard Hill, *Slatin Pasha*, Oxford University Press, 1965, pp. 93-97.

(3) شبيكة: **السُّودان عبر القرون**، ص 513. توجد في أرشيف السُّودان بجامعة درم (SAD) العديد من المكاتبات التي تشير على عدم رضا حكومة السُّودان عن تصرفات علي دينار في كثير من القضايا المرتبطة بإدارته المحلية لدارفور، ونزاعه مع الفرنسيين. لمزيد من التفصيل راجع الوثائق أدناه بأرشيف السُّودان:

Slatin re `Alī Dīnār's retaliation against the French (SAD, 290/2/75-76), February 1910; Slatin re `Alī Dīnār's failure to submit his tribute (SAD, 296/1/87-89), April 1910; Slatin re continuing tension between `Alī Dīnār and the French along the Darfur frontier (SAD, 296/1/242), April 1910; Clayton re the prospect of trouble between `Alī Dīnār and the French on the Wadai-Darfur frontier (SAD, 297/1/102,183-184), July 1910; Slatin re allegations by the French against `Alī Dīnār of cruelty, intolerance and oppression of travellers and of the frontier tribes (SAD, 183/2/42-44), November 1912.

إلى جانب التدخل الفرنسي كان السُّلطان علي دينار يشكو من مساندة الحكومة لخصمه الشيخ موسى مادبو، زعيم الرزيقات في جنوب دارفور؛ والسماح لمجموعات معارضة لحكمه من قبيلة الزيادية بالاستقرار في كردفان؛ وعدم اتخاذ الحكومة لأي إجراء عادل تجاه تعدي قبيلة الكبابيش على دارفور؛ فضلاً عن حظره من شراء احتياجاته العسكرية (الأسلحة والجبخانة) من الحجاز أو الدول المجاورة.

وظلت هذه الأسباب حجر عثرة أمام تحسن العلاقات السياسية والدبلوماسية بين الفاشر والخرطوم إلى أن اندلعت الحرب العالمية الأولى، وأعلنت الخلافة العثمانية انضمامها إلى دول المحور في نوفمبر 1914، وفور ذلك الإعلان أصدر ونجت باشا خطاباً استباقياً إلى السُّلطان علي دينار، جاء فيه:

> **"أما بعد، فلا بد أنه بلغكم أن دولة إنجلترا العظمى ودول أوروبا الأخرى تحارب الآن الدولة الألمانية التي قد مزقت جميع شرائع الأمم ومعاهداتها، ولم ترع حرمة العهود [...] وليكن بعلمك أن أخبار هذه الحرب الحقيقية تنشرها جريدة السُّودان، التي تظهر في الخرطوم، والتي على ما أظن تصلكم في دارفور. فإذا بلغكم من بعض الناس الجهلاء الذين لا يعرفون الحقائق، أو المفسدين الذين يحبون نشر أخبار كاذبة، أخباراً لا تنطبق على ما تنشره الجريدة المذكورة، فإني أوصيكم بأن تأمروا موظفيكم بالقبض على هؤلاء الكاذبين، وتبقوهم عندكم تحت الرقابة، أو ترسلوهم للحكومة. ثم أنه لا بد سيبلغكم خبر وصول جيوش إنجليزية كبيرة إلى مصر، فهذا الخبر صحيح، ولكن لا علاقة له بالسُّودان على الإطلاق؛ لأن السُّودان متمتع الآن بالراحة والطمأنينة بفضل الله تعالى"[1].**

كان هذا الخطاب أول إعلام رسمي يفيد السُّلطان علي دينار باندلاع الحرب العالمية الأولى؛ لكن شائعات الحرب وصلت إليه من مصادر أخرى، أفادت بأن الحلفاء على وشك الانهيار، وأن البريطانيين سيخرجون من السُّودان، وعلى السُّلطان أن يتقدم شرقاً، ويقيم على أنقاض دولتهم دولة إسلامية. لا جدال أن هذه الشائعات قد وجدت آذاناً صاغية عند السُّلطان علي دينار، الذي لم يكن على وفاق مع حكومة الخرطوم. وبناءً على هذه التصورات الذهنية بعث السُّلطان علي دينار خطاباً إلى السُّلطان العثماني محمد رشاد، قائلاً:

---

(1) شبيكة: **السُّودان عبر القرون**، ص 515-516.

"وقد أحاطت أيدي النصارى الكُفّار بالمسلمين من يميننا، وشمالنا، وورائنا، وأمامنا، وجازوا ديار المسلمين كلها، ممالك البعض سلطانها مقتول، والبعض سلطانها مأسور، والبعض سلطانها مقهور، يلعبون بأيديهم كالعصفور، ماعدا بلادنا في دارفور قد حفظها الله من ظلمات الكُفّار. والداعي أنهم حالوا بيننا وبين الحرمين الشريفين، اللذين حرسهما الله، ومنحكم خدمتهما. ولم نر حيلة نتوسل بها لأداء الفرض الذي فرضه الله علينا من حج بيته الحرام، وزيارة نبيه عليه الصلاة والسلام. وانجبرنا على مواصلة دولة الإنجليز، وصرنا نعاملهم تارة بالمشاحنة معهم، وتارة رغبة في حفظ إيماننا وإسلامنا في بلادنا"[1].

تزامن هذا الخطاب مع إعلان الخلافة العثمانية للجهاد المقدس ضد أعداء الإسلام، ونُصْرَة دولة الخلافة الإسلامية عليهم. ومن بين المخاطبين في هذا الشأن كان السُّلطان علي دينار، الذي بعث إليه أنور باشا[2]، وزير الحربية، خطاباً بتاريخ 3 فبراير 1915، معلماً إياه بتعدي بريطانيا وفرنسا وروسيا على دولة الخلافة العثمانية، وتحديهم للإسلام، وأخبره أيضاً بفتوى المشيخة الإسلامية بأن الجهاد قد أضحى فرض عين على كل المسلمين، وأن ممثل الخلافة نوري بك سيصل إلى ليبيا في هذا الشأن، وكذلك جعفر بك إلى دارفور[3]. يبدو أن السُّلطان علي دينار قد استبشر خيراً بهذا التواصل، فبعث خطاباً إلى أنور باشا، قائلاً: "نخبر جنابكم بأننا منذ انتشاب [كذا] الحرب بين جلالة سلطان الإسلام وبين الألداء الكُفّار والفساق الإنجليز وفرنسا وما يليهم، فمن وقته قطعت ما كان بيني وبين الكُفّار الملعونين من العلائق الودية، وجاهرتهم بالعداوة، وأعلنتهم بالحرب، استعديت لهم بقدر ما يستطعني من القوة، غيرة في دين الله وحمية الإسلام"[4].

(1) نفس المرجع، ص 516-517؛ رزق: **السُّودان في الحكم الثنائي**، ص 376-377.

(2) هو أنور باشا (1881-1992) من أبرز قيادة الاتحاد والترقي في الدولة العثمانية. عاد إلى إسطنبول بعد إعادة الدستور، وشغل منصب وزير الحربية (1913-1918). قام بدور أساس في زج الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى إلى ألمانيا. وبعد انتهاء الحرب غادر تركيا وقتل في بخارى عام 1922.

(3) شبيكة: **السُّودان عبر القرون**، ص 516-517؛ رزق: **السُّودان في الحكم الثنائي**، ص 376-377.

(4) شبيكة: **السُّودان عبر القرون**، ص: 518.

يبدو أن حكومة السُّودان بدأت تتشكك في موقف علي دينار، فأرسلت إليه خطاباً آخر بتاريخ 12 فبراير 1915، تفيده بموقف الحلفاء المتفوق على دول المحور، وتعلمه أن الأتراك يتحركون في أعمالهم كافة بموجب إشارة دولة ألمانيا وتطلعاتها السياسية، ثم لفتت نظره "إلى أمر جدير بالاهتمام، وهو أنه إذا تمكن أحد رجال الألمان، أو واحد من أعوان الترك من الدخول إلى دارفور تحت ستار التنكر والتخفي سواء كان ذلك عن طريق السُّودان، أو طريق آخر أن تلقوا القبض عليهم في الحال، وترسلوهم إلى هنا تحت الحفظ، ولا نرى بداً في أن نذكر لجنابكم أن أقوال وتعاليم هؤلاء الأقوام تنافي العدالة والمبادئ الشريفة"[1]. فجاء الرد على الرد السُّلطان في 21 أبريل 1915 على خلاف توقعات الحاكم العام، مخاطباً إياه بقوله "إلى السردار الذي يزعم أنه ملك السُّودان"، يجب أن يعلم "الملك لله وحده والعظمة والكبرياء لله"، ثم يواصل خطابه قائلا:

> **"أنك عزلت عباس حلمي خديوي مصر، ووليت حسين كامل سلطاناً بمصر، وزعمت أنك فصلت مصر عن دولة بني عثمان، واستقل بها حسين كامل بمساعدتكم له، أما تعلم أن الملك لله الواحد القهار، فعباس موجود وليس لك عليه سلطة حتى تعزله... أما تهديدكم لي فأنا لست دنقلاوي ولست عبد الله التعايشي، فأنا بفضل الله سلطان ابن سلطان، ورثت الملك كابراً عن كابر، وراثةً حقيقيةً، وجلست على عرش مملكة آبائي وأجدادي بأمر الله الواحد الصمد، ومادام أنكم صرتم تهددوني فو الله وبالله ولو بسيفي ورأس حصاني إن شاء الله تعالى أقاتل في سبيل الله وانصر دين الله"[2].**

لم ييأس الحاكم العام من إقناع السُّلطان بتغير موقفه المساند للدولة العثمانية، فأرسل إليه خطابا آخر، معضداً بعض المراسلات الممهورة بتوقيعات زعماء دينيين ورجال قبائل بارزين، أكدوا ولاءهم لحكومة السُّودان والإمبراطورية البريطانية في حربها ضد الأتراك العثمانيين. ثم حذره من الاستماع للدعايات المضللة، ووعده الحاكم العام بحل قضية النزاع الحدودي مع الفرنسيين بعد عودة سلاطين باشا من

(1) رزق: **السُّودان في الحكم الثنائي**، ص 374-375.

(2) نفس المرجع، ص 374-375. يقصد بالدنقلاوي الإمام محمد أحمد المهدي، والتعايشي الخليفة عبد الله.

النمسا[1]. وفي استجابته لذلك النداء، أوضح السُّلطان علي دينار للحاكم العام أنَّ التعامل بينهما تحكمه شروط ومواثيق سابقة، لكن الحكومة نكثت عهدها "قبل اشتعال الحرب مباشرة"، ولذلك...

> **"أصبحنا متأكدين من نيتكم في غزو دارفور هذا العام، كما صرحتم علناً في المديريات والمناطق. ومن الوقت الذي علمنا فيه نيتكم في احتلال دارفور أكملنا استعدادنا، وانتظرنا ما يأتي بلا خوف. أقسم بالله بأنني لا أخشى أي أحد سوى الله، ولا أنوي العدوان على أي شخص، ولكن أولئك الذين يبحثون عن قتالنا سنقاتلهم معتمدين على الله... أما بالنسبة للشريف يوسف الهندي، والشريف علي الميرغني، فإن شرفهم لأنفسهم فقط، ولسنا مسؤولين عما فعلوه معكم. إن التزامي نحوكم هو الولاء المخلص بالإضافة إلى الشروط المتفق عليها، وإذا وافقت على ذلك، فإننا إذاً مستعدون وقادرون على المحافظة عليها"[2].**

ثم استدرك السُّلطان في حاشية خطابه، موثقاً: "قلت يا صاحب السعادة أنكم لم تفعلوا شيئاً ضد الإسلام، ولكنك فعلت كل شيء لتشويهه، و لم تترك شيئاً في الإسلام لم تمسه، لذا فسوف يحكم الله بيننا وبينكم، وهو خير الحاكمين"[3].

وبناءً على هذا الرد الاستفزازي لجأت حكومة السُّودان لاتخاذ بعض التدابير الاستباقية الآتية قبل إعلان الحرب على دارفور.

أولاً: التزمت الحكومة بخطاب سياسي مهادن؛ ربما يقنع السُّلطان بتعديل موقفه المعادي لها، أو يمنحها فرصة من الزمن لتكمِّل استعداداتها العسكرية قبل إعلان الحرب على دارفور. ويتجلى ذلك في الرسالة التي بعثها ونجت باشا إلى السُّلطان، مستجدياً إياه بقوله: "وأقسم لك بالله أن ما دمت تحافظ على الجزء الخاص بك فيما يتعلق بالشروط والاتفاقيات المعقودة بينك وبين الحكومة، وتحافظ على العلاقات الودية التي استمرت بيننا منذ توليك السُّلطة بعد انتصارك على الخليفة وأنصاره، سأظل محافظاً ومتمسكاً بنفس العلاقات كما فعلت في

---

(1) شبيكة: **السُّودان عبر القرون**، ص 518.

(2) علي دينار إلى ونجت باشا، 6 ديسمبر 1914، دار الوثائق القومية السُّودان National Records Office, Khartoum, Intell, 2/2/11, 7/4-10؛ ثيوبولد، **علي دينار**، ص 108.

(3) نفس المرجع.

الماضي"[1]. وبالرغم من هذه التطمينات إلا أن السُّلطان علي دينار رفض دفع الجزية إلى الخرطوم، وهدد الكبابيش بالغزو عندما شعر بتآمرهم ضده.

ثانياً: حاولت الحكومة أن توظف علاقة علي دينار بالسيِّد علي الميرغني، استناداً إلى أن الأخير كان بمثابة وكيله في معالجة القضايا الشائكة مع الخرطوم. وبإيعاز من الحكومة طلب الميرغني من السُّلطان أن يؤجل مسألة البحث عن الأسلحة والجبخانة، ووعده بأن الحكومة سترُحل خصومه السياسيين الذين هاجروا إلى كردفان، ثم أرشده بتسوية صراعه السياسي مع الناظر موسى مادبو بالطرق السلمية. لكن السُّلطان لم يأخذ تلك النصائح في الاعتبار، بل أوضح للميرغني أن ارتباطه الخارجي والتزامه العقدي يمنعانه من التعامل مع "الكُفَّار"، مدعياً بأنه أصبح "أباً للمسلمين في العصر"، ومكلفاً بإعادة الدين الصحيح. وبذلك أعلن علي دينار قطع علاقته بالحكومة وإعلان الجهاد عليها. ومن زاوية أخرى أقرَّ بفقدان ثقته في الزعماء الدينيين في السُّودان، مؤكداً ذلك في خطابه الصادر في 29 يناير 1916 إلى الشريف السنوسي، قائلاً: أنَّ "جميع المسلمين الذين بشرق السُّودان والعلماء والفقهاء ومشائخ الطرق وغيرهم صاروا يكاتبونا، ويثنوا على دولة الإنكليز، يمدحوها في مخاطباتهم لنا، ويطلبوا منا أن نميل لمعتقدهم الفاسد، ونتبع النصارى، ولم نوافقهم على ضلالهم، وضربنا عن إفادتهم صفحاً، ووردت لنا بالجرايد شهادات من أعيان السُّودان وأهالي النواحي مادحين فيها دولة الإنكليز بتمويهات مكذوبة"[2].

---

(1) ثيوبولد: **علي دينار**، ص 111. واضح أن هذا الخطاب جزء من الخطة المرحلية لمحاربة علي دينار لأن الحكومة كانت مقتنعة أنَّ علي دينار له اتصالات مع دول المحور، لمزيد من التفصيل راجع أرشيف السُّودان بجامعة درم (SAD):

F.R.W. to Jackson re communications and arms supplies from the Sanūsī to `Alī Dīnār (SAD, 197/3/57-58), December 1915; F.R.W. to Clayton re relations with the Sanūsī and intelligence reports from the Idrīsī on communications between the Sanūsī and `Alī Dīnār (SAD, 197/3/277-279), May 1915; MacDonell re reports of the mobilisation of `Alī Dīnār's men in Darfur with German assistance (SAD, 199/1/198), January 1916; Savile re the use of friendly tribes in any future campaign against `Alī Dīnār in Darfur (SAD, 199/2/16-21), February 1916.

(2) من علي دينار إلى الشريف السوسي، 29 يناير 1916؛ انظر رزق: **السُّودان في الحكم الثنائي**، ص 382.

لاريب أن فقدان الثقة في الزعماء الدينيين قد دفع السُّلطان علي دينار للاستنجاد بزعماء القبائل في كردفان ودارفور، فتواصل مع الناظر محمد حريكة، والناظر علي الجلة في دار المسيرية، وأخبرهم بأن السُّلطان العثماني قد أعلن الجهاد ضد الإنجليز وأعوانهم، وأن الواجب الديني يحتم عليهم الاستجابة لنداء الجهاد؛ "لأن الساعة حانت للانتقام من الكُفَّار"[1]. وفي مناشدة أخرى كتب إلى الناظر موسى مادبو وعمد ومشايخ الرزيقات بأن يستجيبوا لأمر السُّلطان العثماني، ويجاهدوا الذين يلونهم من الكُفَّار، ويعتقوا رقابهم من رِقّ الاستعمار وأسره. وبناءً على ذلك التوجه العقدي خاطب علي دينار مدير كردفان بعبارات مستفزَّة، قائلاً: "فأنتم النصارى الكُفَّار، مأواكم النار، ومصيركم إليها، رضيتم بالموت فكيف نحن لا نرضى بالشهادة في سبيل الله، والفوز برضى الله والنعيم الأبدي المقيم، فلا تظنونا أننا نعمل أقل حساب من جهتكم، لا من مدافعكم، ولا من بنادقكم ومكانتكم، لا والله لا نخشى منكم، بل نجاهدكم بالحراب، وينصرنا الله عليكم"[2].

يبدو أن هذا التحدي المشحون ببعض القيم الدينية - الجهادية قد دفع مدير كردفان إلى تأليب الحكومة ضد السُّلطان علي دينار، بدليل أن السير ونجت باشا بعث رسالتين لمدير كردفان، أوضح في إحداهما: "أنَّ علاقتنا مع دارفور ستدخل طوراً جديداً. بينما كانت كل جهودنا في الماضي موجهة نحو الحفاظ على الوضع الراهن، وألا نفعل شيئاً من المحتمل أن يورطنا مع السُّلطان، فإن تصرُّفنا في المستقبل سيحكمه احتمالية أنه إما عاجلاً، أو آجلاً (وكلما كان آجلاً أفضل) فإن التدخل المباشر والعسكري في شؤون دارفور أمر لا مناص منه"[3]. وبموجب ذلك شرعت الحكومة في اتخاذ بعض التدابير الاستباقية لإعلان الحرب، والمتمثلة في تأمين الحدود الغربية مع دارفور، ودعم خصوم علي دينار القبليين داخل دارفور، وفرض حصار

(1) رزق: **السُّودان في الحكم الثنائي**، ص 380-381.

(2) من علي دينار على موسى مادبو، د. ت؛ انظر رزق: **السُّودان في الحكم الثنائي**، ص 381.

(3) من ونجت باشا إلى سافيل مدير كردفان، 16 يوليو 1915؛ انظر ثيوبولد: **علي دينار**، ص 115.

تجاري على الإقليم، يفضي إلى ندرة السلع الاستهلاكية وارتفـــاع أســـعارها، ثم تكليف "المفتش الذكي" ماكمايكل بجمع المعلومات الاستخباراتية عـــن دارفـــور. ويبدو أن علي دينار عندما شعر بتحركات الحكومة الجادة ضده، استنجد بالســـيِّد علي الميرغني مرة أخرى، طلب منه الإنصاف أمام الحكومة الاســـتعمارية، قـــائلاً: "أنت مندوبـــي، وأطلب منك إنصافي من الحكومة، وذلك بالحصول علـــى مـــا ذكرت، والتحقق بأن شؤوني محترمة طبقاً للاتفاقات التي مع الحكومة، وإذا أمكنك أن تقوم بذلك فسوف أظل دائماً كما كنت من قبل، وسوف احترم الاتفاقـــات التي بيني وبين الحكومة، وسأكون شاكراً، كما هو عهدي دائماً، وسأعاملها كما السابق"[1]. تعكس هذه الرسالة حالة القلق والارتباك والتناقض التي كان يمر بهـــا السُّلطان علي دينار؛ لأنه في الوقت نفسه تواصل مع القيادات العثمانية والشـــريف أحمد السنوسي في ليبيا. بدليل أن نوري بك كتب إليه رسالة من الحدود بين مصر وبرقة (ليبيا)، قائلاً: "إلى سيد المجد والكمال، النشط، المحارب، التقـــي، الصـــالح، الشجاع، الذكي، البارز، الأمير ابن الأمير، صاحب السعادة العظيم أمير حكومـــة دارفور، منحه الله النصر ووهبه كل خير"[2]. وبعد هذه التوطئة الإطرائيـــة، أفـــاد نوري بك السُّلطان علي دينار بأنه وصل إلى معسكر السيِّد أحمد الشريف، زعـــيم السنوسية، وإن الحكومة التركية ترغب في إبلاغه بمتطلبات قوات علـــي دينـــار، وموقفها تجاه "أعداء الإسلام". ثم أخبره أن السُّلطان العثماني أرسل إليـــه وســـاماً وعباءة وسيفاً وسرجاً وبندقية مزخرفة ومسدساً ونظارة ميدان ستبعث له لاحقـــاً، خوفاً من مراقبة الأعداء[3]. وأكدت أيضاً المعلومات الاستخباراتية لمكتب القاهرة أن نوري بك العثماني قد أرسل هدايا إلى علي دينار في نوفمبر 1915، مع رســـالة من سلطان تركيا تحثه على الثورة ضد حكومة السُّودان، والاشتراك في الجهاد ضد إنجلترا؛ وأنَّ قافلة مكونة من 160 جملاً (يقال) إنها تحمل 200 بندقية أرســـلت إلى

(1) من علي دينار إلى السيد علي الميرغني، 9 أغسطس 1915، دار الوثائق القومية، الخرطوم، National Records Office, Intell, 2/5-8؛ ثيوبولد: **علي دينار**، ص 117.

(2) من نوري بلك إلى علي دينار، 14 أغطس 1915، دار الوثـــائق القوميـــة، الخرطـــوم، National Records Office, Intell, 2/2-12؛ ثيوبولد: **علي دينار**، ص 118.

(3) ثيوبولد: **علي دينار**، ص 118.

دارفور؛ وأنّ العلاقات بين السنوسي وعلي دينار قد أصحبت ودية، بعد أن كانت متوترة في السابق[1]. ويضاف إلى ذلك ضرب الجيش الألماني لسواحل برقة في ليبيا، وسيطر السنوسيون على الحدود الغربية لمصر.

كل هذه التطورات دفعت الحاكم العام إلى تقديم طلـــب لـــوزارة الحربيـــة البريطانية للسماح له بغزو دارفور. وافق اللورد كتشنر، وزير الحربية آنذاك، على اقتراح الخرطوم، ثم أرسل أربع طائرات لتعزيز قوة دارفور المكونة مـــن وحـــدات عسكرية رسمية مختلفة (مشاه، وهجانة)، ومتطوعين مـــن الرزيقـــات، والبقـــارة، والكبابيش. وفي تلك الأثناء تمّ تجهيز محطات الإمدادات العسكرية والغذائية علـــى طول الطريق، وشراء آلاف من الجمال لترحيل عتاد الحملة العسكرية وعساكرها. وقبل انطلاق الحملة العسكرية في مارس 1916 حضر السير ونجت باشا إلى النهود؛ للتأكد من الإعداد العسكري للحملة، ثم إعلان الحرب على السُّلطان علي دينـــار. وبعد ذلك بدأت الطائرات بإلقاء المنشورات على أهالي دارفور؛ لتقليل الخســـائر البشرية وإشاعة الحرب النفسية والرعب في نفوس الجنود وســـلطانهم "المتمـــرد". ويوضح المنشور الوارد في الملحق رقم (2) طبيعة الخطاب السياســـي التحريضـــي الذي كانت تبثه حكومة السُّودان آنذاك؛ لتبين للناس أن الحرب ضد السُّلطان علي دينار ليست لها علاقة بالإسلام والمسلمين، وإنما لتخليص الناس من ظلمه، ولذلك نجدها تتدثر ببعض القيم الإسلامية.

وبعد هزيمة الفور في واقعة برنجية في 22 مايو 1916 تحـــت نـــيران المدفعيـــة البريطانية، ترك السُّلطان علي دينار العاصمة الفاشر، محتمياً بمنطقـــة جبـــل مـــرة الحصينة. وبعد شهور من الحصار هاجمت قوات الحكومة الوحـــدات العســـكرية المرافقة للسلطان، وأثناء المعارك الدائرة بين الطرفين استشهد السُّلطان علي دينـــار برصاصة طائشة في 6 نوفمبر 1916، وبذلك أسدل الستار على آخـــر ســـلاطين دارفور. وبحلول عام 1917 أصبحت دارفور جزءًا مـــن السُّـــودان الإنجليـــزي - المصري. وعلى هامش مداولات مؤتمر الصلح بباريس عام 1919، عقدت بريطانيا

(1) نفس المرجع، ص 123.

وفرنسا صفقة سياسية، تمّ بموجبها إلحاق دار المساليت ودار قمر بالسُّودان، بينما ذهبت دار تاما ودار سلا لفرنسا، وأضحى وادي هور الحد الفاصل بين ودّاي ودارفور[1].

وفد السودان إلى لندن 1919

بعد أن وافقت ألمانيا على توقيع الهدنة مع الحلفاء في 11 نوفمبر 1918، برزت الاحتجاجات المطلبية للشعوب التي اشتركت في الحرب إلى جانب الحلفاء، مقابل وعد سابقٍ بأنها ستُمنح استقلالها بعد الحرب. ومن أبرز تلك الحركات الاحتجاجية أحداث ثورة مارس 1919 في القاهرة التي كانت تنادي بانتهاء الاحتلال البريطاني في مصر. وكان لتلك الثورة صداها في السُّودان إلا أن حكومة الخرطوم سعت إلى إبعاد السُّودانيين من دائرة المد الثوري. ولتنفيذ هذا المخطط استعانت حكومة السُّودان بالمندوب البريطاني السامي في القاهرة السير ونجت باشا، الذي كتب في 3 أبريل 1919:

> **"إنني أتجاسر وأعبِّر عن أملي في أنَ يسمح للحاكم العام إعادة تأكيد نيَّة حكومة جلالة الملك بأن تتعهد بالإسهام بنصيب أكبر في إدارة حكومة السُّودان. وإنني أذهب بعيداً واقترح تنفيذاً لهذه السياسة أن تتحمل حكومة جلالة الملك إدارة السُّودان وحدها، بشكل واضح، إذا ما وجدت الفرصة المناسبة لذلك. وبذلك يتمّ إبعاد العنصر المصري المكروه، وإنزال العقاب الذي يستحقه الوطنيون المصريون، والذين رأوا الحصول على المكاسب بالفوضى والنهب والقتل، وهو فقدانهم لقطر أرادوا حكمه، وفقدوه لسنين مضت، ولم يستطيعوا استعادته إلا بالمساعدة البريطانية التي جعلت السُّودان كما هي حالته الآن – بلداً له مستقبل زاهر، واستراتيجياً ومادياً فائدته للإمبراطورية البريطانية"**[2].

---

(1) ماكمايكل، سير هارولد: **السُّودان**، ترجمة محمود صالح عثمان صالح، مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي، أمدرمان 2006، ص 133.

(2) شبيكة، مكي الطيب: **بريطانيا وثورة سنة 1919 المصرية**، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة 1976، ص 98-99.

وتعضيداً لهذا التوجه، وبإيعاز من السير لي أستاك، حاكم عام السُّودان (1917-1924)، كتب نفرٌ من أعيان السُّودان خطاباً إلى حكومة جلالة الملك في لندن، والمندوب البريطاني السامي في القاهرة، جاء فيه "أولاً: جميعنا نقدم شكرنا الوافر لما قام به الموظفون البريطانيون في السُّودان من أعمال لرفاهية السُّودانيين، والتي أتت بنتائج لتقدم البلاد وتطورها. ثانياً: ولاؤنا الثابت وإخلاصنا للحكومة البريطانية لا يتغير. ثالثاً: تأكيدنا الكامل بأنه لا دخل لنا، ولا علاقة لنا، بالحركة القائمة الآن في مصر، ولا تتفق مع رغباتنا"[1]. وفي الاتجاه ذاته، اقترح الحاكم العام على وزير الخارجية البريطاني إرسال وفد سوداني إلى لندن؛ لتهنئة الملك بمناسبة انتصار الحلفاء، خوفاً من مطالبة السُّودانيين بحضور مؤتمر الصلح في باريس مع وفد الحركة الوطنية المصرية. واقترح الحاكم العام قائمة من الأسماء، شملت السيِّد علي الميرغني وعبد الرحمن المهدي، والشريف يوسف الهندي، وإسماعيل الأزهري عن الموظفين، وأربعة من نظار القبائل، هم: عبد العظيم خليفة، وعلي التوم، وإبراهيم موسى مادبو، وعوض الكريم أبوسن نيابة عن والده. ثم تساءل الحاكم العام إذا كان ابن المهدي سيكون "مقبولاً كزائر لإنجلترا؛ لأنه قد يكون هناك حساسيات عاطفية تعترض زيارته"؛ لكنه تمنى "أن لا تنشأ اعتراضات من هذا القبيل؛ لأنه كان مخلصاً [أي ابن المهدي] باستمرار أثناء الحرب والاضطرابات الأخيرة، وأكثر من ذلك فله أتباع عديدون في السُّودان. وسيكون هذا أيضاً برهاناً للتغيير الذي طرأ بعد جيل واحد، نتيجة إدارة رشيدة، تتسم بالعطف"[2]. وبناءً على توصية المندوب

(1) نفس المرجع، ص 99. شملت أسماء الموقعين على هذا الخطاب: السيِّد علي الميرغني، والسيِّد عبد الرحمن المهدي، والطيب هاشم المفتي، وأبو القاسم أحمد هاشم، رئيس لجنة العلماء، وإسماعيل الأزهري، قاضي مديرية دارفور، والسيِّد ميرغني السيِّد المكي، رئيس الطريقة الإسماعيلية بالسُّودان. وفي الوقت نفسه بعث الشريف يوسف الهندي بخطاب للحاكم، جاء فيه: "أشارك السُّودانيين الآخرين في تقديم هذا الخطاب لسعادتكم، كقائم بأعمال الحاكم العام للسودان، لأخبر سعادتك بأننا سمعنا بأن المصريين يحاولون اعتبار مصر والسُّودان قطراً واحداً. ولهذا السبب نرفع أصواتنا لنشرح بأن أهل السُّودان لا يتبعون مصر بتاتاً، ونحن على ثقة بأنهم انفصلوا نهائياً منهم منذ استعادة الفتح والاحتلال".

(2) شبيكة: **بريطانيا وثورة 1919 المصرية**، ص 102.

البريطاني السامي في القاهرة، وافقت وزارة الخارجية البريطانية في 16 يونيو 1919 على ابتعاث الوفد السُّوداني إلى لندن؛ لتهنئة الملك جورج الخامس بانتصار الحلفاء في الحرب العالمية الأولى، وأن يكون ابن المهدي من ضمن أعضاء الوفد(1). بهذا الإجراء الاحترازي أرسلت حكومة الخرطوم رسالة قوية إلى "المتمردين" المصريين بأن السُّودان قُطر له كيانه السياسي المستقل عن مصر، ويجب على "المتمردين" أن لا يتحدثوا باسم السُّودانيين، فهم جديرون بالتحدث عن أنفسهم. وفي ضوء هذه الترتيبات تحرك وفد السُّودان من الخرطوم في 2 يوليو 1919، ووصل إلى لندن في الأسبوع الأخير من يوليو 1919، والتقى بالملك جورج الخامس في قصر بكنجهام في 28 يوليو 1919. وكان يرافقه آنذاك السير فرنسيس ريجيلند ونجت حاكم السُّودان العام السابق (1899-1916) والمندوب السامي في القاهرة (1917-1919)، وأ. ف. ولس، مساعد مدير المخابرات السُّودانية، وكان في استقبالهم بمدخل القصر اللورد كرومر، الذي تَقدَّم الوفد لمقابلة الملك جورج الخامس. وفي ذلك الاجتماع ألقى السيِّد علي الميرغني، رئيس الوفد، كلمةً نيابة عن أهل السُّودان، ترجمها إلى الإنجليزية السير ونجت، ويوجد النص الكامل لهذه الكلمة في الملحق رقم (2).

وبعد كلمة الملك جورج الخامس الترحيبية التي ثمَّن فيها زيارة الوفد السُّوداني إلى لندن، تقدَّم السيِّد عبد الرحمن المهدي، وأهدى سيف والده إلى الملك، ثم ألقى كلمة قصيرة مفادها:

"يا جلالة الملك. أنتهز هذه السانحة الكريمة لأضع في يدي جلالتكم هذا السيف التاريخي، "سيف النصر"، الذي كان عند والدي، كعربون حقيقي للولاء والخضوع لمقام عرشكم السامي. وأعد نقل هذا السيف لجلالتكم دليلاً قاطعاً ومطلقاً لرغبتي في أن تعتبروني أنا وأتباعي في السُّودان خداماً مطيعين لكم. لقد أظهرت – ولسنوات بعد إعادة احتلال السُّودان – لرجالكم العاملين في السُّودان وبطرق مختلفة خدماتي وكامل ولائي. وهنالك الكثير من أفراد شعبي الذين ينتظرون عودتي عقب مقابلتي لجلالتكم ظافراً بكريم

(1) نفس المرجع، ص 124.

عطفكم، ويتمنون أن يكونوا من ضمن رعاياكم المخلصين. وأنا الآن أعـرض على جلالتكم خدماتي المخلصة والمتواضعة"[1].

قَبِل الملك جورج الخامس هدية السيِّد عبد الرحمن المهدي، قائلاً: "أقبل منك هذا السيف، وأقدر لكم روح الإخلاص والولاء لنا، التي دفعتك لتقديم هذه الهدية. وسأعيد هذا السيف لك ولورثتك؛ لتحتفظوا به، وتستخدموه نيابة عني في حماية عرشي وإمبراطوريتي، ودليلاً على قبولي بخضوعكم، وإخلاصكم، وولائكم، أنتم وأتباعكم لنا"[2].

تعكس زيارة الوفد السُّوداني إلى لندن أكثر من مؤشر سياسي على المستويين الإقليمي والمحلي؛ فعلى المستوى الإقليمي أبرزت الزيارة نية الحكومة البريطانية في فصل السُّودان عن مصر، أو استخدام السُّودان ورقة ضغط ضد الثوار المصريين، وإشعارهم بأن السُّودان لم يكن جزءاً من الأراضي المصرية، وأنَّ موضوع تقرير مصيره يجب أن يناقش بمعزل على القضية المصرية آنذاك، وذلك بالرغم من إدراكهم أنَّ السُّودان كان يمثل عمقاً استراتيجياً للحركة الوطنية المصرية. وعلى المستوى المحلي، ثمَّنت الزيارة أهمية التصالح بين حكومة الخرطوم والسيِّد عبد الرحمن المهدي، الذي أكد رغبته في التعاون مع البريطانيين، مقدماً سيف والده المهدي هديةً للملك جورج الخامس الذي أعاده إليه، موصياً إياه باستخدامه في الدفاع عن الإمبراطورية البريطانية، والتعاون مع ممثليها في السُّودان. وقد أثار هذا التحول السياسي حفيظة غريمه السيِّد علي الميرغني، ووسع لاحقاً شقة الخلاف بين طائفتي الختمية والأنصار، بدليل أن السيِّد علي الميرغني استهجن حادثة تقديم السيف هدية للملك، واعتبرها غدراً برئاسة الوفد الموكلة إليه؛ لذلك طالب بالعودة إلى السُّودان قبل أن تكتمل الزيارة؛ إلا أن صمويل عطية، ضابط المخابرات، الذي رافق الوفد، أفلح في إقناعه بالعدول عن ذلك الرأي[3]. أما كلمة

(1) لمزيد من التفصيل انظر:
Sudan Loyalty: Chief's Deputation to the King", *Morning Bulletin* (Qld, 1878-1954), Wednesday 8 October 1919, page 12, National Library of Australia http://nla.gov.au/nla.newsarticle53871922, (accessed 5/1/2015).

(2) Ibid.

(3) إبراهيم: الإمام عبد الرحمن المهدي، ص 80.

الوفد التي ألقاها السيِّد علي الميرغني فكانت عبارة عن خطاب مرافعة عن أداء الحكومة السُّودانية، حيث تجنب الحديث عن الخلافة العثمانية (تركيا) واضعا اللوم على ألمانيا التي وُصفت بالبربرية، فضلاً عن أنها حفلت بكثير من عبارات المجاملة التي لا تعكس الواقع، مثل وصف الحرب بأنها كانت بين "الحق" و"الباطل"، وأن "العدل تغلب فيها على "الظلم"، و"سحقت الحضارة البربرية".

لكن هذه الزيارة واجهت انتقادات لاذعة من الصحافة المصرية، ومن المتعلمين السُّودانيين المناصرين لمطالب ثوار 1919. وحفاظاً على وحدة الجبهة الداخلية وتفنيداً لانتقادات الصحافة المصرية استطاعت حكومة الخرطوم أن تخلق نوعاً من الوفاق بين زعماء الطوائف الدينية الثلاثة (الميرغني، والمهدي، والهندي)، وتشجيعهم على امتلاك امتياز صحيفة حضارة السُّودان التي أسسها الصحافي حسين شريف عام 1919م[1]. وبناءً على ذلك التوجه المرسوم تحولت الصحيفة إلى صحيفة سياسية، تسير في خط توجهات أصحاب امتيازها، الذي يخدم استراتيجية الحكومة بطريقة غير مباشرة. وفي افتتاحية العدد الأول للصحيفة (24 يونيو 1920) في ثوبها الجديد، كتب رئيس تحريرها حسين شريف، قائلاً:

> **"لما رجع الوفد السُّوداني من بعثتهم إلى لندن في الصيف الماضي، رأوا أن الحاجة ماسة إلى وجود جريدة ومطبعة عامة تعتبرها جميع طوائف هذه البلاد المختلفة، وشيعها المشتتة لساناً واحداً ناطقاً يعبِّر عن آرائها، ويفصح عن رغباتها. ولذا أخذ كبار رجال الوفد وأقطاب السُّودان، وهم: أصحاب السيادة الحسيبون السير السيِّد علي الميرغني، والشريف يوسف الهندي، والسيِّد عبد الرحمن المهدي من ذلك الحين يفكرون في تدبير الأمر تدبيراً ينطبق على حالة، ويستطيع أن يحدث فيه ما يراد له من الخير والأثر. وأخيراً أتيح لهم أن يتفقوا على إنشاء صحيفة سياسية، تنضوي تحت أسمائهم الثلاثة، فتنطق بلسان الأربعة ملايين نسمة التي يقلها هذا الإقليم، وتذود عن حوضهم بشبا القلم وسلاح الخلق وتحوط وحدتهم بسياج القومية وسور العصبية وتبحث عن أدوائهم،**

---

(1) أصحاب الامتياز المؤسسون لحضارة السُّودان هم: السيِّد عبد الرحمن المهدي، والسيِّد محمد الخليفة شريف، والتاجر عثمان صالح أحمد (أمدرمان)، والشيخ عبد الرحمن جميل (كوستي)، والشيخ حسن أبو (الأبيض).

متعرفة منشأها وتطلب الدواء النافع لها. فعلى هذا الأساس قامت هذه الصحيفة، وقد رأوا أن يقوا لها (حضارة السُّودان) اسماً، كما كان تخليداً لذكرى أول صحيفة وطنية ظهرت في سماء السُّودان"[1].

هكذا ظهرت صحيفة حضارة السُّودان ناطقاً رسمياً باسم أصحاب امتيازها، ومواقفهم المتقمصة لسياسة الحكومة البريطانية وممثليها في السُّودان ضد توجهات الحركة الوطنية المصرية والشريحة السُّودانية المساندة لها. واكتسب هذا الموقف تأييداً شبه رسمي بصدور تقرير اللورد ملنر، المكلف من قبل الحكومة البريطانية بالتحقيق في الأسباب التي أفضت إلى اندلاع ثورة 1919 في مصر، وكيفية احتوائها، ثم الخروج بتوصيات تخدم مصالح الحكومة البريطانية في مصر والسُّودان. وفيما يختص بالسُّودان نلحظ أن التقرير أوصى بإبقاء إدارة المراكز الإدارية المختلفة في السُّودان قدر الإمكان في أيدي السُّلطات المحلية، وتحت إشراف المفتشين البريطانيين ومديري المديريات[2]. وبذلك قدم التقرير توصية صريحة بإبعاد العنصر المصري عن إدارة السُّودان. ونُفذت عملية الإبعاد على مرحلتين. تمثلت إحداهما في منح مصر استقلالاً مشروطاً عام 1922، يقضي بأن تكون إدارة السُّودان مستقلة عن مصر، أو بالأحرى في أيدي الموظفين البريطانيين؛ وتجلت ثانيتهما في استغلال حادثة قتل السير أستاك، حاكم عام السُّودان، في القاهرة عام 1924، وعليه أصدرت الحكومة البريطانية قراراً يقضي بمطالبة الحكومة المصرية بالاعتذار عن تلك الجريمة، وتقديم مرتكبيها والمحرضين عليها للمحاكمة والعقاب، ودفع تعويضٍ مالي يبلغ نصف مليون جنيه أستيرليني للحكومة البريطانية، وأن تُسحب القوات المصرية من السُّودان خلال أربعة وعشرين ساعة.

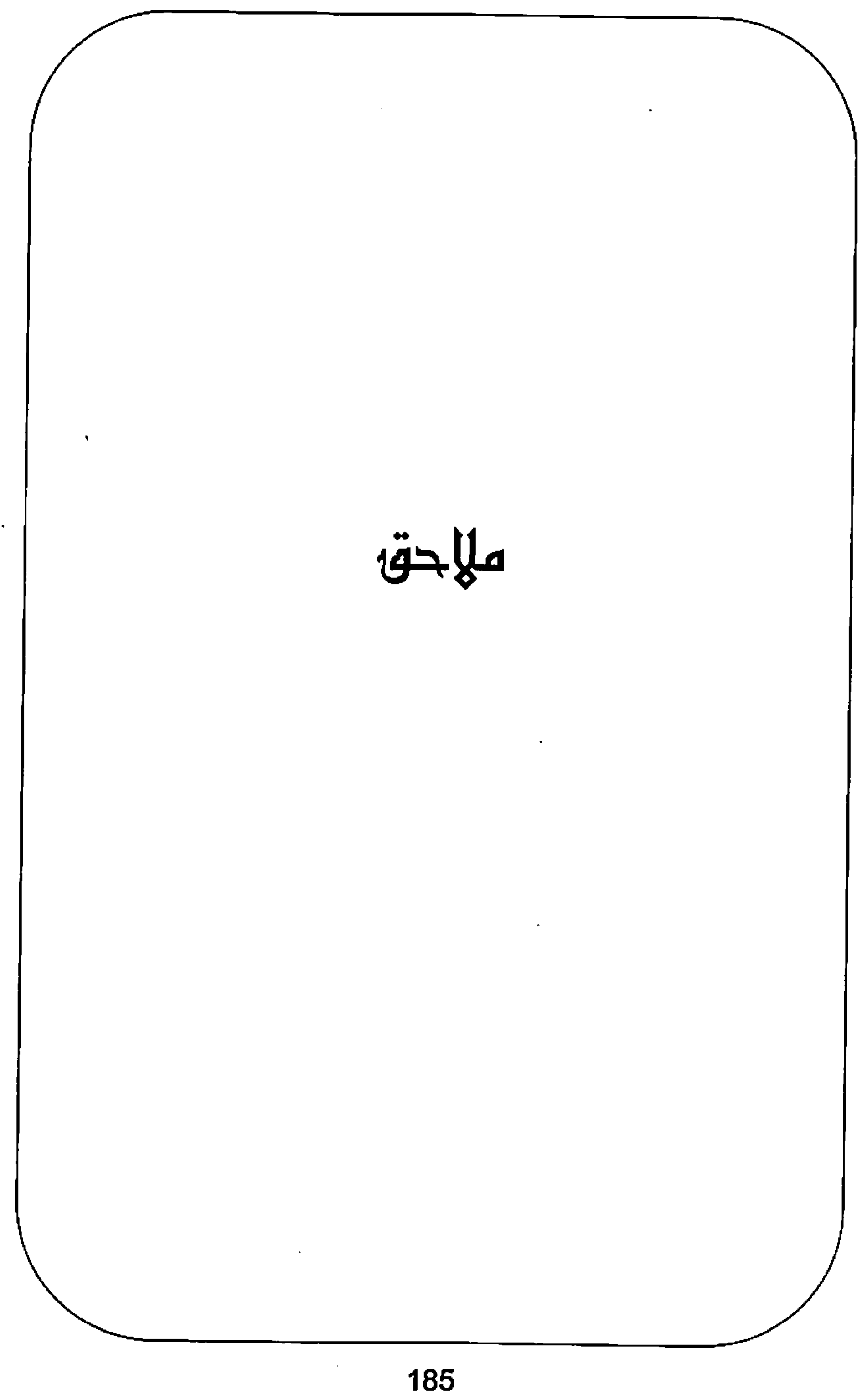
---

(1) نجيلة، حسن: **ملامح من المجتمع السُّوداني**، دار عزة للتوزيع والنشر، الخرطوم 2005، ص 23-24.

(2) لمزيد من التفصيل عن تقرير اللورد ملنر انظر:
Ahmed Ibrahim Abushouk and Anders Bjorkelo, ed., *The Principles of Native Administration in the Sudan,* (Omdurman: Abdel Karim Mirghani Cultural Centre. Bergen: Centre for Middle Eastern Studies, 2004), pp. 83-84.

خاتمة

يقودنا هذا العرض إلى خلاصة مفادها أنّ حكومة السُّودان، مدعومة بحكومة جلالة الملك، قد استطاعت أن تستغل التناقضات التي أفرزها الحرب العالمية الأولى على الساحة السُّودانية بدبلوماسية ماكرة، تصب مخرجاهـا في خدمـة المصـالح البريطانية الاستراتيجية في الإقليم. وكما أوضحنا من قبل، فإنّ الحكومة البريطانية وظفت علاقة السيِّد علي الميرغني بالشريف حسين بن علي للترويج لمشروع الخلافة الهاشمية، الذي لم يكن غاية في حد ذاته، بل كان وسيلة لتفكيك الخلافة العثمانية، وتوزيع أراضيها بين الحلفاء ومشروع الدولة اليهودية. ومن زاوية أخرى استغلت حكومة السُّودان موقف السيِّد عبد الرحمن المهدي المعادي أصلاً للخلافة العثمانية والدولة المصرية؛ ليكون حليفاً مؤيداً لبريطانيا في حربها ضد دول المحـور، كمـا استطاعت أيضاً أن توفّق بينه وغريمه السيِّد علي الميرغني، الذي كان يحظى بتأييدها الرسمي لإضعاف النفوذ المهدوي في السُّودان. وبموجب ذلك ضـمنت حكومـة السُّودان تأييد الزعماء الدينيين الثلاثة (الميرغني، والمهـدي، والهنـدي) ورجـال القبائل، وكبار القضاة الشرعيين؛ لتأليب الرأي السُّوداني العام لصالح الحلفـاء. وفي الوقت نفسه جعلت صحيفة حضارة السُّودان، متنفساً لقطاع المـتعلمين؛ لينفثـوا خطاهم السياسي المعادي للحركة الوطنية المصرية، مستندين في ذلك إلى القاعـدة الشعبية الواسعة التي كانت تدين بالولاء للسادة أصـحاب الامتيـاز (الميرغـني، والمهدي، والهندي)، ومروجين لشعار "السُّودان للسودانيين" وفي مواجهة السُّلطان علي دينار استغلت حكومة السُّودان العناصر القومية المؤازرة لهـا (السـيِّد علـي الميرغني) في مرحلة الترغيب؛ لإبعاد السُّلطان عن دائرة النفوذ العثمـاني، ولكنـها عندما شعرت بالفشل، لجأت لسياسة الترهيب والمواجهة العسكرية، فاسـتعانت بالقبائل المناوئة للسلطان في دارفور وكردفان مثل الرزيقات والزيادية والهبانية وبني هلبة والكبابيش. وبعد القضاء على السُّلطان، ضُمَّت دارفور إلى دولة السُّـودان، وبذلك انتهت الثنائية التي نشأت عقب سقوط الدولة المهدية.



ملاحق

ملحق 1

منشور إلى عموم أهالي دارفور

128/3/82

منشور

الى عموم اهالي دارفور

سلام الله ورسوله عليكم ورحمة الله وبركاته

أما بعد فأنتم تعلمون حق العلم ان علي دينار قد قتل رؤساءكم ونهب ممتلكاتكم وباع نساءكم واولادكم بيع السلع والمتاع أما الآن فقد حان الاوان ليجنى ثمار ما فعلته يداه فاهجروه فراداً وجماعات وسلموا انفسكم الى جيوشي المظفرة التي قد ارسلتها لمعاقبة هذا الظالم الباغي حيث تنالون أمان الله ورسوله وتخلصون أنتم ونساؤكم واولادكم من ذل استرقاقه وتستظلون بظل الحكومة فتعيشون بسلام وطمأنينة وتبطشون على معايشكم بلا منازع ويجد كثيرون منكم اعمالاً تلائمهم بخدمة الحكومة

أما أنتم يا رجال الجيش في دارفور من ملازمية وجهادية وغيرهم فاني عالم حق العلم بأنكم انما قمتم على خدمة هذا الظالم الى يومنا هذا رغماً عن أنوفكم وخوفاً من العقاب الذي يحل بكم لو رفضتم أن تعملوا ذلك ولهذا فاني أمنحكم أيضاً الأمان لذا سلمتم على الشرط الآتي

وهو انكم حالما تبصرون جيوشي قادمة نحوكم أن ترموا اسلحتكم على أنواعها ان كانت بنادق أو رماحاً او سيوفاً الى الارض وترفعوا ايديكم نحو السماء كي يتحقق قائد جيوشي حسن نواياكم ويمنحكم أمان الله ورسوله

(فقُطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين)

المصدر: أرشيف السُّودان، جامعة درم (SAD, 128/3/82).

ملحق 2

خطاب السيد علي الميرغني، 28 يوليو 1919

"يا جلالة الملك. نتقدم لجلالتكم بأسمى آيات الامتنان للتشريف العظيم الذي طوقتمونا به، وللسماح لنا بالمثول أمام جلالتكم. أنا شخصياً، السيِّد السير علي الميرغني، ومعي الشريف يوسف الهندي، والسيِّد عبد الرحمن المهدي، نمثل الزعماء الدينيين بالسُّودان؛ والشيخ الطيب أحمد هاشم مفتي السُّودان، والشيخ أبو القاسم هاشم رئيس مجلس العلماء، والسيِّد إسماعيل الأزهري قاضي مديرية دارفور يمثلون المحاكم الشرعية؛ والشيخ علي التوم ناظر الكبابيش، والشيخ إبراهيم موسى ناظر الهدندوة، وشيخ إبراهيم محمد فرح ناظر الجعليين، وشيخ عوض الكريم أبو سن نائب ناظر الشكرية يمثلون نظّار الإدارة الأهلية لحكومة السُّودان. وبالإنابة عن أنفسنا وكل الشعب السُّوداني نتقدم، وبكل تواضع، لجلالتكم بتهانينا القلبية على الانتصار المجيد الذي أحرزته جيوشكم. إن صلابة وثبات جنود الجيوش المتحالفة في أثناء سنوات الحرب الطويلة والرهيبة هو ما أدى لهزيمة العدو هزيمةً ساحقة، وإن انتصار جلالتكم الباهر هو ما انتزع إعجاب أهل السُّودان، وأفعم قلوبهم بالبهجة والسرور. وقد تيقن الشعب السُّوداني تماماً من أن هذه الحرب (والتي تابعوا عن كثب وبمزيد من الاهتمام أسبابها وتقلباتها) تختلف عما سبقها من الحروب. فحروب الماضي كانت تقرر مصير الشعوب المتحاربة فقط، غير أن هذه الحرب العالمية التي وضعت للتو أوزارها حددت مصير كل الشعوب الضعيفة، والتي يُعدُّ السُّودان واحداً منها. لقد كانت حرباً بين الحق والباطل، ولقد رجحت فيها كفة الحق بفضل النصر الذي أحرزته جيوش جلالتكم، وتغلب فيها العدل على الظلم، وسحقت الحضارة البربرية. ولقد بذلت الآلاف المؤلفة من جنود الجيوش المتحالفة دمائها رخيصة من أجل الدفاع عن حقوق الشعوب الصغيرة،

ولتخليصهم من نير الظلم والاستبداد والعبودية، ولإدخال سائر بلدان العالم في عهد جديد من السلام والأمن والطمأنينة. ولقد أثبتت هذه الحرب - وبصفة نهائية - بطلان قاعدة "القوة هي الحق"، وأثبتت أيضاً، ولكل الشعوب الكبيرة والصغيرة على حد سواء، أن "الحق هو القوة." و لم يتطرق لشعب السُّودان أي شك في أن جيوش الحلفاء ستنتصر في نهاية المطاف. فعلى الرغم من أننا ظللنا نسمع - ولأربعين عاماً - الكثير عن استعدادات جيش العدو؛ إلا أننا كنا موقنين من نتيجة الحرب، إذ أنه ليس من الممكن هزيمة أمة شعارها المساواة والعدالة والدفاع عن الضعيف وحمايته. ولا بد لنا يا جلالة الملك من أن نزف لكم التهاني على انتصاركم وعلى وحدة أجزاء إمبراطوريتكم الواسعة الممتدة، وعلى قوتها وولائها لملكها، والذي حاز على إعجاب العالم بأسره، رغماً عن كل الدسائس والمؤامرات المستمرة والعديدة التي حاكها أعداؤكم. وبرغم تباعد أجزاء إمبراطوريتكم وانتشارها في كل بقاع العالم؛ إلا أن جميع سكانها كانوا على قلب رجل واحد، يعملون جميعاً من أجل تحقيق ذات الهدف، صامدين في ساعات الحزن وأيام الفرح، وعلى كامل الاستعداد للتضحية بالمال والدم، وبما كل ما لديهم للدفاع عن عرش جلالتكم والإمبراطورية البريطانية. و لم يتخلف حتى السُّودان، أفقر وأصغر عضو في هذه الإمبراطورية العظيمة (ولكن بالقطع ليس أقلها ولاءً)، فقدم رجاله ما لديهم بكل حماس وحيوية. وبالمقارنة مع ما أتى من كل أجزاء إمبراطوريتكم فإني أشعر بالخجل من أن أذكر هنا الدور المتواضع الذي لعبه السُّودان في الحرب، والذي يعد - إن جاز القول - نقطة في محيط. ولكن يجب أن نتذكر أن ما قدمه شعب السُّودان كان هو كل القليل الذي يملكه هذا الشعب المخلص، والذي ما بخل وما استبقى شيئاً. إن ما قدمه السُّودان لمجهودات الحرب كان قليلاً بالفعل، غير أنه كان صادراً عن عاطفة صادقة. واستميح جلالتكم عذراً في القول بأن القليل الذي بذلناه في الحرب، إنما هو ثمرة ما غرسته حكومة جلالتكم في البلاد. إنه ببساطة حصاد غرسكم الطيب، وعربون امتناننا لكم. لقد جعلتم يا جلالتكم العدل أساس ملككم الواسع، فسادت روح العدالة والسلام سائر أنحاء الإمبراطورية العظمى. ونحن عندما نهنئ جلالتكم، فإننا في واقع الأمر نهنئ بلادنا وشعبنا. لقد فاضت قلوبنا بالفخر والولاء والحب لجلالتكم لما رأيناه في سائر أرجاء بلادنا من سيادة روح الأمن والعدل طوال السنوات الماضية، وما أظهرته حكومة جلالتكم من اهتمام بشئون السُّودان وببذل التضحيات العظام في سبيل تقدمه وإسعاده مادياً ومعنوياً، وإدخال شعبه ضمن

رعايا الإمبراطورية البريطانية. وإننا نقدر تمام التقدير أن تقدم السُّودان في المستقبل يعتمد على صلاته بإمبراطورية جلالتكم. ولذا فإننا نرفع أيدينا بالدعاء لله سبحانه وتعالى ونتضرع إليه أن يمنح جلالتكم عمراً طويلاً وسعيداً، وأن يحفظ بريطانيا العظمى رائدة الحرية والمدنية في العالم. فليخفق علم الإمبراطورية البريطانية طويلاً على السُّودان؛ لتنشر في ربوعه السلام والهدوء، ولتواصل السعي من أجل تقدمه حتى يأخذ مكانه المتقدم بين أعضاء هذه الإمبراطورية. وندعو الله أن يأتي سريعاً هذا اليوم الذي يمكن للسودان فيه من تحقيق هذه الغاية. وأخيراً نقدم، وبكل تواضع، لعرش جلالتكم كامل ولائنا وخضوعنا"[1].

---

(1) لمزيد من التفصيل انظر:

Sudan Loyalty: Chief's Deputation to the King", *Morning Bulletin* (Rockhampton, Qld.: 1878 1954), Wednesday 8 October 1919, page 12, National Library of Australia http://nla.gov.au/nla.newsarticle53871922, accessed 5/1/2015; an account of the visit to H.M. the King of a deputation of Sudanese notables, 28 July 1919 (SAD.204/1/31-117).

نشر هذه الكلمة بدرين حامد الهاشمي في مقال بعنوان "ولاء السُّودان: مقابلة زعماء السُّودان للملك"، والمقال عبارة عن ترجمة للتقرير الذي أوردته صحيفة (Morning Bulletin) الأسترالية، بتاريخ 1919/10/8، عن زيارة وفد الزعماء السُّودانيين لبريطانيا لتهنئة الملك جورج بالانتصار في الحرب العالمية الأولى. المصدر صحيفة الراكوبة، (http://www.alrakoba.net/articles-action-show-id-54035.htm)، تاريخ الاستشارة، 2015/1/1.

الفصل السادس

الوطنيون الليبيون والصراع بين دول التحالف ودول المحور

د. عبد المجيد الجمل
أستاذ التاريخ المعاصر بكلية الآداب والعلوم الإنسانية
بجامعة صفاقس، تونس

كانت للحرب العالمية الأولى تداعيات خطيرة على المستعمرات بإفريقيا، ومن بينها ليبيا، التي لم تخضع بالكامل للهيمنة الإيطالية عند اندلاع الحرب في يوليو/تموز 1914. لقد وفّر هذا الحدث إطارًا ملائمًا لتجذير نضال الليبيين ضد الاستعمار الإمبريالي الإيطالي. وبرز ذلك من خلال الثورة التي اندلعت بفزان في خريف 1914 وشملت كامل إقليم طرابلس، وتمكّن الليبيون خلالها من تحقيق العديد من الانتصارات، من أبرزها ملحمة القرضابية[1] بسرت يوم 29 أبريل/نيسان 1915 التي

(1) معركة القرضابية، أبرز معركة في تاريخ المقاومة الليبية ضد الاستعمار الإيطالي نشبت يوم 29 أبريل/نيسان 1915 قرب القرضابية (قصر أبو هادي) بمنطقة سرت الكبرى، تم فيها إبادة أكثر من ثلاثة آلاف جندي إيطالي بحسب بعض المصادر، وهي أبرز هزيمة في تاريخ الاستعمار الإيطالي بليبيا. ويُعزى حجم الخسائر الكبير إلى تمرد رمضان السويحلي (كان معه حوالي 3500 جندي ليبي) وهو الذي كان مع القوات الإيطالية في مؤخرة الجيش. ولما اندلعت المعركة أمر رمضان السويحلي بإطلاق النار على الإيطاليين، حيث لم ينجُ من الموت سوى المحيطين به. وغنم الليبيون 5 آلاف بندقية وعددًا كبيرًا من الرشاشات والمدافع. وبالإضافة إلى حجم الخسائر فإن شهرة معركة القرضابية ترجعُ أيضًا إلى مشاركة الليبيين من كل المناطق (إقليم طرابلس وبرقة) فيها.

تبلور خلالها إطار جديد للنضال تمثّل في "الوطنية الليبية". وكان من أبرز نتائج هذه الثورة طرد الاستعمار الإيطالي من كامل فزان وأغلب مناطق إقليم طرابلس الغرب والمناطق الداخلية لبرقة حتى أصبح منحصرًا في مناطق ساحلية محدودة بمدينة طرابلس، والخمس، وزواره، وبنغازي، وبرقة، وطبرق، وسوسة[1].

ارتبطت انتصارات المقاومة الليبية بالعديد من العوامل الداخلية والخارجية، من بينها سياسة الحياد التي اتبعتها المقاومة تجاه القوى المتحاربة بين 1914 و1916، لكن هذه الاستراتيجية سرعان ما تغيرت؛ إذ انخرط قائد الحركة السنوسية أحمد الشريف[2]، بفعل الضغوط العثمانية والألمانية، في سياسة "الجهاد"، التي دعا إليها السلطان العثماني؛ مما جعل قواتها تهاجم القوات الإنجليزية بمصر بالتنسيق مع العديد من القيادات التركية والألمانية. وكانت لهذه السياسة انعكاسات خطرة على المقاومة الليبية، التي تكبّدت خسائر كبيرة؛ مما وفّر الإطار الملائم لصعود محمد إدريس السنوسي لقيادة الحركة (1917-1969)؛ فسلك سياسة مفاوضات مع دول الوفاق بقيادة إنجلترا، كان من نتائجها عقد العديد من المعاهدات مع كل من إنجلترا وإيطاليا بين 1917 و1920، حصل السنوسيون بمقتضاها على حكم ذاتي بدواخل برقة. وانخرطوا أيضًا في الحرب ضد تركيا وحلفائها الطرابلسيين، الذين واصلوا تحالفهم مع الإمبراطورية العثمانية إلى سنة 1918 تاريخ استسلامها وتوقيعها اتفاقية "مودروس" التي تخلّت بمقتضاها نهائيًّا عن ليبيا. وهذا ما جعل الطرابلسيين يسارعون بإعلان الجمهورية الطرابلسية التي حصلت على حكم ذاتي بإقليمي طرابلس وفزان، مشابه للحكم الذاتي الذي حصل عليه محمد إدريس السنوسي ببرقة.

في هذا السياق، وانطلاقًا من المصادر الفرنسية والإنجليزية وبعض الوثائق الليبية سنحاول الكشف عن جزء من تاريخ الحرب العالمية الأولى بإفريقيا بصفة

(1) Burgat, François et Laronde, André: *La Libye*, PUF, Paris,1996, p. 30.

(2) أحمد الشريف السنوسي، الزعيم الثالث للحركة السنوسية، وُلد سنة 1873 بواحة الجغبوب، وقاد الحركة السنوسية بين 1902 و1917 تاريخ هزيمته أمام الإنجليز مما وفّر الإطار الملائم لصعود محمد إدريس السنوسي. انسحب أحمد الشريف بعد هزائمه أمام الإنجليز من برقة إلى إقليم طرابلس حيث خرج سنة 1918 من ميناء البريقة إلى تركيا على متن غواصة ألمانية، وبعد ذلك سافر إلى الحجاز حيث توفي سنة 1933.

عامة وطرابلس الغرب[1] بصفة خاصة، وذلك من خلال المحاور التالية:

- تطور مواقف الوطنيين بليبيا من الصراع بين المحور والحلفاء.
- ردود أفعال إنجلترا وفرنسا تجاه تحول مواقف الوطنيين بليبيا.

أولًا: تطور مواقف الوطنيين بليبيا من أطراف النزاع أثناء الحرب العالمية الأولى: ثورة 1914 ضد الاستعمار ومواصلة سياسة الحياد تجاه القوى المتحارية

أ- المقاومة قبيل الحرب العالمية الأولى وبداية تبلور فكرة "الوطنية"

تمكنت إيطاليا قبيل الحرب العالمية الأولى من السيطرة على أغلب المناطق بليبيا، فمثلاً إقليم طرابلس الغرب تم اكتساحه في شهر مارس/آذار 1913؛ وهذا ما جعل سليمان الباروني[2] قائد هذه المنطقة يفر إلى تونس ومنها إلى إسطنبول[3]، بعد هزيمة 27 مارس/آذار 1913[4]. أمّا برقة فقد أصبحت بعد خضوع إقليم طرابلس مركز المقاومة، بقيادة أحمد الشريف زعيم الحركة السنوسية، مُحققة عدة

---

(1) إيالة طرابلس الغرب، كانت تُطلق في الفترة العثمانية على ليبيا الحالية (إقليم برقة وطرابلس وفزان)، و لم تطلق كلمة ليبيا في الفترة المعاصرة على هذه الأقاليم الثلاثة إلا سنة 1933.

(2) سليمان الباروني، أحد زعماء منطقة طرابلس الذين ينتمون إلى القبائل البربرية. وُلد سنة 1870 ودرس الأدب العربي. أسهم في المقاومة بين 1911 و1913. انتقل إلى تركيا بعد هزيمة 1913، ثم رجع إلى ليبيا سنة 1916. وكان من المساهمين في إعلان الجمهورية الطرابلسية سنة 1918.

(3) شكّلت هزيمة سليمان الباروني قائد المقاومة بطرابلس يوم 23 مارس/آذار 1913، نجاحًا مهمًّا للاستعمار الإمبريالي الإيطالي، فعلى إثرها دخلت القوات الإيطالية يوم 27 مارس/آذار 1913 مدينة مصراته. وإثر هذه المعركة انسحبت بقايا قوات سليمان الباروني إلى نالوت ومنها إلى تونس، وكان من بينهم سليمان الباروني الذي هاجر بعد ذلك إلى تركيا. وبعد هذه المعركة تمكنت القوات الإيطالية من غزو فزان حيث سقط آخر معاقل المقاومة فيها مع بداية مارس/آذار 1913. يمكن الرجوع إلى بروشين، نيكولاي إليتش، **تاريخ ليبيا من نهاية القرن التاسع عشر**، مرجع مذكور سابقًا، ص 169، وكذلك:
Droz, Bernard et Rowly, Antony: *Histoire Générale du XX^e siècle*, Première Partie Jusqu'en 1949, Inédit, Histoire, Paris, 1986.

(4) F.O. 371/2931, *The War in Egypt, Cyrenaica, Fezzan: Brief summary of events.*

انتصارات ضد الاستعمار الإمبريالي الإيطالي. وكان مطلبها الاستقلال في إطار جديد عن الخلافة العثمانية، في برقة كحدٍّ أدنى وكامل ليبيا كحد أقصى[1]. ومثّلت المطالبة باستقلال ليبيا إعلانًا عن خطوة جديدة على مستوى تشكُّل الهوية أو الهويات الوطنية الليبية التي تجذّرت كردٍّ فعل على معاهدة أوشي[2] والغزو الإيطالي لليبيا.

إن الحديث عن تشكُّل "هويات وطنية ليبية" أثناء الحرب العالمية الأولى ارتبط بعدة عوامل من بينها تضارب مصالح القيادات القَبَلية والزعامات المحلية. وعمل الاستعمار على استغلال التناقضات بين السنوسيين والزعامات الطرابلسية التي برزت أثناء المواجهات بين السنوسيين وأنصار سليمان الباروني إثر معركة القرضابية، والتي كان هدفها منع امتداد نفوذ السنوسيين إلى منطقة طرابلس. وأسهم أيضًا انقسام الليبيين، بعد صعود محمد إدريس السنوسي، بين شرق مساند لقوى التحالف بقيادة إنجلترا وغرب مساند لألمانيا وحلفائها في تدعيم تشكُّل أكثر من وطنية، كما أكّد ذلك العديد من المؤرخين[3]، مع العلم بأن الهوية الوطنية الليبية، التي تدعم تشكلها أثناء الحرب العالمية الأولى تعود جذورها إلى فترة حكم القارمنليين[4].

إن مسالة وجود "وطنيتين" بليبيا تأكدت مع نهاية الحرب العالمية الأولى من خلال إعلان الزعامات الطرابلسية عن قيام الجمهورية الطرابلسية يوم 16 نوفمبر/تشرين الثاني

---

(1) ليسير، فتحي: **تجربة الحكم الذاتي في ليبيا 1918–1923، قراءة في حدود التجربة ومُحددات إخفاقها**، أعمال الندوة الدولية العاشرة حول المغرب العربي في العشرينات، المنعقد بنزل السفراء أيام 5 و6 مايو/أيار 2000، منشورات المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، سلسلة تاريخ الحركة الوطنية، عدد 10، تونس 2001، ص 16.

(2) تم توقيعها بين الإمبراطورية العثمانية وإيطاليا في 15 أكتوبر/تشرين الأول 1912 في أوشي بضواحي لوزان، وتم بمقتضاها عقد الصلح والتزم السلطان العثماني بسحب قواته من ليبيا وإصدار فرمان خلال ثلاثة أيام يمنح بموجبه الحكم الذاتي لبرقة وطرابلس.

(3) ليسير: **تجربة الحكم الذاتي في ليبيا**، مرجع سابق، ص 16.

(4) المرحلة القارمنلية نسبة إلى الدولة القارمنلية بليبيا (1711–1835)، نسبة إلى أحمد قارمنلي، وهو مملوك تركي عيَّنه الأهالي بليبيا، وقد أسَّس حُكمًا وراثيًا تواصل إلى 1835، تاريخ التدخل العثماني من جديد وإعادة السيطرة المباشرة على طرابلس الغرب.

1918. ومما أعلنه بيان لها بالمناسبة "تفتخر الأمة الطرابلسية بتتويج استقلالها بإعلان الحكم الجمهوري"[1]. إن الإعلان الصريح في مراسلات الطرابلسيين عن "أُمَّة وقُطر طرابلسي" يُقصد به المجال الجغرافي لإقليم "طرابلس الغرب وفزان" كما أكّدت ذلك انتماءات العناصر الممثّلة لمجلسي الحكومة والشورى، وتزامن ذلك مع تمتع السنوسيين بحكم ذاتي بمنطقة برقة بقيادة إدريس السنوسي.

ب- اندلاع الحرب العالمية وبداية الثورة بفزان

بعد انضمام الإمبراطورية العثمانية يوم 11 نوفمبر/تشرين الثاني 1914 إلى ألمانيا وحلفائها، كثّف العديد من العناصر الموالية للسلطان العثماني الدعاية للثورة ضد إيطاليا[2]. وفي هذا السياق الدولي الملائم اندلعت الثورة بفزّان التي كانت لها أهمية استراتيجية كبيرة بالنسبة للمقاومة الليبية؛ لأن سيطرة الاستعمار الإيطالي الدائمة عليها تعني السيطرة على كامل ليبيا، فاستغلت الحركة السنوسية اندلاع الحرب العالمية الأولى في 28 يوليو/تموز 1914، لإعلان الثورة بإقليم فزان. وبحسب العديد من المصادر وبالخصوص الفرنسية والإنجليزية، اندلعت هذه الثورة في أكتوبر/تشرين الأول 1914[3]، وخاضت خلالها المقاومة الليبية العديد من المعارك ضد الحاميات الإيطالية، نذكر من بينها:

- بين 27 و28 نوفمبر/تشرين الثاني 1914، قام الثائرون بمهاجمة الحامية الإيطالية بسبها (قلب فزان) وكبّدوا الإيطاليين خسائر فادحة مما أجبرهم على الانسحاب.
- سيطر الثائرون بين 9 و10 نوفمبر/تشرين الثاني 1914 على قاعدة أوباري (Obari)، الواقعة بالجنوب الغربي لفزان على التخوم

---

(1) الصلابي، محمد: **تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا**، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 2009، ص 385.

(2) *Archives Diplomatiques: Guerre 1914-1918,* Le Résident Général de la République Française à Monsieur Ribot, Président du Conseil, Ministère des Affaires Etrangères.

(3) F.O. 371/2931, *The War in Egypt*, F.O. 371/2665, *The History and Enclopaedia of War*, Part 112, Vol. 10, *The Senussi and Western Egypt.*

الجزائرية وأجبروا الإيطاليين على الانسحاب[1].

- أواخر ديسمبر/كانون الأول 1914 أجبرت المقاومة الليبية الإيطاليين على الانسحاب من مرزق الواقعة جنوب سبها، وكذلك من سوكنه وودان القريبتين منها وأجبرتها على الانسحاب. وفي نفس الفترة انسحبت حامية غات إلى الجزائر.

ج- انتشار الثورة وانحسار مجال الاستعمار الإيطالي

تمكنت المقاومة الليبية بقيادة الحركة السنوسية بإقليم فزان مع بداية الحرب من تحقيق عدة انتصارات ضد الإيطاليين، الذين أُجبروا على الانسحاب إلى الوسط ثم الشمال والشمال الغربي، وكان ذلك إعلانًا عن انتشار الثورة في هذه المناطق، التي حقّقت عدة انتصارات، نذكر منها:

- طرد الإيطاليين من حاميات غدامس وسيناون، على التخوم التونسية في يناير/كانون الثاني 1915؛ مما أجبر القيادة العسكرية الإيطالية على سحب أغلب قواتها إلى مصراته. وفي نفس الوقت نجح السنوسيون بدعم كبير من عائلة سيف النصر في إجبار الإيطاليين على الانسحاب من ودان وسوكنة في فبراير/شباط 1915.

وفي 29 أبريل/نيسان 1915، نشبت معركة كبرى قرب (قصر أبو هادي) في منطقة خليج سدره (منطقة سرت الكبرى) بعدما تمرد رمضان السويحلي ضد الإيطاليين، وكان يقود كتيبة من الليبيين إلى جانب الإيطاليين، ولم يفلت من المعركة سوى العقيد مياني والمحيطين به. وتعتبر هذه المعركة من أبرز انتصارات الشعب الليبي ضد الاستعمار الإيطالي، وهي أول معركة يتوحد فيها الليبيون (من برقة، وطرابلس، وفزان)، وفيها توحدت جهود صفي الدين السنوسي ممثل برقة والقائد الطرابلسي رمضان السويحلي.

لقد أسهمت هذه المعركة في انسحاب الجيش الإيطالي من أغلب المواقع، ولم تُبقِ له إلا الخمس وقصر أحمد وتاجو وراء وطرابلس، وكذلك نالوت التي كان

---

(1) Ibid.

يقود فيها المقاومة خليفة بن عسكر بعدما أعلن ولاءه للحركة السنوسية. وبدون الدخول في تفاصيل مراحل وأسباب الحرب التي خاضها خليفة بن عسكر ضد الإيطاليين، فما يمكن التأكيد عليه أن هذه المعركة بدأت في 28 نوفمبر/تشرين الثاني 1914، تاريخ الكمين الذي نصبه خليفة بن عسكر لفرقة عسكرية بوادي نالوت، وقد انتهى بإبادتها. وقد أصبح خليفة بن عسكر في أواخر يوليو/تموز 1915 سيد نالوت بعد نجاح عملياته وانسحاب أغلب القوات الإيطالية منها.

وهكذا، فإن الثورة التي اندلعت بفزان في خريف 1914 ثم انتشرت إلى العديد من المناطق، وبالخصوص إقليم طرابلس، ألحقت هزائم عديدة بالإيطاليين الذين أصبح حضورهم بإقليم طرابلس سنة 1916 لا يتجاوز مدن طرابلس والخمس. أمّا في برقة فاقتصر على بنغازي وطبرق وسيران وأبولونيا[1]، وتزامن ذلك مع سياسة الحياد التي سلكتها بالخصوص الحركة السنوسية تجاه القوى المتحاربة إلى حدود هذه الفترة.

ثانيًا: التخلي عن الحياد وإعلان الجهاد بليبيا ضد فرنسا وإنجلترا

أ- خلفيات إعلان الجهاد

لقد أولْت المصادر الإنجليزية والفرنسية اهتمامًا كبيرًا لهذه المسألة. وإجمالاً، هناك إجماع على كون أحمد الشريف قائد الحركة السنوسية بليبيا (1902-1916)، كان في بداية الحرب العالمية رافضًا التحالف مع ألمانيا والإمبراطورية العثمانية ضد إنجلترا وفرنسا. ومما ذكره أحد المصادر الإنجليزية: "كانت علاقات أحمد الشريف مع الإنجليز بمصر، مع بداية الحرب العالمية الأولى ودية؛ حيث كان السنوسيون يحصلون على المؤنة والمعدات العسكرية انطلاقًا من منطقة السلوم بمصر، بعلم من السلطات الإنجليزية[2]. ومما ذكرته أيضًا مراسلة من المقيم العام الفرنسي بتونس، ريبوت إلى وزير خارجية بلاده بتاريخ 3 أغسطس/آب 1917 "بعدما ساهمت الدعاية التركية في اندلاع الثورة بليبيا فإن السيد أحمد الشريف خضع لضغوط

(1) Burgat et Laronde, *La Libye*, p. 44.

(2) F.O. 371/2665, *The History and Encyclopedia of the War.*

مبعوثي الإمبراطورية العثمانية وألمانيا وانخرط في سياسة الجهاد ضد الحلفاء"[1].

انطلاقًا من هذه الوثائق المصدرية بإمكاننا الإقرار بأن الحركة السنوسية وخصوصًا بإقليم برقة والمناطق المجاورة لها، كانت قبل أواخر سنة 1915 ترفض الدخول في مغامرات غير محسوبة وإعلان الحرب ضد إنجلترا، لكن مع تطور الأحداث غيَّرت الحركة السنوسية من مواقفها وأعلنت الجهاد ضد الإنجليز بمصر انطلاقًا من برقة. ويمكن تفسير هذا الموقف بالعوامل التالية:

- إعلان السلطان العثماني الجهاد وتعيينه لأحمد الشريف نائبًا له بكامل منطقة شمال إفريقيا[2].
- الانتصارات السريعة التي حققتها ألمانيا وحلفاؤها مع بداية الحرب العالمية الأولى[3].
- الخديعة التي أوقعه فيها جهاز المخابرات العثمانية.

ب- الجهاد بليبيا ضد إنجلترا وفرنسا أثناء الحرب العالمية

برز ذلك من خلال إعلان أحمد الشريف السنوسي تحالفه مع العديد من القيادات العثمانية ضد إنجلترا. وفي نفس الوقت دخول خليفة بن عسكر في مواجهات مع فرنسا بتونس. وكان لهذه السياسة انعكاسات خطيرة على الحركة الوطنية الليبية.

فبالنسبة لإعلان الجهاد ضد إنجلترا بدأت بوادره الأولى في أغسطس/آب 1915. أمَّا الحرب الحقيقية فبدأت في نوفمبر/تشرين الثاني 1916[4]؛ حيث شنَّ السنوسيون بالتعاون مع الأتراك هجومًا على القوات الإنجليزية بمصر، تمكنوا من خلاله من السيطرة على العديد من المواقع، كما أكَّد ذلك العديد من المصادر الإنجليزية والفرنسية. ومما ذكره تقرير إنجليزي بتاريخ 9 فبراير/شباط 1917، حصلت الخارجية الفرنسية على نسخة منه ما يلي "في 8 فبراير/شباط 1917، نجحت قواتنا في ملاحقة القوات

---

(1) *Archives Diplomatiques: Guerre 1914-1918*, La Dépêche Politique du Caire, Février 1917.9

(2) F.O. 371/2931, *The War in Egypt.*

(3) مصطفى، أحمد عبد الكريم: **في أصول التاريخ العثماني**، دار الشروق، القاهرة 1968.

(4) *Archives Diplomatiques: Guerre 1914-1918.*

السنوسية، التي كانت متمركزة بواحة سيوة والمناطق المجاورة لها... هذه الحملة الناجحة ستكون نتائجها خطيرة على المسألة السنوسية". وفعلاً بعدما نجحت القوات الإنجليزية في طردهم من مصر واصلت مهاجمتهم ببرقه؛ مما ساهم في حدوث خلافات بين القيادات السنوسية مهَّدت للمفاوضات مع الإنجليز والإيطاليين وطرد الأتراك من برقة في أواخر 1917. **أمَّا في الغرب فتواصل التحالف بين الأتراك والمقاومة الليبية بغرب ليبيا**؛ حيث انتقلت الحرب بين خليفة بن عسكر النالوتي والقوات الإيطالية من ليبيا إلى تونس، وواجهتها فرنسا بعنف شديد مستعملة الطائرات والغازات المحرمة دوليًّا.

لقد بدأت العمليات ضد فرنسا في سبتمبر/أيلول 1915 وتواصلت إلى 1918. وبحسب المصادر الفرنسية فإن ذلك مرتبط بتواصل احتجاز عائلة خليفة بن عسكر بقبلي وإقفال السلطات المحلية الأسواق الحدودية وخاصة سوق ابن قردان في وجه سكان الجبل الغربي. ومن أهم العمليات ضد فرنسا نذكر **معركة ذهيبة الأولى بين 18 و23 سبتمبر/أيلول 1915**، التي شاركت فيها قبيلة الودارنة التونسية[1].

ثالثًا: نتائج التحالف مع ألمانيا وحلفائها

أ- صعود إدريس السنوسي[2]

يعتبر صعود محمد إدريس السنوسي إلى قيادة الحركة السنوسية سنة 1916 من أبرز نتائج انخراط أحمد الشريف (1902-1916) في التحالف العثماني - الألماني سنة 1915. وبالتالي شكَّل نصرًا لدول التحالف بقيادة إنجلترا، لأن إدريس

---

(1) Goldstien, Daniel: *Libération ou Annexion? Aux Chemins Croisés de l'Indépendance, 1914-1922* MTE Tunisie, 1978, p. 149.

(2) محمد إدريس السنوسي (1916-1969)، هو ابن المهدي السنوسي وحفيد مؤسس الحركة السنوسية، محمد بن علي السنوسي، وُلد في 12 مارس/آذار 1890، بزاوية الجغبوب. توفي أبوه سنة 1902، وهو لم يتجاوز اثنتي عشرة سنة؛ مما جعل السُّلطة تُنقل إلى ابن عمه أحمد الشريف، الذي أصبح القائد الفعلي للحركة السنوسية. ووفَّرت الحرب العالمية الأولى وخاصة تحالف أحمد الشريف الإطار الملائم لعودة إدريس السنوسي لقيادة الحركة، بعدما ناهض بشدة سياسة ابن عمِّه، وبقي زعيمًا للحركة السنوسية بين 1916 و1969، تاريخ انقلاب معمر القذافي عليه وإزاحته من السلطة.

السنوسي معروف بمناهضته للتحالف مع المحور، كما أكدت ذلك رسالة عثرنا عليها بوثائق الخارجية الفرنسية، وجهها إلى ابن عمه أحمد الشريف بتاريخ 15 فبراير/شباط 1916، يحثّه فيها على إيقاف الحرب ضد إنجلترا فورًا، والانخراط معها في مقاومة الإمبراطورية العثمانية وألمانيا، أسوة بالشريف حسين. ومما ورد فيها نقتطف التالي "إن الأتراك لم يفوا بتعهداتهم تجاهك، وليس لهم القدرة على غزو مصر. حري بك أن تستلهم من سياسة الشريف حسين، الذي تحالف مع إنجلترا، أو السيد إدريس باليمن الذي وقف على الحياد. إني أنصحك بالانسحاب فورًا من منطقة الداخلة بمصر لأن الإنجليز يُعدُّون لهجوم كبير ضدكم"[1].

إن هذه المواقف التي عبَّر عنها إدريس السنوسي مهَّدت له الطريق لزعامة الحركة السنوسية مكان أحمد الشريف، خاصة أنه معروف قبل هذه الفترة بصداقته للإنجليز[2]. ومما قاله الكاتب الإنجليزي بوهانس بريتشارد حول هذه المسألة: "أثناء سفر السيد إدريس السنوسي إلى الحج في فبراير/شباط 1914، استقبله اللورد الإنجليزي كيتشنر بمصر، وصار الإنجليز بمصر يثقون فيه كثيرًا منذ تلك الفترة"[3]. وهذا ما سهَّل المفاوضات السنوسية مع كل من إنجلترا وإيطاليا، بعد هزيمة أحمد الشريف أمام الإنجليز. ومن أبرز نتائج هذه المفاوضات نذكر:

- الاتفاق الإنجليزي – السنوسي المعروف باتفاق عكرمة (بمنطقة طبرق) بتاريخ 6 أبريل/نيسان 1917، وهو عبارة عن اتفاق لوقف الحرب مع الإنجليز والتحالف معهم ومع دول الوفاق بصفة عامة. ومما نص عليه هذا الاتفاق رفع الحصار عن السنوسيين والسماح لهم بشراء وبيع السلع بمنطقة السلوم بمصر، مقابل تعاون السنوسيين مع الإنجليز في حربهم ضد العثمانيين، الذين تم طردهم سنة 1917 نهائيًّا من برقة.

---

(1) *Archives Diplomatiques*: *Guerre 1914-1918*, Tunisie 1914-1918, (Secret).

(2) Jmel, Abdelmajid: La Libye, l'Islam et la Première Guerre Mondiale, *Libération*, 9 Janvier 2015: http://libeafrica4.blogs.liberation.fr/2015/01/09/la-libye-lislam-et-la-premiere-guerre-mondiale/(accessed on 15 January 2016).

(3) Evans-Pritchard, E. E: *The Sanusi of Cyrénaica*, Oxford, 1949. Ziadeh N. A: Sanusiyah; Leiden, 1958.

- إن اتفاق أبريل/نيسان 1917 الإنجليزي - السنوسي كان من أبرز نتائج هزيمتهم ضد إنجلترا، ومما نصَّ عليه: منح السنوسيين الحكم الذاتي ببرقة وانضمامهم إلى دول التحالف في حربهم ضد دول المحور. ولقد تزامن مع اتفاق مماثل مع إيطاليا، نَصَّ أيضًا على إيقاف الحرب وتحالف السنوسيين معهم ومع إنجلترا في محاربة الأتراك وطردهم من برقة.

ب- الحرب بين الحركة السنوسية وتركيا والزعامات الطرابلسية أثناء الحرب العالمية الأولى

يعتبر قرار الانضمام لألمانيا وحلفائها من أبرز وأخطر القرارات التي اتخذها أحمد الشريف زعيم الحركة السنوسية والزعامات الطرابلسية، مثل: سليمان الباروني ورمضان السويحلي وأحمد المريض؛ حيث أسهمت هزيمتهم في إزاحة أحمد الشريف من السلطة وصعود صديق الإنجليز إدريس السنوسي لقيادة الحركة السنوسية، مما أسهم في تحولات جذرية في السياسة الخارجية للحركة، برزت من خلال إيقاف الحرب ضد إنجلترا وعقد معاهدات تحالف معها ومع إيطاليا سنة 1917 وإعلان الحرب ضد الإمبراطورية العثمانية.

لقد بدأت هذه الحرب في أواخر سنة 1916 إثر بداية المفاوضات بين إدريس السنوسي والإنجليز مما جعل الأتراك يتهمون إدريس السنوسي بالعمالة للإنجليز[1] ويشنُّون على مقره بأجدابيا حملة عسكرية، لكن السنوسيين بقيادة عمر المختار حاصروهم وأجبروهم على مغادرة المنطقة إلى طرابلس. وكان من نتائج هذه المعارك اعتقال العشرات من الأتراك بإقليم طرابلس وإرسال بعضهم إلى واحة الجغبوب والبعض الآخر إلى واحة الكفرة[2].

أمَّا بفزَّان فكان النصر حليف العثمانيين وأنصارهم حيث قاموا بطرد السنوسيين من فزان[3].

---

(1) F.O. *The Times History and Encyclopedia of the War*, Part 112, Vol. 9.

(2) Jmel: La Libye. op cit.

(3) بروشين نيكولاي إيليتش، **تاريخ ليبيا**، ص 162.

ج- انقسام الحركة الوطنية الليبية

يعتبر الانقسام أيضًا من أخطر نتائج تضارب التحالفات بداية من سنة 1916؛ فقد أفرز حُكمًا ذاتيًّا بإقليم برقة منذ 1917 في إطار مَلَكي وحكمًا ذاتيًّا في إطار جمهوري بمنطقتيّ طرابلس وفزان على إثر هزيمة الإمبراطورية العثمانية وتوقيعها وثيقة الاستسلام مع الحلفاء سنة 1918.

فبالنسبة للحكم الذاتي ببرقة يعتبر من أبرز نتائج هزيمة أحمد الشريف السنوسي أمام الإنجليز سنة 1917. وارتبط أيضًا بصعود محمد إدريس السنوسي لقيادة الحركة السنوسية، لأنه كان من الرافضين الأشداء لتحالف ابن عمِّه أحمد الشريف مع ألمانيا وتركيا.

إن القيادة السنوسية الجديدة عقدت عدَّة اتفاقيات مع الإنجليز والإيطاليين بقيادة إدريس السنوسي، ومن بينها معاهدة 6 أبريل/نيسان 1917 بمنطقة عكرمة بطبرق و14 أبريل/نيسان 1917 مع إيطاليا بنفس المكان، وكذلك اتفاق الرجمة في أكتوبر/تشرين الأول 1919. لقد وقَّع السيد محمد إدريس السنوسي هذه الاتفاقات بعد القطيعة النهائية مع الإمبراطورية العثمانية وبدون مشاورات مع الطرابلسيين. وامتد مجال حكمه الذاتي على جميع أراضي برقة الممتدة من الحدود المصرية الليبية شرقًا إلى قصر سرت غربًا، ما عدا المنطقة الساحلية الخاضعة للسيادة الإيطالية[1]. ولقد نصَّت أيضًا هذه الاتفاقات على طرد الألمان والأتراك من برقة؛ مما يعني القطيعة مع الطرابلسية، الذين أصبحوا جزءًا من الإمبراطورية العثمانية؛ مما جعلهم يواصلون المقاومة إلى حوالي 31 مارس/آذار 1918، تاريخ توقيع الإمبراطورية لاتفاقية استسلامها بجزيرة مودروس[2].

لقد أعلنت اتفاقية مودروس استسلام الدولة العثمانية والتزامها بالانسحاب من ليبيا كما أكَّد ذلك البندان 18 و19 من المعاهدة. وهذا ما جعل زعامات إقليم طرابلس، تسارع إلى دعوة زعماء قبائل الغرب الليبي (من سرت إلى الحدود التونسية وكامل منطقة فزان) إلى عقد اجتماع بمسجد المجابرة بمسلاتة يوم 16

---

(1) نفس المرجع، ص 171.

(2) نفس المرجع، ص 216.

نوفمبر/تشرين الثاني 1918. وتم أثناء هذا الاجتماع الإعلان عن قيام الجمهورية الطرابلسية وبعث مجلس رباعي يتكون من رمضان السويحلي وسليمان الباروني وأحمد المريض وعبد النبي بلخير للقيادة.

إثر هذا الإعلان سارع قادة الجمهورية إلى دعوة إيطاليا إلى التفاوض الذي انتهى في 1 يوليو/تموز 1919 بالتوقيع بين الطرابلسيين والإيطاليين على وثيقة الصلح المعروف بصلح "بنيادم"، والذي أعلن عن نهاية الحرب التي بدأت سنة 1911. وفي نفس اليوم صدر القانون الأساسي أو الدستور، الذي قبلت إيطاليا بموجبه حكم إقليم طرابلس بمعية حكومة وطنية، على غرار ما تم في برقة مع السنوسيين سنة 1917.

رابعًا: السياسة الفرنسية والإنجليزية وانعكاساتها على الحركة الوطنية الليبية

أ- من التضارب إلى التنسيق المؤقت

سلكت إنجلترا منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى نوفمبر/تشرين الثاني 1916، سياسة تعاون مع السنوسيين. وحري بنا الإشارة بسرعة إلى أن مرحلة التعاون تجسَّمت من خلال السماح للسنوسيين بالحصول على العديد من حاجاتهم من المناطق المصرية، التي كانت تحت السيطرة الإنجليزية منذ 1882؛ وهذا ما أثار حفيظة كل من فرنسا وإيطاليا[1]. وسمحت هذه السياسة للمقاومة الليبية بتحقيق عدَّة انتصارات ضد إيطاليا بإقليم فزان قبيل الحرب العالمية الأولى[2] ومع بدايتها، كما أشرنا إلى ذلك سابقًا. ولقد كانت إنجلترا حريصة جدًّا على تحييد

(1) *Archives Diplomatiques: Guerre 1914-1918*, Tunisie 1917-1940, Dossier No.1, 3 Août 1917.

(2) من الانتصارات التي حققتها المقاومة السنوسية ضد إيطاليا قبيل الحرب العالمية الأولى نذكر معركة وادي القرباع (على ضفتي وادي درنة) يوم 16 مايو/أيار 1913، وهي أول معركة يساهم فيها أحمد الشريف. يمكن الرجوع إلى محمد علي الصلابي: **تاريخ الحركة السنوسية بإفريقيا**، دار المعرفة، بيروت لبنان 2009، ص 273.

الحركة السنوسية بقيادة أحمد الشريف؛ حيث وعدته بدعمه في الحصول على الاستقلال، إذا ما ساندها أو وقف على الحياد، كما أكّدت ذلك المصادر الإنجليزية[1]. وبالرغم من التزام أحمد الشريف السنوسي بهذه السياسة منذ بداية الحرب العالمية الأولى إلى سنة 1915، فإنه سرعان ما غيَّر مواقفه وتحالف مع العثمانيين وألمانيا.

أمَّا بالنسبة لفرنسا فقد كانت قبل الحرب العالمية الأولى في حالة حرب مع الحركة السنوسية بعدة مناطق بإفريقيا وخصوصًا أثناء توسعها بشمال تشاد مع بداية القرن العشرين؛ مما جعلها تصطدم بالسنوسيين في عدة معارك، مثل معركة بئر العلالي يوم 9 نوفمبر/تشرين الثاني 1901. ولم يستتب الأمر لفرنسا بتشاد إلا حوالي 1910، بعد هزيمتهم للحركة السنوسية وانسحابها إلى فزان[2]. أمَّا مع بداية الحرب العالمية الأولى فإن فرنسا سلكت سياسة تعاون مع إيطاليا، فأثناء ثورة فزان وإقليم طرابلس فرَّ العديد من الحاميات الإيطالية إلى تونس، وقامت بنجدتها القوات الفرنسية مما مثّل أحد العوامل التي تفسِّر توسع حرب خليفة بن عسكر بنالوت إلى تونس وتحالفها مع العديد من القبائل التونسية.

لقد مثّل هجوم الحركة السنوسية على مصر عاملاً مهمًّا في بروز تنسيق أمني بين إنجلترا وفرنسا. وبرز هذا التنسيق على عدة مستويات منذ انضمام الإمبراطورية العثمانية إلى المحور في نوفمبر/تشرين الثاني 1914؛ ففي البداية قامت البحرية الفرنسية - الإنجليزية بتنسيق كبير لوقف الإمدادات التي تأتي للحركة السنوسية من الخارج[3]. وفي هذا السياق تم في بداية أغسطس/آب 1915 حجز كميات كبيرة من المؤنة كانت متوجهة للسنوسيين ببرقة، من قبل البحرية الفرنسية والإنجليزية[4]. وبرز ذلك أيضًا من خلال انضمام فرنسا للمعاهدات بين السنوسيين وإيطاليا وإنجلترا.

---

(1) F.O. 371, 2665, *The Times History and Encyclopedia of the War.*

(2) Martel, André: *La Libye 1835-1990, Essai de Géopolitique Historique*, PUF, p. 79.1991

(3) *Archives Diplomatiques, Guerre 1914-1940.*

(4) Martel: *La Libye 1835-1990, p.* 107.

ب- دور مهم للإنجليز في إقامة السلم بليبيا

مثّلت ليبيا بالنسبة للإنجليز مجالاً مهمًّا بالنسبة لأمن المتوسط بصفة عامة ومصر بصفة خاصة. وعلى هذا الأساس أولت إنجلترا أهمية كبيرة للمسألة الليبية، وكان لها دور في إقناع إدريس السنوسي بالتفاوض والتخلي عن ألمانيا والإمبراطورية العثمانية. وبالإضافة إلى ذلك، فإنها قامت أيضًا بدور في تقريب وجهات النظر بين إيطاليا والحركة السنوسية، وقامت بنقد لاذع للإيطاليين الذين اعتبرهم غير قادرين على الحرب وكذلك على إدارة المفاوضات. وبالفعل فقد أقنعت إنجلترا الإيطاليين بمنح حكم ذاتي للسنوسيين ببرقة والطرابلسيين بإقليم طرابلس.

لقد ارتبطت مواقف إنجلترا بعدة عوامل ومن بينها سياستها الاستعمارية التي شهدت العديد من التحولات، وقد كانت أثناء هذه الفترة مبنية على مبدأ الحكم الذاتي في قسم كبير من مستعمراتها؛ مما جعل العديد من حركات التحرر تتأثر وتطالب بالسير على منوالها[1].

(1) F.O. 371/665, *The History and Encyclopedia of the War*.

خاتمة

وفّرت الحرب العالمية الأولى إطارًا ملائمًا لتجذير النشاط الوطني بليبيا، وبرز ذلك بالخصوص مع اندلاع ثورة فزان في خريف 1914 والتي سرعان ما انتشرت في بقية المناطق. وكان من أهم نتائجها انحسار مجال الاستعمار الإيطالي في مجال محدود بإقليمي برقة وطرابلس.

أمَّا النتيجة الثانية المهمة لهذه الحرب فتمثّلت في تبلور أسس جديدة للنضال الوطني بليبيا، وهي **القومية أو القوميات الليبية**، خاصة بعد توقيع الإمبراطورية العثمانية على معاهدة "أوشي" سنة 1912 وتخلّيها عن ليبيا. وبالرغم من عودتها سنة 1916 وإعلانها إعادة ضمٍّ ليبيا للإمبراطورية العثمانية، فإن معاهدة مودروس سنة 1918 كرَّست استسلام الإمبراطورية العثمانية وتخلّيها عن ليبيا كما نصَّ على ذلك البندان 18 و19 من اتفاقية الاستسلام.

أمَّا مواقف الوطنيين بليبيا من أطراف النزاع أثناء الحرب ففي البداية التزموا الحياد، وهو الموقف المعلَن كما عبَّرت عنه بالخصوص الحركة السنوسية. وتواصل ذلك بين 1914 و1915، تاريخ إعلان الحركة السنوسية الجهاد ضد مصر، انطلاقًا من برقة، وتوسيع خليفة بن عسكر للحرب ضد فرنسا، من خلال هجومه على العديد من المواقع الفرنسية بالجنوب التونسي، فكان لهذه التطورات العديد من الانعكاسات السلبية نذكر من بينها:

- ظهور تحالف إمبريالي قوي ضد الحركة الوطنية الليبية تكوَّن بالخصوص من إنجلترا وإيطاليا وفرنسا. وبرز ذلك بوضوح من خلال اتفاقات 1917 مع الحركة السنوسية، التي أسهمت في انقسام كبير داخل ليبيا؛ حيث أصبحت الحركة السنوسية بقيادة إدريس السنوسي، بعد إزاحة أحمد الشريف تقف إلى جانب إنجلترا وإيطاليا وفرنسا وبقية دول الوفاق[1]. وخاضت في هذا السياق حربًا ضد تركيا بليبيا وحلفائها الطرابلسيين. وقام السنوسيون سنة 1917 بطردهم من برقة.

---

(1) الجمل، عبد المجيد: **بريطانيا العظمى والمغرب العربي: التنافس الفرنسي الإنجليزي بتونس والمغرب الأقصى 1881–1939**، شهادة دكتوراه (غير منشورة)، جامعة تونس الأولى، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 2007 ص 409.

انتهت هذه الحرب بانقسام ليبيا إلى مجالين: الأول ببرقة بقيادة الحركة السنوسية ويقف إلى جانب دول الوفاق بقيادة إنجلترا، والثاني بطرابلس وفزان ويقف إلى جانب ألمانيا والإمبراطورية العثمانية وبقية الدول المساندة لهما.

تواصل هذا الانقسام إلى نهاية الحرب العالمية الأولى، حيث أسهمت هزيمة الإمبراطورية العثمانية وتوقيعها على اتفاقية مودروس سنة 1918، في مسارعة القيادات الوطنية بإقليم طرابلس إلى إعلان "الجمهورية الطرابلسية" سنة 1918، التي وافق عليها البرلمان الإيطالي في 1 يونيو/حزيران 1919 ومنحها قانونًا أساسيًّا تمكّنت من خلاله من الحصول على حكم ذاتي واسع.

أمَّا ببرقة فظهرت البوادر لحكم ذاتي تقوده الحركة السنوسية من خلال اتفاقيتها سنة 1917 مع إيطاليا وإنجلترا. وتدعَّم الحكم الذاتي إثر تصويت البرلمان الإيطالي على القانون الأساسي المنظِّم له في 31 أكتوبر/تشرين الأول 1919. ودعمته اتفاقية الرجمة في 25 أكتوبر/تشرين الأول 1920 التي وقَّعتها إيطاليا مع إدريس السنوسي، والتي اعترفت بموجبها بالحكم الذاتي وبإدريس السنوسي أميرًا.

إن الاتفاقيات سابقة الذكر أسهمت في ظهور حكم ذاتي موسَّع لليبيين بإقليم طرابلس وبرقة، لكنه لن يتواصل طويلاً؛ حيث ستتنكَّر له إيطاليا بالخصوص بداية من سنة 1922؛ مما شكَّل بداية مرحلة جديدة للمقاومة وأُجبر إدريس السنوسي على الهجرة إلى مصر؛ إذ بقي فيها إلى اندلاع الحرب العالمية الثانية تاريخ انضمامه إلى إنجلترا في حربها ضد ألمانيا وإيطاليا وحلفائهما.

الفصل السابع

مشاركة التونسيين
في الحرب العالمية الأولى

فيصل الشريف
أستاذ وباحث في تاريخ تونس المعاصر

منذ احتلال البلاد التونسية من قِبل فرنسا وإعلانها محمية، أصبحت تُعد بعد الجزائر ثاني أهم مقاطعة من الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية. وبعد ضمّ المغرب سنة 1912، أصبحت فرنسا تعتد بالبلدان شمال الإفريقية معتبرة إيَّاها "أجمل قطعة من الإمبراطورية"، لما تختزنه تلك البلدان من خيرات طبيعية وموارد بشرية وكذلك لموقعها الجغراستراتيجي باعتبارها بوابة إفريقيا التي تحد أوروبا من الجنوب. ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى ستتجلّى بوضوح الأهمية الكبرى لهذه المستعمرات في المجهود الحربي، وهو ما يستدعي أولاً معرفة حجم المشاركة العسكرية التونسية، ثم البحث في انعكاساتها الاجتماعية والسياسية والثقافية على البلاد أثناء وبعد الحرب، ومن ثم التداعيات الإقليمية والدولية لتلك الحرب.

تجنيد التونسيين في الحرب العالمية الأولى

أصبحت تونس وفقًا لقانون 26 ديسمبر/كانون الأول 1899 خاضعة لقانون التجنيد الفرنسي والقاضي بالبقاء 3 سنوات في الخدمة العسكرية (التجنيد

الإجباري) لكل من بلغ سن التاسعة عشر. يتم ذلك عبر عملية قرعة يشرف عليها الشيخ الذي يضع القائمة والقايد (الذي يدقّق فيها ويحيلـــها إلى المراقـــب المـــدني الفرنسي. ومنذ سنة 1904 بدأت فرنسا تعتمد على جنـــود الاحتيـــاط. وقـــد تم تصوير فيلم وثائقي سنة 1913 بعنوان "عملية القرعة للعـــرب" بإحـــدى القـــرى التونسية وصف كيف كانت تتم عملية التجنيد آنذاك.

يؤمر الشاب بالوقوف ويساعده على ذلك شاوش (شاويش) ثم يدور حـــول أعضاء اللجنة المكلفة بالتجنيد والمتكونة من عسكريين وأعيان (الشـــيخ ثم القايـــد فالمراقب المدني الفرنسي)، ثم يستمع الشاب إلى نتيجة القرعة دون إبداء أي شعور ظاهري. بعد ذلك تقوم فرقة من العيساوية (فرقة متصـــوفة) بعـــرض راقـــص في شوارع القرية، كل ذلك لإيهام السكان والمجنَّدين بأن عملية التجنيد هي احتفالية ويجب تبديد الخوف من الالتحاق بالثكنات[1].

كان يُعفى من الخدمة العسكرية كل من كان قاضـــيًا أو معلّمًـــا بالمـــدارس القرآنية أو إمامًا وكل من يشتغل في الإدارة وكذلك المترجمون وكل من كانت له كفالة أب أو أم تحمل إعاقة أو من له أخ تم تجنيده. وكل من بلغ سنَّ 33 سنة و لم يتقدم للخدمة العسكرية كان يُعتبر هاربًا من الواجب العسكري ويُعاقَب بالسجن من شهر إلى ستة أشهر، أمَّا الهارب أثناء الخدمة فيمكن أن تصل عقوبته إلى خمس سنوات سجنًا. وقد سمح قانون 13 أبريل/نيســـان 1910 للتونســـيين بالالتحـــاق بالجيش الفرنسي كمتعاقدين لمدة تتراوح بين 3 و5 سنوات.

التجنيد والإرسال إلى الجبهة

تم سنة 1911 إجراء أول تعداد سكاني في تونس وأظهر أن عدد الســـكان يبلـــغ 1.700.000 ساكن منهم 88.000 إيطالي و48.000 فرنسي. أمَّا من حيث التجنيـــد وعند انطلاق الحرب فكانت تونس أكثر جاهزية من الجزائر، لأن السلطات الفرنســـية اعتمدت على الحرس الملكي التونسي الذي قام بدور كبير في عملية التجنيد[2].

---

(1) انظر: الأرشيف العسكري السمعي والبصرى إيفري باريس
(ECPAD, Fort d'Ivry, Paris, France).

(2) الإحصائيات الرسمية السنوية التونسية، 1946، ص 84.

وكانت المشاركة التونسية هي الأكبر على مستوى بلدان شمال إفريقيا مقارنة بعدد السكان؛ إذ شكّل المجنّدون التونسيون 3,9% من مجموع السكان، وفي الجزائر 3,5%، وفي المغرب أقل من 1%. أمّا العمال الذين ذهبوا للعمل في الزراعة والصناعة فبلغت نسبتهم 5,4%.

كانت مرتبات الجنود وامتيازاتهم حافزًا مهمًا لقبول التجنيد؛ إذ تمت مضاعفة أجر الجندي التونسي 4 مرات ونصفًا مقابل الجندي الفرنسي ليبلغ 22 سنتيمًا في اليوم (مقابل 5 سنتيمات للجندي الفرنسي). أمّا جنود الاحتياط الذين تم الإبقاء عليهم لسبع دفعات متتالية فكانوا يتقاضون زيادة على مرتباتهم منحة عائلية بمقدار 1,25 فرنك في الشهر و50 سنتيمًا عن كل طفل. ولم يكن هذا القرار إنسانيًا بقدر ما كان سياسيًا إذ إن الهدف منه كان إسكات عائلات المجنّدين وتشجيع وتحفيز الآخرين على الالتحاق بجبهات القتال.

أمّا المتطوعون في الجبهة لمدة 3 سنوات فلم يكونوا يتمتعون بالمنحة العائلية ولكن عند نهاية الخدمة يُصرف لهم مبلغ 778 فرنكًا (وهو مبلغ محترم آنذاك) مما قلّص من عدد المترددين في التطوع.

كانت فرنسا كذلك بحاجة أكيدة إلى عُمّال في قطاع الزراعة (1914)، ثم في الصناعة بداية من أواخر 1916. وكان العامل التونسي يتقاضى 5 فرنكات يوميًا وهو يتساوى في ذلك مع الإيطاليين والفرنسيين إلا أن هذا الأجر لم يكن مغريًا إذ إنه من الممكن في تونس العاصمة سنة 1916 الحصول على نفس الأجر.

لهذا قامت فرنسا بالترفيع من رواتب العمال سنة 1916 ليصبح 6 إلى 7 فرنكات في اليوم. كان العمال المنتدبون عمومًا قد أدّوا الواجب العسكري سابقًا وتم توجيههم للعمل في مزارع الفرنسيين إلا أن اشتداد وتيرة الحرب والخسائر المادية والبشرية المرتفعة دفعت فرنسا أكثر إلى تنشيط الصناعة المرتبطة بالحرب ابتداء من سنة 1917.

في بداية الحرب، أي في صيف 1914، كان تحت تصرف السلطات الفرنسية 11.889 مجندًا وبلغ عدد جنود الاحتياط 14.650، ولكن مع تفاقم وتيرة الحرب وتعدد الجبهات في فرنسا وعلى الحدود الألمانية والبلجيكية زاد الطلب على الجنود والعمال. وقد شكّلت سنة 1917 الذروة من حيث التجنيد واستقطاب العمالة التونسية.

جدول التجنيد والعمال التونسيين الذين التحقوا بالجبهة 1914-1918

(لا يشمل المتطوعين)[1]

السنة	سُجِبوا بالقرعة	تم تجنيدهم	تم تعويضهم بمقابل مالي	العمال المنتدبون
1914	24.000	4.212	1.432	-
1915	24.000	4.212	1.922	-
1916	26.000	5.772	2.949	-
1917	**35.000**	**14.354**	**4.858**	**9.474**
1918	21.000	11.741	-	4.858
المجموع	**131.000**	**40.391**	**11.161**	**14.332**

عمومًا، وصل عدد التونسيين الذين شاركوا في المجهود الحربي بين المجنّدين إجباريًّا والمتطوعين والعمال إلى 87.332 رجلاً تقريبًا، وهو كما ذكرنا يشكّل أعلى نسبة مشاركة للبلدان المغاربية مقارنة بعدد السكان أي 3,9%. وإذا أخذنا في الاعتبار السكّان بين سِنّ 18 و40 سنة يمكن أن تتجاوز هذه النسبة 25% وهو رقم ضخم جدًّا مما سيخلق هوّة ديمغرافية لدى الرجال القادرين على الإنجاب.

الجنود التونسيون ومحرقة الحرب

لم يتم توجيه الجنود التونسيين مباشرة نحو الجبهة سنة 1914 بل تلقّوا تدريباتهم في فرنسا ثم بدأ إرسال الفيالق إلى الجبهات سنة 1915 وخاضوا معارك عديدة نذكر فقط البعض منها:

معركة أرتوا Artois، 15 سبتمبر/أيلول 1915، على الحدود مع بلجيكا؛ حيث خسر الفيلق التونسي الرابع للمشاة (وهو فيلق من الطلائع)، المتكون من 2000 جندي، 40 قتيلاً و14 جريحًا و7 مفقودين من الضباط وكذلك 115 قتيلاً و506 جرحى و240 مفقودًا من الجنود. فيلق النخبة هذا تمت إعادة هيكلته ليضم 1884 جنديًّا حيث تم

(1) Goldstein, Daniel: *Libération ou Annexion. Aux Chemins Croisés de l'Histoire Tunisienne 1914-1922*. Tunis, MTE, pp. 154-182.

توجيهه في 25 أكتوبر/تشرين الأول 1916 إلى" فردان" (**Verdun**) وتمكّن من احتياز خط النار الألماني بعمق كيلومترين وتمكّن من أسر 1038 جنديًّا ألمانيًّا من ضـــمنهم 27 ضابطًا والاستيلاء على عتادهم الحربـــي. خسر الفيلق في هذه العملية العسكرية الجريئة الكبرى 1285 رجلاً. بعد ذلك تحول الفيلق إلى مقاطعة "شامباني" (**Champagne**) في شهر مارس/آذار 1917 ليخوض حرب مشاة حقيقية وتم خلالها اســتعمال الســلاح الأبيض. وخلال الهجوم على آين (Aisne) وفي معركة "هورتوبيز" (**Heurtebise**) في 24 أبريل/نيسان 1917 خسر الفيلق التونسي 186 قتيلاً و106 جرحى من بينـــهم 30 ضابطًا و184 مفقودًا منهم 4 ضباط. وفي يونيو/حزيران 1917 عاد فيلق المشاة الرابـــع للمعارك في منطقة "فوفاران" (**Vaux-Varennes**) ولكن مرة أخرى ستكون معركة فردان في 20 أغسطس/آب 1917 هي التي تميَّز فيها الفيلق بصورة كبرى وعلى إثرها تم توسيمه بتاريخ 17 سبتمبر/أيلول 1917 بصليب الحرب وبـــ "السعفة الثالثة" من قبـــل القيادة العسكرية العليا الفرنسية. ثم تمكّن الفيلق سنة 1918 من صدِّ هجوم ألماني علـــى أطراف مدينة "أميان" (**Amiens**)، وبعدها أي في مايو/أيار 1918 تم نقله إلى سواسون (**Soissons**) ثم تم نقله في نفس الصائفة إلى منطقة "لـــوران" (**Lorraine**) متمركـــزًا بمنطقة "كامبياني" (**Campiegne**) واستعاد قرية "كريســـي أومـــون" (**Crécy-au-Mont**) في 31 أغسطس/آب من أيدي القوات الألمانية.

شارك الفيلق الرابع للمشاة في احتفالات عيـــد الجمهوريـــة الفرنســـية (14 يوليو/تموز 1919) تكريمًا له واعترافًا بما قدَّمه من تضحيات خلال الحرب الكبرى، وهو يُعد من أكثر الفيالق حصولاً على الأوسمة(1).

أمَّا الفرقة الثامنة للمشاة التونسيين فهي التي تكبَّدت أكبر الخسائر حيث فقدت 3331 جنديًّا و64 ضابطًا وشـــارك أفرادهـــا في البدايـــة في منطقـــة "شـــارلروا" (**Charleroi**) ثم بمنطقـــة "فـــيلي ليســـاك" (**Villiers-le-sec**) ثم "مـــونميراي" (**Montmirail**) و لم تعرف الفرقة الراحة قَطُّ لمدة ستة أشهر خلال ســـنة 1914. ثم شاركت في معركة "فردان" في خمس مرَّات متتالية مما يفسر إعادة تشـــكيلها بعـــد فقدانها 50% من رجالها. وحتى نهاية الحرب سنة 1918 شاركت الفرقة التي أُلحق بها

(1) Goldstein, Daniel: *Libération ou Annexion.*

جنود فرنسيون في معارك عديدة من بينها "شاتو تيـــاري" (ChâteauThierry)، "نوايون" (Noyon)، "مون دوراني" (Mont d'Origny).

خسائر الحرب

خسر التونسيون بحسب الإحصاءات الرسمية الفرنسية مـــا يقـــارب 16.509 رجال دون احتساب الجرحى وهو ما يناهز 16% من جملة مَن أُرسلوا إلى الجبهة، زيادة على 1000 عامل تقريبًا تُوفُّوا لأسباب صحية وأخرى عسكرية.

- الانعكاسات الاجتماعية للحرب على التونسيين

كان لحملة التجنيد الإجبارية والتعسفية أبلغ الأثر لدى العائلات التونســـية، خصوصًا الفقيرة منها؛ إذ تم الإلقاء بأبنائهم في أتون حرب لا ضلع لهم فيها. وزاد في نقمتهم على الحرب الدائرة رحاها في أوروبا الدعاية الألمانية العثمانيـــة علـــى جبهات القتال وعلى طول الحدود التونسية - الليبية والتي حثّت التونسيين علـــى الامتناع عن دعم المجهود الحربـــي الفرنسي. واستخدمت هذه الدعايـــة بعـــض شيوخ القبائل محرِّضة الجنود على الفرار من الخدمة العسكرية وعـــدم الانصـــياع لأوامر القادة العسكريين الفرنسيين.

ومن الآثار المباشرة لهذه الدعاية أن قامت انتفاضة "الودارنة" بمنطقة الأعراض بالجنوب الشرقي التونسي على الحدود الليبية (قابس)؛ إذ قام ثوَّار المنطقة بالتحالف مع الليبـــي خليفة بن عسكر الثائر ضد حكم الإيطـــاليين وهـــاجموا التجمعـــات العسكرية الفرنسية، وتجلّى ذلك من خلال عمليتين مهمتين، هما: معركة الذهبيـــة ومعركة أم السويق (15 سبتمبر/أيلول - 9 أكتوبر/تشرين الأول 1915).

معركة الذهبية ورمادة (18-30 يونيو/حزيران 1916)، وبين المعركتين وقـــع أكثر من 43 مناوشة. وقدَّرت فرنسا خسائرها البشرية بـــ387 قتيلاً و332 جريحًا في مقابل 250 قتيلاً و70 جريحًا في صفوف التونسيين. في حين يؤكد التونسيون أن الحصيلة كانت مقتل 1181 جنديًّا فرنسيًّا و127 تونسيًّا و115 جريحًا. وانتـــهجت فرنسا سياسة الأرض المحروقة لتضع حدًّا لهذه الانتفاضة.

كما برزت في فترة الحرب ظاهرة جديدة عُرفت بـــ "الصعاليك الشـــرفاء"، هؤلاء كوَّنوا جيوبًا للمقاومة في نطاق أفراد أو مجموعات صغيرة وعملـــوا علـــى استهداف المصالح الفرنسية بتونس خصوصًا العسكرية والاقتصادية، ونخص منـــهم البشير بن سديرة، ومحمد بن عون، ومصباح بويبش، ومحمد الدغباجي، وبلقاســـم ابن ساسي، وتكوَّن حولهم العديد من الأساطير الشعبية الـــتي مجَّـــدت بطـــولاتهم وتضحياتهم في سبيل الوطن.

بصورة عامة لقي التجنيد الإجباري والإرسال خارج تراب الوطن رفضًا من قبل السكان والجنود. وبقطع النظر عن الممانعة الشعبية، فقد كان التجنيد فيه مخالفة صريحة لمعاهدتي الحماية (باردو 1881 والمرسى 1883)، ولم تزل الذاكرة الجماعية تســـتذكر كيف أُرسل التونسيون في الحملة على المغرب الأقصى فذهبوا لقتال إخوانهم المســـلمين كما هو الشأن في هذه الحرب حيث سيقاتلون العثمانيين الذين هم مسلمون مثلـــهم وتربطهم بهم وشائج القرابة والتاريخ. من ذلك أن نقل الجنود إلى الجبهات كان يـــتم عبر ميناء بنزرت حتى إنه في شتاء 1914-1915 رفض الجنود امتطاء الباخرة وأُجـــبروا بقوة السلاح على الركوب وقُتِل المئات من المجنَّدين ولكن السلطات العسكرية قامـــت بالتعتيم على الحدث حتى لا يربك هذا الحادث سير العمليات. وقد عَـــزَت التقـــارير الفرنسية هذا الرفض إلى تأثير الدعاية الألمانية والعثمانية. كما تعرضت إحدى رحلات نقل الجنود إلى ضربة من قبل غواصة ألمانية أدَّت إلى غرقها وموت من عليها. وفي واقع الأمر وجد الجنود صعوبات عديدة في التأقلم مع المناخ والغذاء رغـــم أن الســـلطات وفَّرت لهم أغذية من الوطن الأم أهمها التمر وزيت الزيتون. وكانت الحملة الـــتي مـــا فتئت الدعاية الألمانية تكررها في دعايتها لحث العرب على الهروب من الجبهة فكـــرة أنهم "جلود للحرق بالمدافع". وكانوا فعلاً وقودًا لمحرقة هذه الحرب إذ تم الـــدفع بهـــم دائمًا في الصفوف الأمامية لمواجهة العدو.

- الأوضاع السياسية والثقافية بتونس أثناء الحرب

بعد إعلان حالة الحصار ثم الحرب تم منع معظم الحركات السياسية بـــالبلاد ومورست رقابة شديدة على الصحف الفرنسية وكذلك العربية متمثلة في جريـــدة

وحيدة "الزهرة" وهي تهتم بأخبار البلدان العربية والإسلامية. هذا الوضع دفع بالعديد من الوطنيين التونسيين للدفاع عن القضية الوطنية بالخارج. هذا التحرك لاقى دعمًا من قبل السلطات الألمانية والعثمانية. من ذلك استقرار علي باش حامبة (1876-1918) زعيم "حركة الشباب التونسي" بإسطنبول حيث أسَّس "لجنة تحرير شمال إفريقيا"، كما أصدر أخوه محمد باش حامبة (1881-1920) "مجلة المغرب" بمدينة جنيف السويسرية وهي ناطقة باللغة الفرنسية والقصد منها التعريف بالقضيتين التونسية والجزائرية كما نشر عدَّة كتب بنفس اللغة، أهمها: "الشعبان الجزائري - التونسي وفرنسا"، و"الحماية الفرنسية بتونس". وقد كان لمحمد باش حامبة نشاطٌ حثيث إذ تولّى تنسيق تحركات الوطنيين المغاربة المقيمين بأوروبا وكذلك بعض الطلبة التونسيين المقيمين بفرنسا، كما لاقى كثيرًا الزعيم شكيب أرسلان وهو أحد أهم رموز حركة الوحدة العربية آنذاك.

كما قام صالح الشريف (1863-1920) بنشاط كثيف في مدينة برلين حيث كوَّن "لجنة استقلال تونس والجزائر"، ونشر كتابًا تحت عنوان "حقيقة الجهاد" وكذلك نشرية بعنوان "تونس والجزائر". حاولت السلطات الاستعمارية الفرنسية محاصرة نشاط الوطنيين التونسيين بالمهجر مستعملة عديدًا من الوسائل كالتجسس والدعاية المضادة ومصادرة أملاكهم وتتبع وتفقير ذويهم بأرض الوطن إلا أن كل هذه التضييقات والمحاصرة لم تُثنِهم عن مواصلة النضال محاولين قدر الإمكان التعريف بالقضيتين التونسية والجزائرية. وكان من أبرز تجليات هذا الحراك السياسي تمكّن محمد باش حامبة من تمثيل تونس والجزائر في المؤتمر الثالث للقوميات الذى انعقد بمدينة لوزان السويسرية بتاريخ يونيو/حزيران 1916. كما قامت "الهيئة التونسية - الجزائرية" التي يترأسها محمد باش حامبة كذلك بتقديم مذكرة حول القضية التونسية والجزائرية خلال انعقاد مؤتمر السلم بباريس (فرساي يناير/كانون الثاني - يونيو/حزيران 1919) للمطالبة بالاستقلال، وتم في الآن نفسه إرسال برقية إلى الرئيس الأميركي ولسن للمطالبة بحضور ممثلي تونس والجزائر في مؤتمر السلم بباريس[1].

---

(1) مختصر تاريخ الحركة الوطنية التونسية، منشورات المعهد العالي لتاريخ الحركة الوطنية، تونس 2008.

الجزائر والحرب العالمية الأولى

وهيبة قطوش
أستاذة بجامعة الجزائر 2، أبو القاسم سعد الله

وجدت الجزائر نفسها ضمن الدول المشاركة في الحرب العالمية الأولى إلى جانب فرنسا، وعلى امتداد فترة هذه الحرب (1914-1918) كان لها نصيب كبير من التضحيات والآلام، التي فُرضت عليها جبرًا وقهرًا كونها مستعمرة فرنسية بل "مقاطعة" من المقاطعات الفرنسية حسب رؤية الساسة الفرنسيين آنذاك.

ورغم القبضة الشديدة، لم تستأمن فرنسا الجانب الجزائري الرافض لإشراك بلاده في الحرب العالمية الأولى، خاصة بعد موجة الرفض والاحتجاجات التي سادت مختلف مناطق الجزائر، كاحتجاجات مدينة باتنة وبسكرة وثورة الأوراس التي أرجع المؤرخ الفرنسي "آجرون" (Ageron) بعض أسبابها إلى "الكراهية التي حلّت محل الحماس الذي قام عند بداية الحرب، وهي تزداد شيئًا فشيئًا، نتيجة الخسائر التي لحقت بالقنّاصة الجزائريين"(1).

وقد عرفت سنتا 1915 و1916 عدّة موجات من حرب العصابات التي قادها بشكل منظم أولئك الجنود الفارّون من الجيش الفرنسي والذين تدرّبوا على السلاح وخبروا العمليات العسكرية. إلا أن هذا لم يمنع فرنسا من إقناع مجموعة من الجزائريين

(1) Ageron, Charles Robert: Les Troubles Insurrectionnels du Sud Constantinois, No.62-63.1981, p. 8. *Revue, Al-Assala,*

قدّمتهم كمثال ونموذج لولاء الشعب الجزائري لها؛ فروّجت ذلك في شكل برقيات وتصريحات عبر مختلف وسائل الإعلام الفرنسية، كنداء لباقي الشعب الجزائري للانخراط في الجيش الفرنسي عربون وفاء منهم "للوطن الأم"، وقد أنشأت لأجل ذاك صحفًا خاصة ما بين 1913 و1914، مثل: "لافرنس إسلاميك" و"أخبار الحرب"[1].

ويذكر المؤرّخ أبو القاسم سعد الله أن الفرنسيين خشوا من قيام ثورة عارمة ضدهم وإعلان الجزائريين استقلالهم عنها عند اندلاع الحرب العالمية الأولى خاصة بعد ثورة 1871 التي قامت في الجزائر على إثر الحرب الفرنسية - الألمانية، التي بقيت عالقة في أذهان الجزائريين والفرنسيين أنفسهم.

ولأجل هذا اجتهدت فرنسا كثيرًا - على طريقتها - لتحسين صورتها لدى الرأي العام الجزائري بكثير من الوعود ليدعمها في الحرب، ورغم رفض الجزائريين التبرع لها بأبنائهم، الذين جعلتهم فرنسا وقودًا بشريًا للحرب، إلا أنها أجبرتهم على ذلك بالترغيب تارة، من خلال الوعود والعهود كتقديم منح مالية نظير انخراطهم في جيشها ومِنح تقاعد لا محدودة، ورفع أجور المجندين وعوائلهم. وبالترهيب والوعيد تارة أخرى عن طريق الملاحقات العسكرية والمتابعات وفرض العقوبات.

1- مشاركة الجزائر في الحرب العالمية الأولى:

لم يفهم الكثير من الجزائريين طبيعة مشاركتهم في الحرب العالمية الأولى، سوى أنهم أُقحموا فيها ظُلمًا وقهرًا. ويومًا عن يوم كان حشد فرنسا للشباب الجزائري على جبهات القتال يزداد بحكم قانون التجنيد الإجباري 3 فبراير/شباط 1912، نتيجة تناقص عدد أفراد جيشها خاصة بعد حملتها العسكرية على المغرب الأقصى، ثم مرسوم 7 سبتمبر/أيلول 1916 الذي أمر بتجنيد جميع الجزائريين الذين وُلدوا قبل 1890 وعدم قبول إعفاء أي شخص منهم. وبعده بأسبوع صدر مرسوم آخر لتزويد فرنسا بـ 17500 عامل ثم ارتفع إلى 78000 عامل[2].

---

(1) سعد الله، أبو القاسم: **الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930**، ج2، ط4، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1992، ص 193.

(2) المدني، أحمد توفيق: **هذه هي الجزائر**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص 214.

ويومًا بعد يوم، كان الشعب الجزائري يؤكد رفضه المشاركة في الحرب، من خلال المظاهرات والعرائض والمنشورات التي ترجمت الحقيقة التي لم تعترف بها فرنسا. على عكس ما "كتب مؤلّف فرنسي سنة 1918 قائلاً بأن ولاء الجزائريين لفرنسا كان يفوق كل العواطف الأخرى، حتى العاطفة الدينية"[1]؛ فكان أن خاضوا هذه الحرب، إمّا بالخدمة العسكرية، أو التطوع الاختياري أو التطوع الجبري. غير أن الذين قبلوا بالمشاركة في صفوفها، كان غالبيتهم من النخبة التي درست في المدارس الفرنسية وتأثرت بالنهضة الأوروبية، و لم يكن موقفهم هذا حبًّا في فرنسا أو ولاء خالصًا لها، وإنما كان بهدف تحقيق المساواة التي كثيرًا ما طالبوا بها وإدماج الجزائريين في المجتمع الفرنسي فعلاً كما كان يوهمهم به الحكام الفرنسيون، فيكون لهم بذلك نفس حقوق الفرنسيين. بينما شارك عدد آخر في هذه الحرب هروبًا من الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية السيئة جدًّا التي عانى منها في الجزائر بعد تلك الإغراءات المالية التي وعدت بها فرنسا المجنَّدين وعائلاتهم. وما يجب ذكره أن ما يزيد عن 100.000 شاب جزائري لجأوا إلى الجبال فرارًا من الخدمة تحت علم فرنسا وكانوا "النواة الأولى للثورات"[2] التي اندلعت في عدة مناطق من الجزائر تنديدًا ورفضًا للتجنيد الإجباري، ولعل أبرزها ثورة الأوراس.

لقد عبَّر الكثير من الرسائل التي كان يبعث بها هؤلاء المجنَّدون الجزائريون لأهاليهم وأصدقائهم عن معاناتهم في الحرب وعن جهلهم لطبيعة وأسباب مشاركتهم فيها؛ ففي رسالة[3] بعث بها أحد الجزائريين في 25 سبتمبر/أيلول 1914 إلى شخصية إيطالية قال: "لا أستطيع وصف الحالة التعسفية وغير العادلة التي كان الجزائريون يعيشون فيها... وأن التجنيد الإجباري قد أدمج الشبان الجزائريين في الجيش الفرنسي ثم بعث بهم إلى الموت في الخطوط الأمامية للمعركة". وتساءل: "لماذا نحارب ضد الألمان؟ لأن فرنسا جعلت منّا حيوانات مفترسة، وهي تريد الآن أن تدفعنا أفرادًا وجماعات لنحارب ضد شعب ليس لنا به علاقة ولا سبب

(1) سعد الله: المرجع السابق، ص 195.
(2) المدني: المرجع السابق، ص 162.
(3) سعد الله: المرجع السابق، ص 204.

للعداوة. إن هذه هي الوحشية. ليحيا السلام ولتحيا إفريقيا الشمالية حرة مستقلة".

كما امتزجت أسباب هذا الرفض بفتوى الجهاد التي نادى بها المفتي العثماني لنصرة الدولة العثمانية حاملة راية الخلافة الإسلامية؛ مما زاد من تخوف فرنسا من تأثير هذه الدعوة على المجنَّدين الجزائريين، الذين أعطتهم درسًا في اللاإنسانية عندما أعدمت مجموعة منهم بالرصاص بدم بارد حتى لا يفكروا كمن سبقوهم برفض المشاركة في الحرب أو الفرار من الجيش، خاصة وأن "السنوات الأولى للحرب كانت رهيبة، في معركة شارلروا والمارن، وقد رفضت مجموعة من وحدات القنَّاصة الجزائريين الحرب ولاذ آخرون بالفرار من الذعر، وكتأديب لهم تم إعدامهم بلا رحمة؛ فقد أعطى الجنرال "جوفر" (Joffre)، أحد قادة المعسكرات التي شهدت موجة من الهروب والتمرد، الأوامرَ بتسليط أقسى العقوبات عليهم"، ويقول الجنرال "بلان" (Blanc): "لقد قتلتُ بيدي 12 فارًّا لكن هذه الأمثلة لم تكفِ أبدًا للحدِّ من الهروب من المعسكر"[1].

2- الحشد البشري الجزائري لفرنسا خلال الحرب العالمية الأولى:

لقد شارك الجزائريون بالآلاف في الجيش الفرنسي خلال الحرب العالمية الأولى، و لم يقتصر وجودهم على الجبهة الغربية فحسب، وإنما وُجدوا في الجبهة الشرقية أيضًا، في ألبانيا وبيروت وبالقرب من قناة السويس. وكثيرًا ما أُقحموا ضمن قوات التدخل السريع، واتسموا بالشجاعة والروح القتالية التي شهدت لهم بها معارك شارلروا والمارن وشامبانيو وفيردان والصوم.. ورغم كل هذه التضحيات، لم تتحمل فرنسا مسؤولياتها الأخلاقية في التعامل مع الجنود الجزائريين و لم تساوِ بينهم وبين الجنود الفرنسيين حتى في الموت، بل قذفت بهم في أدمى المعارك وأشدها ضراوة، وجعلتهم دروعًا بشرية واقية للجنود الفرنسيين تجابه أجسادُهم الضعيفة - التي تقتات من الخبز الأسود اليابس والماء - القذائفَ الألمانية، وكانوا يتصدرون الصفوف الأولى مشكِّلين الجدار العازل بين الجنود الفرنسيين والجنود الألمان. فكانت حصيلة قتلى وجرحى ومعطوبي هذه

(1) Julien, Charles André: *Histoire de l'Algérie Contemporaine,* Tome 2, PUF, Paris, 2 édition, 1979. p. 256.

الحرب ثقيلة جدًّا منهم خاصة في السنة الأولى. ورغم تضارب بعض الأرقام حول دقة عدد هؤلاء المشاركين، إلا أن الجميع جزم بأن عددهم كان كبيرًا جدًّا. ويفضِّل المؤرخ الجزائري جمال قنان أن يأخذ بأرقام الأمير خالد، بأن عدد المشاركين تجاوز نصف المليون وعدد القتلى 100.000، والجرحى والمفقودين 200.000، لأنها الأكثر مصداقية والأقرب إلى الحقيقة في نظره، كون الأمير شارك في الحرب وكان قريبًا منها ومتابعًا لتطوراتها[1].

ويذكر المؤرخ الفرنسي "آجرون" أن الجزائر وفَّرت إلى غاية 1 أغسطس/آب 1914 82.751 مستدعى و87.519 متطوعًا و2.479 احتياطيًّا بمجموع 173.019، أي ما يساوي 3.6% من مجموع السكان، لكنَّه يعلِّق بأن هذه الأرقام مريبة[2].

كما رصد أبو القاسم سعد الله عن صحيفة "إفريقيا الفرنسية" (l'Afrique Française) هذه الأرقام: عدد الجند 177.000، وعدد العمال 7500. بلغ عدد القتلى منهم، 56.000 بينما عدد الجرحى 82.000. وفي 1914 كان عددهم 27783 من المشاة و6000 من الصبايحية و5000 جندي مساعد، كما بلغ عددهم قبل 1916 أكثر من 80.000 جندي و60.000 عامل.

لقد حشدت فرنسا الآلاف من العمَّال الجزائريين إلى مصانعها ومزارعها بفرنسا، بعد النقص الكبير الذي عرفته مصانعها طوال فترة الحرب (1914-1918). وبهذا وجدت في الجزائر مصدرًا مهمًّا لتلبية حاجتها من اليد العاملة. كما جنَّدت العمال بصفة إجبارية وعلى دفعات كل دفعة ستة أشهر للعمل في ظروف قاسية جدًّا، منهم من يعود لأهله بأمراض مزمنة ومنهم من لا يعود أبدًا؛ إذ توفي 4000 عامل من بين 40.000 في إحدى دفعات 1917[3]. وقد بلغت نسبة القتلى 14.5 بالمائة من القوات

---

(1) Ageron: Les Troubles Insurrectionnels.

(2) Ageron, Charles Robert: *Les Algériens Musulmans et la France (1871-1919)*, Tome 2, PUF, Paris 1968, p. 1165.

(3) سعد الله: نفس المرجع، وذكر أيضًا أن أحد الكُتَّاب الفرنسيين الذين كتبوا خلال فترة الحرب قال: إن عدد العمال الجزائريين الذين شاركوا في الحرب العالمية الأولى بلغ 119.000 عامل، منهم 89.000 جُنِّدوا تجنيدًا، بينما كان البقية أحرارًا من الذين هاجروا إلى فرنسا خلال السنوات التي سبقت الحرب. ص 198.

الجزائرية المجندة، وهي تقارب حصيلة قتلى فرنسا التي بلغت 16.5.[1]

وقد أكّد توفيق المدني أن فرنسا جنّدت ما يزيد عن أربعمائة ألف رجل، توفي منهم في الحرب ما يزيد عن 80.000، كما جلبت 78000 عامل للعمل في المصانع الفرنسية[2].

3- المجهود المالي والاقتصادي للجزائر خلال الحرب العالمية الأولى:

في أغسطس/آب 1914 أعلنت فرنسا التعبئة العامة في الجزائر، استنزفت خلالها ما أمكنها من ثرواتها الظاهرة والباطنة. وفي عام 1917 ورغم أن المنتوج الزراعي للفلاحين الجزائريين كان "كارثيًا" نتيجة الأزمة الاقتصادية التي شهدتها الجزائر، فقد تم تصدير 480.000 قنطار من القمح، و550.000 قنطار من الشعير، و294.736 قنطارًا من التمر والتين المجفف، بالإضافة إلى 23.730 قنطارًا من الزيوت[3]. كما تضاعف إنتاج الثروات الخام لسدٍّ احتياجات مصانع فرنسا الحربية، فتضاعف إنتاج الرصاص والزنك والفوسفات مائة بالمائة ما بين 1915 و1917، بينما تجاوزت كمية الفحم المنتَج نسبها الخيالية بين 1917 و1918. وقد اضطُرَّ بعض العائلات الجزائرية الغنية إلى دفع مئات الآلاف من الفرنكات دعمًا للحرب. وذُكر أن بعضًا منها دفع (38.000) فرنك من الذهب لفرنسا، بالإضافة إلى ضرائب أخرى وفّرت الكثير للميزانية الفرنسية. كما بلغت حصيلة ما جمعته السلطات الفرنسية من الجزائر من الضرائب المباشرة وغير المباشرة ما يفوق 50 مليون فرنك فرنسي سنويًا ما بين (1913 و1919)[4] دون أن تهتم للأوضاع المادية

---

(1) قنان، جمال: **التوسع الاستعماري ظاهرة عدوانية تسلطية واستغلالية**، أعمال الملتقى الدولي حول "الاستعمار والحقيقة التاريخية والجدل السياسي"، يوليو/تموز 2006، منشورات وزارة المجاهدين الجزائر 2007.، ص 71.

(2) بوحوش، عمار: **التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة 1، 1997، ص 215.

(3) المدني، نفسه، ص 161.

(4) آجرون، شارل روبير: **الجزائريون المسلمون وفرنسا (1871-1919)** الجزء الثاني، ترجمة، م. حاج مسعود وع. بلعريبي، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2007، ص 831.

السيئة للجزائريين؛ مما جعل الكثيرين منهم يلجؤون إلى الاستدانة وبيع أبسط حاجاتهم للعيش.

4- نتائج الحرب العالمية الأولى على الجزائريين:

استطاع الجزائريون أن يخرجوا من الحرب العالمية الأولى بدروس وتجارب أسهمت في تبلور الوعي الوطني والقومي لديهم واستغلالها في نشاطاتهم السياسية والتحررية فيما بعد، رغم الضريبة الباهظة التي دفعوها، والتضحية من أجل فرنسا وحلمهم في حياة أفضل بعد نهاية الحرب. إلا أن هذا لم يتحقق واكتشفوا أنه كان وهمًا لازمهم طول فترة الحرب. وأكّدت فرنسا على خيانتها لكل وعودها التي عبّأت بها عقولهم فأصدرت بعد نهاية الحرب قوانين أخرى، كشفت بها عن طبيعتها العنصرية مرة أخرى، منها قانون كليمنصو 1919، الذي اشترط على من يطلب من الجزائريين حقَّ التصويت والجنسية الفرنسية أن يقدِّم وثيقة حسن السلوك وأن يكون من أب فرنسي وأنه يدفع الضرائب وعمل في الجيش الفرنسي مع التخلي عن الشخصية الوطنية!

لقد أدَّت الحرب العالمية الأولى إلى تطور الفكر التحرري لدى الشعب الجزائري، نتيجة احتكاكه بالآخر وبحركة النهضة والقومية وحركة الجامعة العربية. وظهر بذلك ثلّة من المفكِّرين والمصلحين الذين أخذوا على عاتقهم توعية الشعب الجزائري بمسؤولياته التاريخية والحضارية، ومنهم مبارك الميلي أول مؤرِّخ جزائري والذي ألّف كتابًا حول تاريخ الجزائر القديم والحديث، وأصدر جزءه الأول عام 1928. كما ظهرت عدة جمعيات ثقافية وإصلاحية أسهمت في بناء الحركة الوطنية بنشر العلم والثقافة وإصلاح الفرد، كالجمعية الصديقية عام 1913 ونادي الترقي عام 1927. وساعد ظهور الصحافة الوطنية إلى بروز أقلام فضحت الاستعمار الفرنسي ووعوده الكاذبة، خاصة بالنسبة للمجندين، والدفاع عن حقوق الشعب الجزائري المسلوبة، ومن هذه الصحف: النجاح عام 1919 والإقدام 1920 والمنتقد 1925 والشهاب 1925.

لقد أدرك الجزائريون بعد الحرب، أن التنظيم السياسي هو أفضل بديل عن النشاط العسكري في "مفهومه القديم"؛ فظهرت نخبة جزائرية جديدة آمنت

بضرورة تبني أسلوب آخر لمواجهة فرنسا وتحقيق الاستقلال "لقد تعلموا من الأحزاب السياسية الأوروبية لعبة المساومة والمناورة وتكتيك المنظمات الجماهيرية المنظّمة بإحكام"[1]، كما اكتسبوا الخبرة القتالية والتجربة العسكرية واستعمال الأسلحة. وقد اكتسبت القضية الجزائرية بُعدًا دوليًّا وتضامنًا واسعًا بعد هجرة عدد كبير من الجزائريين إلى سوريا والحجاز وفرنسا هروبًا من قسوة الاستعمار وقانون التجنيد الإجباري.

5- ظهور الحركة الوطنية:

كان لنتائج الحرب العالمية الأولى ومشاركة الجزائريين فيها وما حملته من شعارات منادية بالحرية وحق تقرير المصير التي رفعها الرئيس الأميركي ولسن خلال مؤتمر الصلح، وقع حماسي ودافع قوي لمطالبة الجزائريين باستقلال بلادهم "فلقد استطاع هؤلاء الجزائريون من عمال وجنود إنشاء حزب سياسي جزائري وطني ثوري منظم"[2].

ويتفق الكثير من الآراء على أن ظهور الحركة الوطنية في الجزائر يعود إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى نظرًا لمجموع التغيرات التي حدثت في تلك الفترة إن كان في داخل الجزائر أو خارجها من خلال نضال الأمير خالد الذي يُعتبر من أهم أقطاب الحركة الوطنية، وهو الذي شارك ضمن الجيش الفرنسي في الحرب العالمية الأولى قبل أن يتقاعد منه سنة 1915، وكافح لإيصال معاناة الجزائر في المحافل الدولية؛ ففي 1919 ترأس وفدًا شارك به في مؤتمر الصلح وقدَّم عريضة مطالب لرئيس المؤتمر "ولسن" مذكّرًا إياه بمبادئه الأربعة عشر، وخاصة مبدأ حقّ الشعوب في تقرير مصيرها.

---

(1) سعد الله، نفس المرجع، ص 199.

(2) نفس المرجع، ص 410.

خلاصة

أكدت تطورات الحرب العالمية الأولى ونتائجها للجزائريين أن تكوين الفرد وتوعيته وإحياء الروح الوطنية فيه، خطوة لا بد منها لمواجهة الحركة الاستعمارية الاستيطانية لفرنسا ومقاومة الأساليب التعسفية التي تحكم بها الجزائر، وأن المواجهة العسكرية أثبتت فشلها إلى حدٍّ ما، في غياب تعبئة عامة للشعب الجزائري لبناء قاعدة صلبة في طلب الحرية. والملاحظ أن الحركة الوطنية السياسية بعد نهاية الحرب العالمية الأولى أخذت اتجاهات مختلفة بين مطالبين بالاندماج والمطالبين بالمساواة والمطالبين بالاستقلال، لكنها اتفقت كلها على ضرورة ضمان حقوق الشعب الجزائري كاملة؛ فأسَّس الأمير خالد سنة 1919 حزب دعاة المساواة وكان يدعو للمساواة ثم الاستقلال، كما أنشأ مصالي الحاج حزب نجم شمال إفريقيا سنة 1926، الذي تحول سنة 1937 إلى حزب الشعب الجزائري ودعا إلى إنشاء جيش وطني وللاستقلال التام. وتزعَّم فرحات عباس الاتجاه الليبرالي الذي نادى بالمساواة والإدماج 1927، بينما أسس الشيخ عبد الحميد بن باديس جمعية العلماء المسلمين سنة 1931 ذات التوجه الإصلاحي.

الفصل التاسع

مساهمة المغرب في المجهود الحربي الفرنسي خلال الحرب العالمية الأولى

د. محمد بكراوي
أستاذ في جامعة فاس، متخصص في تاريخ المغرب المعاصر والعلاقات المغربية الفرنسية

اندلعت الحرب العالمية الأولى بداية أغسطس/آب 1914، وتواجهت فيها كتلتان: الحلفاء (فرنسا وبريطانيا والإمبراطورية الروسية) من جهة، ودول تكتل الوسط/المحور (الإمبراطورية الألمانية وإمبراطورية النمسا والمجر) من جهة ثانية. وكان على فرنسا أن تعبئ بشكل سريع القوى البشرية والمادية في إمبراطوريتها الاستعمارية كي تعوِّض التفوق العددي للألمان (69 مليون نسمة في ألمانيا مقابل 39 مليونًا فقط في فرنسا). وعلى غرار باقي المستعمرات والمحميات وسائر أراضي الإمبراطورية الفرنسية ما وراء البحار وجد المغرب نفسه مُجبرًا على تقديم دعمه ومساعدته في ذلك المجهود[1].

غير انه في سنة 1914 لم يكن قد مضى على فرض الحماية الفرنسية (الانتداب) على المغرب سوى سنتين ونصف السنة فقط، وبالتالي لم تكن فرنسا قد بسطت سيطرتها على البلد بالكامل ولا استطاعت أن تُخضعه تمامًا؛ إذ إن أكثر من

(1) حول مساهمة المغرب في الحرب الكبرى، راجع: البكراوي محمد: **المغاربة في الحرب الكبرى 19141919-** (بالفرنسية)، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 2009.

نصف البلاد كان لا يزال يحارب المحتل. كما أن المؤسسات الإدارية والسياسية والاقتصادية للنظام الجديد كانت تُرسَى بصعوبة وبكثير من التردد. لا شيء إذًا كان يُؤهِّل المغرب ليصبح جزءًا من ذلك الصراع الدولي الذي اندلع من أجل مسألة تتعلق بأوروبا البلقانية، البعيدة كل البعد تمامًا عن الإمبراطورية الشريفية. ومع ذلك وجد المغرب نفسه مقحما في تلك الفاجعة الأوروبية التي لا مصلحة له فيها ولا تعنيه في شيء. ترى ما هي طبيعة وخصوصية الدعم العسكري الذي قدمه المغرب لمساعدة فرنسا؟

1- الزج بالمغرب في الحرب العالمية الأولى:

أ- ليوطي في مواجهة الحرب

كان المقيم العام الفرنسي الأول في المغرب الجنرال اليوطي (من 1912 إلى 1925) شخصية معروفة جدًّا، بل أسطورية و"غير عادية"[1]، وفي الوقت نفسه شخصًا غامضًا ومُلتبسًا لا يمكن فهمه و"مُركَّبًا ومتناقضًا"[2]. وقد طبع ببصمته وأسلوبه تلك المرحلة الأولى من الحماية. وعُرف خاصةً ببراغماتيته واستقلاله الفكري اللذين تجليا بصورة كاملة خلال الحرب الكبرى. وكان في نفس الوقت القائد الأعلى للقوات المسلحة وممثّل المغرب لدى القوى الأجنبية بموجب معاهدة فاس (30 مارس/آذار 1912). وفعلاً أبرق وزير الحرب الفرنسي إلى الجنرال ليوطي في 27 يوليو/تموز 1914 وأمره بإرسال أهم القوات العسكرية المتواجدة بالمغرب إلى فرنسا، وكتب له قائلاً: "ينبغي أن تتجه كل جهودكم إلى الإحتفاظ باقل ما يمكن من القوات الضرورية؛ إذ أن مصير المغرب سيتقرر في مقاطعة اللورين"[3]. كما تلقّى الأوامر أيضًا بنقل الفرنسيين والأجانب المقيمين في داخل البلاد إلى الساحل

(1) ريفي، دانيال: المغرب من اليوطي إلى محمد الخامس: وجها الحماية، دينويل باريس 1999، ص 35.
(2) مونتاني، روبير: ثورة في المغرب، فرانس أمبير، باريس 1953، ص 127.
(3) قسم الأرشيف التاريخي لجيش البر في فانسان، برقية موجَّهة من وزارة الخارجية إلى ليوتاي في 27 يوليو/تموز 1914.

واقتصار احتلال المغرب على "الموانئ الرئيسية وإن كان ممكنا على خطّ الاتصال الرابط بين القنيطرة ومكناس وفاس ووجدة. أمّا باقي المراكز والمواقع المتقدمة فينبغي التخلّي عنها مؤقتًا"[1]. ومرَّ اليوطي في تلك الفترة بلحظات قلق وتمزق: فهل يستجيب للتعليمات الوزارية بإرسال أفضل قواته إلى ساحات القتال الفرنسية وبالتالي التخلي عن المواقع المتقدمة، بينما كان يخوض "حربا حقيقية على محور قصبة تادلة وصولاً إلى تازة في مواجهة خصوم مندفعين وعنيدين، مُقرِّين العزم على مقاومة المحتل"[2]، والذين سيبدو لهم أي تراجع "إقرارًا بالعجز" على حد تعبيره!

ماذا قرَّر اليوطي إذن إزاء تلك التعليمات؟ استدعى يوم 30 يوليو/تموز مساعديه المخلصين والمقربين منه إلى الرباط، وهم: الجنرال هنريس والجنرال غورو والجنرال برولار والنقيب بالتيي، ووضعهم في صورة التعليمات الوزارية. فأثنى الجميع على وجهة نظره إذ اعتبروا أن أي انسحاب نحو الشريط الساحلي سيؤدي إلى هزيمة نتيجة لانقضاض المقاوِمين المغاربة على القوات الفرنسية المنسحبة. ولاحظ ليوطي أنه "... إذا ما بدأنا الانسحاب سنكون خاسرين، وإذا ما تخلّينا عن أي شبر من الجبهة بدعوى اختصاره سيكون التراجع بمثابة كرة الثلج، وستنجم عنه هزَّة في سائر أنحاء المغرب تجعل كل شيء ينهار"[3]. كان اليوطي يعلم حق العلم أن المغرب يشكّل بحكم موقعه الجغرافي مفتاح المغرب الكبير، وبالتالي فالتخلي عنه سيكون مخاطرة كبيرة ذات نتائج غير متوقعة. ولهذا السبب اتخذ قرارًا جريئا ومتعارضًا مع التعليمات التي توصل بها من باريس؛ إذ رفض التخلي عن أي شبر من المناطق المحتلة وقرر التمسك بقوة بالمراكز المتقدمة في البلاد، ومن ثم الحفاظ على جل المناطق المحتلة مع السعي إلى تعزيزها وتجهيزها في أسرع وقت ممكن. وكان قصده من وراء ذلك ألا يضع نفسه في موقع دفاعي، وما زلنا نتذكر قولته الشهيرة: "من لا يتقدم يتراجع". وقد فرض هذه الخطة على باريس التي

---

(1) نفس المرجع.

(2) تقرير ليوطي "**الوضع في المغرب**" الموجَّه إلى وزارة الدفاع في 22 أغسطس/آب 1914.

(3) ذكره ليوطي في "**Paroles d'action**"، أرمان كولان، باريس 1927، ص 255، وكذلك "ليوطي الإفريقي" الجزء الثاني، ص 245.

خاطبها بهذه العبارات: "سأعطي لفرنسا كل ما تطلبه مني وسأحتفظ هنا بالمغرب كله (...) كخزان يمد فرنسا بكل ما تحتاجه..."[1].

لقد كان رهانًا صعبا تزويد فرنسا المُحاربة بكل ما كانت تحتاجه وإنقاذها من دون أن يخسر "مغربه"، في الواقع كان اليوطي يحرص بالخصوص على المحافظة على المغرب من أجل الإسهام في إنقاذ فرنسا.

ب- القوات المُرسلة إلى الجبهة في فرنسا

عند التعبئة للحرب كانت قوات الاحتلال الفرنسية في المغرب تضم 85500 رجل[2] من سُكان المستعمرات معظمهم من الجزائريين والتونسيين، مُوزعين على 64 فيلق مشاةٍ و29 كتيبةَ خيالةٍ (فرسان) و27 بطاريةَ مدفعيةٍ، إضافة إلى عناصرَ صغيرةٍ متفرقةٍ مثل الطيران وقسم الأطباء والممرضين.

واعتمد ليوطي طوال مدة الحرب على قوات مهمة لم يقل عدد أفرادها عن 80000 رجلٍ، على الرغم من تقليص عدد قوات جيش الاحتلال المتواجدة بالمغرب.

ومنذ اندلاع الحرب أرسل المقيم العام إلى الجبهات العسكرية الأوروبية الفرق الأولى من قوات المستعمرات العاملة في المغرب، فيما عبًّا أربعة آلاف مستوطن فرنسي كانوا مقيمين بالمغرب. وعموما استطاعت الإقامة العامة إرسال ما مجموعه 58 فيلق مشاة و22 كتيبة من الخيالة (الفرسان) من القوات المرابطة في المغرب، أي 50000 رجل من أصل 85500، وتم تعويضهم بوحدات أقل خبرة من جنود محلِّيين وسنغاليين وخاصة "الكوم" المغاربة والمخازنية والموالين الذين تزايدت نسبتهم باستمرار؛ فعدد وحدات "الكوم" على سبيل المثال ارتفع من:

1908	أغسطس/آب 1914	نوفمبر/تشرين الثاني 1918
6	16	22

(1) قسم الأرشيف العسكري التاريخي لجيش البر في فانسان، تقرير من ليوطي إلى الحكومة الفرنسية، فاس بتاريخ 29 نوفمبر/تشرين الثاني 1916.

(2) نفس المرجع، مذكرة من هيئة أركان الجيش حول "القوات في المغرب" في 1 أغسطس/آب 1914.

ولتعويض النقص الحاصل في عدد جيش الاحتلال لجأ اليوطي إلى الاعتماد على الجنود المغاربة.

2- مساهمة المحاربين المغاربة في الدفاع عن فرنسا:

أ- الجنود المغاربة في مختلف جبهات القتال الفرنسية والأوروبية

لم تتضمن خطة رئاسة الأركان العليا الفرنسية، في الأصل، سوى إرسال قوات من جيش الاحتلال إلى الجبهة، و لم يتعلق الأمر أبدًا بإرسال جنود مغاربة. لكن منذ الأيام الأولى للحرب اقترح اليوطي على القيادة العسكرية العليا إرسال جنود مغاربة إلى فرنسا لسدِّ النقص في عدد القوات التي طلبتها رئاسة أركان الجيش، بحكم قناعته العميقة بخصالهم القتالية، فهم رجال حرب شجعانٍ، وغالبا ما يقومون باستعراضات للفروسية في قبائلهم. كما سبق أن برهنوا على شجاعتهم واندفاعهم. وأكد أنَّ هؤلاء الجنود "عندما يُوطَّرون في قوات أخرى ويقتدون بشجاعتها سيكونون عند حسن الظن ومن الأفضل أن يحل محلهم هنا (في المغرب) محاربون جزائريون وتونسيون وآخرون من المستعمرات وعناصر كفؤة من قوات "زواف" الفرنسية يمكن الاعتماد عليهم في الدفاع عن أنفسنا بدلاً من اللجوء إلى عناصر نخشى أن يستسلموا أو ينقلبوا ضدنا"[1].

لقد كان واضحا إذن أن الجنرال ليوطي خامره الشك في الجنود الشريفيين، فتمردهم على مدربيهم الفرنسيين في فاس خلال أبريل/نيسان 1912 كان لا زال حاضرا بلا شك في ذهنه. كما أن القيادة الفرنسية كانت مترددة في قبول تلك الوحدات المغربية (tabors) التي لم يكونوا يحظون بثقتها. وكان على المقيم العام أن يتمسك بموقفه و"يلوي ذراع الحكومة"[2] مثلما يُقرُّ بذلك هو نفسه. ونجح مرة

---

(1) ليوطي الإفريقي، مرجع سابق، الجزء الثاني، رسالة من ليوطي لوزارة الحرب بتاريخ 29 يوليو/تموز 1914، ص 231.

(2) قسم الأرشيف التاريخي لجيش البر، تقرير من المخابرات العامة إلى وزارة الدفاع رقم 124، H933 الرباط في 11 يونيو/حزيران 1915، ص 23 وكذلك ليوطي الإفريقي الجزء الثاني ص 244.

أخرى في فرض وجهة نظره. وكان مجمل تلك القوات المغربية تقريبًا متكوّنًا من مجموعات صغيرة السن تم انتقاؤها بصرامة وتأطيرها تأطيرًا قويًّا؛ إذ تعود إعادة هيكلتها إلى ما قبل ذلك بسنتين فقط. وبلغ عدد القوات المغربية لحظة اندلاع الحرب 8320 رجلاً تقريبا موزعين على خمس فرق من المشاة و11 كتيبة من الخيالة و16 من "الكوم". وكانت هذه الوحدات كفؤة ومدربة تدريبًا جيدًا، وقد اكتسبت خبرة بفضل الحملات التي نفذتها في المغرب. ودُعيت تلك القوات التي كانت تعمل في مختلف مناطق البلاد (أغادير، مراكش، خنيفرة، تادلة، تازة) بشكل عاجل إلى الشريط الساحلي وتم نقلها إلى فرنسا على وجه السرعة، من دون أن تُعطى لها أية فرصة لالتقاط الأنفاس. والتصق اسم غريب بالمحاربين المغاربة في فرنسا وبعناصر الخيالة وهو اسم "أفواج المشاة المحليين". لم تكن هناك أية إشارة للمغرب لأن عاهل البلاد السلطان مولاي يوسف لم يكن قد أعلن بعد الحرب على ألمانيا. ومع بداية يناير/كانون الثاني 1915 فقط حاز هؤلاء الجنود اسمهم الحقيقي بوصفهم مشاة وخيالة مغاربة.

كان قوام الكتيبة الأولى المتكونة من ثلاث سرايا 2700 رجل تحت إمرة المقدم توشار، وأبحروا من الرباط والمهدية إلى بوردو. وكان من بين عناصرها النقيب الشاب ألفونس جوان، الذي سيصبح ماريشالاً ومقيمًا عامًّا في المغرب. أمَّا الكتيبة الثانية التي كانت تضم سريتين (1600 رجل) فقادها العقيد بويميرو، الذي يتميز بدرايته الواسعة بالمغرب ورجاله، وقد أبحر من وهران نحو سات (Sète) ومن ثم بوردو. وشكّلت الكتيبتان فيلقا تحت قيادة الجنرال ديت. ثم شكّل المقيم العام من الكتائب الأحد عشر فيلقا من الخيالة المغاربة أرسله إلى فرنسا بدوره. وهكذا غادر المشاة و"الخيالة" (الفرسان) دواويرهم وقراهم وأبحروا إلى فرنسا.

ونزل المشاة المغاربة يوم 16 أغسطس/آب 1914 في بوردو التي كانت تعجُّ بالمقاتلين الآتين من كل حدب وصوب. وأورد النقيب ألفونس جوان أن "سكان بوردو كانوا يتزاحمون بأعداد كثيفة حول معسكر عجيب يقع على طريق شارترون. لقد كانوا مشدوهين لغرابة القوات المحلية التي ضربت خيامها الصغيرة هناك، وهم مرتزقة أشداء لا يعرفون من أين جاؤوا، لكنهم لا يُشبهون أبدا

المحاربين الأفارقة السود أو الأتراك، ثم ما لبثوا أن علموا أن هؤلاء الرجال السُمر طويلي القامة مع نحافة، مثل الدراويش، هم مشاة مغاربة وصلوا بالأمس (...)"[1].
ثم يضيف: "كانوا قليلي التجهيزات يرتدون بدلات من قماش الكاكي وجلابيات مرتوقة..." وبالتالي لم يكن واضحا من الوهلة الأولى أن هؤلاء الجنود قادرون على المشاركة في حرب عصرية. لكن ما لبثوا أن ألبسوهم سريعًا بدلات من الكاكي بحيث ارتدوا تنورة معطوفة على جاكيت مع حزام أحمر عريض، واعتمروا طربوشًا أحمر ملفوفًا بقطعة من الكاكي، ثم قاموا بتجهيزهم وتسليحهم.

مع بداية شهر أغسطس/آب 1914 أدّى الهجوم الألماني المباغت إلى انهزام فرنسا، ثم اجتاحت الجيوش الألمانية أراضي بلجيكا، وعندئذٍ كان يتعين على الحكومة الفرنسية أن تغادر باريس إلى بوردو. وفي هذا السياق تم توجيه الجنود المغاربة يوم 25 أغسطس/آب إلى أميان (Amiens)، أي بعد أسبوع من وصولهم، بغية تغطية عمليات إنزال جيش مونوري (Maunoury) الرابع الذي سيُحدث مفاجأة في صفوف الألمان.

– سبتمبر/أيلول 1914: معركتا أورك ومارن (l'Ourcq et la Marne)

شارك المحاربون المغاربة يوم 5 سبتمبر/أيلول في معركة أورك التي دارت رحاها على بعد أقل من ثلاثين كيلومترًا عن باريس. كانت المعارك بطولية وعنيفة ودامية، وتم في المساء إحصاء الخسائر التي كانت 19 ضابطًا و1150 صفّ ضابط وجنديًا، أي 30 في المائة من العدد الإجمالي. ثم كانت لهم بين 6 و10 سبتمبر/أيلول مشاركة فعالة في الانتصار الذي تحقق في مارن. وانطلقوا يوم 11 يتعقبون أثر الألمان الذين انسحبوا إلى الشرق واستولوا على قرية شودان (Chaudun) جنوب سواسون في أعقاب معارك شوارع عنيفة، وبرزوا بعد ذلك في معارك أخرى لا تقل عنها عنفا ودموية.

ومنذ الهجمات الأولى بعث الجنود المغاربة شعورًا بالرضى عنهم لدى القيادة العسكرية العليا لأنهم أثبتوا أنهم مقاتلون ممتازون، وأنهم من بين "أفضل المحاربين في

(1) Juin (Capit. A.), *Historique Succinct du 1er Régiment de Tirailleurs Marocains (1er R.T.M.)*, Levé, Paris, p. 3, reproduit dans Spillman (Colonel G.), Historique du 1er R.T.M., 1914-1947, Edits F. Moncho, Rabat, 1948, p. 7.

الجيش الفرنسي" بحسب وزير الحرب ألكسندر ميلـــران (A. Millerand). كمـــا أورد ألفونس جوان أن "الجهد الباهر للمغاربة خلال العمليـــات الحربيـــة انتـــزع إعجاب العالم بأسره"[1]. وباتت سمعة الجنود المغاربة عالية إلى درجة أنهم صـــاروا يُستخدمون بلا حساب كقوة ضاربة في أكثر المعارك ضراوة، ودائمًا في الصفوف الأمامية. لكن ثمن كسب تلك الانتصارات الباهرة كان تكبدهم لخســـائر ثقيلـــة، وهي خسائر تبرهن على اندفاع هؤلاء المقاتلين وبطولاتهم؛ "فمـــن أصـــل 4000 مقاتل نزلوا على الأراضي الفرنسية قبل ذلك بشهر لم يبق منهم سوى 800 رجل قادر على القتال" مثلما اعترف بذلك النقيب جوان[2]. وكـــان علـــى المحـــاربين المغاربة أن يعيشوا تجربة قتال الخنادق الفظيعة، ومع ذلك برزوا مجددًا في المواجهات الكبرى التي كانوا طرفًا فيها.

- 1915-1916: حرب الخنادق

في يوم 8 يناير/كانون الثاني 1915 تم إقحام فوج المشـــاة المغاربـــة الأول في معركة سواسون.

يوم 6 أكتوبر/تشرين الأول تقدموا مهاجمين في اتجاه سوم-بـــي (Somme-Py).

وخلال يوم 16 أكتوبر/تشرين الأول 1915 تحصّل الفيلق على تنويه عسكري على النحو التالي:

"لقد أزال يوم 6 أكتوبر/تشرين الأول فجرًا، تحت إمرة قائده المقـــدم أورو، الموقع الألماني الثاني على جبهة طولها مئات من الأمتار، وقفز مرة واحدة إلى أبعـــد من كيلومتر عن ذلك الموقع، ثم انقضَّ على العدو الذي فـــوجئ في معســـكراته، فكبّده خسائر فادحة بواسطة الحراب[3]. وبعد المعارك القاســـية في 1914-1915

---

(1) نفس المرجع، ص 7.

(2) نفس المرجع، انظر أيضا:

Lugand (Cdt), L'Historique des Tirailleurs Marocains, dans la *Revue Historique de l'Armée*, 1952, p. 44.

(3) قسم الأرشيف التاريخي العسكري لجيش البر، سجل التحركات والعمليات، والنقيـــب جوان: مرجع مذكور، ص 14.

التي أُبيد خلالها الفيلق المغربـــي، تمت إعادة هيكلته. وبفضل التجنيد المكثف شكّل ليوطي في المغرب فيالق وكتائب جديدة حلّت محل الكتائب المشاركة في الحـــرب. وكان يُلقى بالمجندين الشباب الجدد في أتون القتال بعد تكوين سريع.

- خلال أبريل/نيسان 1916 في جحيم فردان (Verdun)

قاتل الجنود وأجسادُهم متلاحمة مع أجسادِ أعدائهم في معارك طاحنة ومروعـــة تحت وابل من النار والحديد، وتم سحق سرايا بأكملها. وشارك المغاربـــة خاصـــة في استعادة حصن دوامون (Douaumont) أيام 22 و23 و24 مايو/أيـــار 2016[1]. وفي بداية 1917 تم إلحاق فيلق المشاة المغاربة الأول (R.T.M1 er) بلواء المشاة 153 وشارك في الهجوم علـــى أســـن، ووصـــل إلى شـــومان دي دام (le Chemin des Dames) في أبريل/نيسان، ثم كورتكون، وتحصل على تنويه ثان مكافأة لـــه علـــى جهـــده الباهر.

- الهجوم المضاد الظافر للحلفاء

كانت سنة 1918 سنة القرار، فقد بدأت الكتائب المغربية تســـتعيد عافيتـــها بشكل سريع، وبداية من يناير/كانون الثاني إلى مارس/آذار وصـــل فيلـــق المشـــاة المغاربة الأول إلى جبهة فردان، وقامت القيادة العليا بتشكيل فيلقين مـــن ثـــلاث كتائب من أصل ست كانت موجـــودة، وأخضـــعتها لتـــدريبات حـــتى شـــهر يونيو/حزيران، ثم دُفع بهم تباعًا إلى كومبيان لتعزيز الجيش الثالث ثم أميان لـــدعم الجيش الأول، ثم أرتوا (Artois) إلى جانب البريطانيين. ونفّـــذ الفـــوج يـــوم 28 يونيو/حزيران هجومًا على مرتفعات كوتري "وألقى القبض على 500 أسيرٍ وغـــنم 18 رشاشًا وكميات من العتاد" (أ. جوان)، وأتاح له ذلك النجاح الحصول علـــى التنويه الثالث. واستحوذ في تموز/يوليو على قرية بروبال، وبلغ يـــوم 19 الطريـــق الرابطة بين باريس وسواسون، ثم أدرك كريز بالتنسيق مع الأميركـــيين، وكـــوفئ بوسام رابع ثم بخامس على تضحياته، وأدركه اتفاق السلام في شوني.

---

(1) النقيب جوان، مرجع مذكور، ص 1516-. انظر كذلك بكراوي، محمد: **الجنود المغاربة في معركة فردان**، المنشورات الجامعية الفرنسية باريس 1996، ص 3945-.

ب- الخيالة المغاربية

اشتملت الوحدات المغربية على فيلق من (الخيالة) الذي برز بدوره في فرنسا أولاً بين 1914 و1917 في معارك مارن في سبتمبر/أيلول وفي إيزر بمنطقة شـامبان (مارس/آذار 1915)، وإيبارج (أبريل/نيسان) وسوم (مايو/أيـار) وأرتـوا...[1]. وأُرسل في 1917 إلى الجبهة الشرقية حيـث حـارب في اليونـان ثم في ألبانيـا (سبتمبر/أيلول)، وفي بلغاريا وصربيا (أسهم في تحرير أوسكوب) والمجر، وحصـل على خمسة أوسمةٍ.

و لم تقتصر المساعدة العسكرية التي قدَّمها المغرب لفرنسا على آلاف الرجـال الذين أُرسلوا إلى ساحات الوغى والمصانع الحربية فقط، وإنما شملت أيضًا مشاركة الجندية الوحيدة في الجيش الفرنسي وهي المغربية فاطمة. وقد سُمح لهـا بحكـم زواجها من أحد المشاة بمرافقته في ساحات الحرب الفرنسية؛ إذ كان الجنود المغاربة المتطوعون يحظون بنظام خاص مختلف عن نظام القوات الفرنسية.

وأفادنا عدد جريدة "لوموند المصور" بأن فاطمة "شاركت في عدة عمليـات وأثبتت خلالها شجاعة فائقة وإصرارًا راسخًا، وكانت تقضي أيامها المليئة بقسـوة الجندية ببشاشة؛ فالسيدة فاطمة تتحمل كل أنواع التعب والحرمان التي تفرضـها حياة الحرب. كانت طيبة وفاعلة خير فهي تداوي الجرحى وتغمرهم بتشـجيعها وتساعدهم على الوصول إلى الأقسام الاستشفائية. وغدا حماس تلك المرأة الشـابة والرشيقة ومزاجها المرح مشهورين بين جميع عناصر فوجها. وكان المغاربة "أبنـاء البلد" يغمرونها بالتقدير ويمتثلون لما تقوله بحماس"[2].

---

(1) قسم الأرشيف التاريخي لجيش البر، مفكرة المسيرة والعمليات لفوج المشـاة للسـباهي المغاربة، ص 109.

SHAT, 26N903, *JMO du Régiment de Marche des Spahis Marocains de 1914 à 1919*; See also: *Bulletin du Comité de l'Afrique Française, (BCAF)*, Le Régiment de Marche des Spahis Marocains, 1920, p. 109 et s.

(2) ذكره شانتال أنتيي – رينو في **جنود المستعمرات في الحرب العالمية الأولى**، منشورات أواست فرنس، ران 2008، ص 74.

Antier-Renaud, Chantal: *Les Soldats des Colonies dans la Première Guerre Mondiale*, Editions Ouest-France, Rennes, 2008.

لكن لم تتم مراعاة المقاتلين المغاربة أبدًا في جميع الجبهات الأوروبية؛ إذ كانوا بحسب عبارة ليوطي "يوضعون في كل المطابخ"؛ ولذلك تكبدوا خسائر قاسية وتبخَّرت أعدادهم بسرعة لا تُصدق. وهكذا طرح مشكل التجنيد بشكل سريع. فهل سيكفي التطوع لتأمين التعزيزات الضرورية؟

- تجنيد المحاربين

بالنظر للخسائر الكبيرة في الأرواح دعت القيادة العليا للجيش في أواخر أغسطس/آب 1914، ومنذ المعارك الأولى، المقيم العام الفرنسي إلى تكثيف عمليات التجنيد. لكن ليوطي أشار في رسالة تعود إلى شهر أكتوبر/تشرين الأول إلى أنه "يشعر للمرة الأولى في المغرب بتلكؤ في موضوع تجنيد المغاربة (للقتال)"[1]. ولا شك أن أخبار المذابح قد تسرَّبت إلى مسامع المغاربة وأدَّت إلى تلك المقاومة. كما أن انقطاع أخبار أولئك الذين ذهبوا إلى الجبهة يُعزِّز ذلك الحذر. لم تكن الخدمة العسكرية الإلزامية سارية في المغرب، بل كان نظام التجنيد الطوعي هو المطبق. أي عقود لفترات محددة تمتد على سنة أو سنتين أو ثلاث. وتم الرفع من المنحة الأصلية، التي كانت تقدَّر بخمسين فرنكًا في السنة، إلى ستين في أغسطس/آب من أجل تحفيز الشباب على الانخراط. أمَّا في فرنسا فكان المشاة يتقاضون 1.25 فرنك وكان عليهم أن يُعيدوا 0.35 فرنك منها إلى الإدارة؛ ما يعني أنه لا يتبقى لكل واحد منهم سوى 0.90 فرنك[2].

هذا المبلغ التافه لا يمكن أن يُغري المغربي الذي يمكن أن يحصل على راتب أرفع بكثير في الورشات التي فتحتها الحماية. ومن هنا، كان يتعين على الإدارة أن تستخدم نفوذها لإقناع السكان القرويين، فتمت "تعبئة" القُوَّاد والشيوخ ليجولوا على القبائل والقرى والأسواق، كما أن الدعاية انتشرت بمهارة عبر صحف الحماية (على سبيل المثال صحيفة "السعادة").

(1) رسالة من ليوطي إلى غير (Guerre) مؤرَّخة في 16 أكتوبر/تشرين الأول.
SHAT, 7N2122, No. 229D, *De Lyautey à Guerre*, 16 Octobre 1914.

(2) Ibid., 3H361, No. 3449 9/11, Guerre au Général Commandant, 18e CA, Bordeaux et au Général Comdt, 16e CA, Montpellier, 5 août 1914; Dépêche Ministérielle No. 3969 9/11, 27 Août 1914.

وابتداء من سنة **1915** صار ليوطي يُواجه مأزقًا حقيقيًا، فمن جهة تتزايد الضغوط عليه لتأمين المزيد من المقاتلين، بالإضافة للعمال، ومن جهة ثانية، فإن حصول هؤلاء العمال على رواتب أعلى، عرقل تجنيد المحاربين. ولذا تعيَّن عليه أن يلجأ إلى إجراءات راديكالية في عمليات التجنيد، وهو يُقر بذلك عندما يقول: "إن القيام بالتجنيد تحت ضغط شديد، الذي طُبِّق في جميع مناطق المغرب التي أخضعت (لنا)، والذي لم يُمكنًا حتى من سدِّ الفراغات، لم يتم من دون عيوب جدية" (4 سبتمبر/أيلول 1915). وبالتالي، فإن طابع الإكراه في تلك العمليات ليس محل شك. وشكّلت مناطق السهول والهضاب في المغرب الأوسط والجنوبي المحتلين الخزان الرئيس للجنود طوال فترة الحرب.

وتم توسيع التجنيد القسري ليشمل المناطق الجبلية التي لم يكن قد تم إخضاعها، وأُجبرت قبائل الشاوية ودكالة وعبدة والرحامنة والحوز والغرب، وجهات مكناس وفاس وتازة على المساهمة الكبيرة في ذلك الجهد. واتضح في 19171918- أن الحرب أصبحت آكلة للرجال، وصار المغرب مرغوبًا في هذا الأمر أكثر من أي وقت مضى، ودعا كليمنصو ليوطي إلى تكثيف التجنيد من أجل تأمين عشرة آلاف مقاتل في 1918[1]. وقاد التجنيد القسري إلى ملاحقة حقيقية للرجال؛ ففي كثير من المناطق نُظِّمت حملات لمطاردة الشباب، وخصوصا في "معاقل" كبار قواد الجنوب.

- ما النتيجة التي يمكن أن نستخلصها؟

من الصعب وضع تشخيص دقيق تمامًا، بالنظر خاصة للحركة التي كانت لا تتوقف بين التجنيد وإرسال الجنود إلى الجبهة وعودتهم وإنهاء الخدمة. وسنحتفظ بالعدد الذي ذكره ليوطي حين قال: "في نهاية الحرب كان المغرب قد أعطى 45 ألف رجل من الذين لم يخفت ولاؤهم أبدًا" (Paroles d'Action)، 1927، ص 392)، بمن فيهم المشاة والخيالة والقوات المساعدة بشتى أنواعها خلال الحرب.

(1) Ibid., 3H93, Rapport No. 154 CMC, à Guerre, Rabat 4 Septembre 1914, Note 9/11, Guerre à Résident Général, 1er Janvier 1918.19

وكانت تلك المساهمة قطعًا أقل من مساهمة البلدين المغاربيين الآخرين.

الجزائر	تونس	المغرب
172.000	60.000	45.000

المصدر: ميناي (ج) الجزائر إذ تبوح بأسرارها (L'Algérie révélée)، ص 405.

إلا أن هذا الرقم يظل مهما جدًّا إذا أخذنا في الحسبان أن الحماية لم تفرض على المغرب الا سنة 1912، وأن نصف البلد كان لا يزال خارج سيطرة السلطة الاستعمارية. أمَّا حصيلة الخسائر المغربية فمن الصعب تقديرُها مثلما هي الحال عندما يتعلق الأمر بتعداد القتلى. فبالإضافة إلى كونهم عرضة للخطر في الصفوف الأمامية، فإن صغر سنِّ المجنَّدين جعلهم أكثر هشاشة، فهم يستسلمون سريعًا للذعر ويُعرِّضون أنفسهم للقتل بسهولة.

إجمالاً، يمكن القول إن ما لا يقل عن 12000 رجل من أصل 45000 من المشاة والخيالة الذين شاركوا مباشرة في جبهات القتال بفرنسا والمشرق، لقوا حتفهم، أي ما نسبته 26.6 في المائة من العدد الإجمالي. وتتجاوز هذه النسبة بشكل واضح حجم الخسائر التي تعرَّض لها سكان فرنسا (24 في المائة) وكذلك الجزائريون (15.1 في المائة)[1].

ج- الجنود المغاربة في فرنسا

كان يمكن لروح المقاومة أن تتقد لدى المجندين على الجبهة بفعل الأوضاع في المغرب، حيث ما زالت الحرب مستمرة ضد المحتل، وعبء التجنيد على كواهل السكان المدنيين، بالإضافة للخسائر الحاصلة، غير أن الأمر لم يكن كذلك. صحيح أنه سُجِّلت حالات امتناع عن الانخراط في الجندية، وحتى عمليات هروب من الخدمة، لكن لم يظهر هبوط في المعنويات أو كان ظهوره قليلاً. ويمكن تفسير هذا السلوك بتأثير سلطان البلاد وأيضًا بالتأطير الصارم والدائم للرجال. فمنذ اندلاع المواجهات

(1) Michel, Marc: «Les Troupes Coloniales Arrivent: Au temps des Colonies», *L'Histoire*, Paris Seuil, 1984, p. 20.

اختار مولاي يوسف موقعه إلى جانب فرنسا وحلفائها، وقُرئت باسمه في المساجد رسائل دعم للحكومة الفرنسية. أمَّا على جبهة الحرب بفرنسا "فكان هناك رسائل أخرى أرسلت لتقديم التشجيع للجنود المغاربة، وكان ينبغي للمرء أن يرى، مثلما رأيتُ، كيف كان الجنود ويُقبِّلون في مستشفيات الجبهة تقبيلاً، وبأية درجة من التأثر" كما أوضح ليوطي[1]. ففي يوم 23 نوفمبر/تشرين الثاني 1914، على سبيل المثال، وجَّه السلطان رسالة إلى هؤلاء الجنود المغاربة، الذين كانوا يقاتلون في فرنسا، من أجل تشجيعهم والرفع من معنوياتهم، فكتب قائلاً: "إن الجنرالات والقادة الفرنسيين يُكنُّون لكم من التقدير ما جعل إخوانكم الذين بقوا هنا يغارون من أكاليل الأوسمة التي حصدتموها في ساحات القتال، والمخصصة للشجعان فقط"، ثم أضاف: "أنتم على العكس، تقاتلون باسم الحقِّ الأنقى من أجل حرية الأمم وخلاص الشعوب والحفاظ على السلم والنظام..."[2]. وأكَّدت الرسائل والنداءات الشريفية المتكررة الولاءَ المطلق للسلطان وتضامنه مع فرنسا وحلفائها في هذه الحرب التي هي حرب الحرية والعدالة والديمقراطية في وجه التسلُّط. وكان المقيم العام والحكومة الفرنسيان يشيدان في مرَّات كثيرة بولاء السلطان خلال كامل فترة الحرب. أمَّا السبب الآخر فهو التأطير الأبوي والمتين والدائم، وكذلك المراقبة الصارمة والممنهجة التي كانت تمارَس في جميع المستويات. وكانت تبدأ منذ الوصول إلى مركز الاستقبال المُقام في مدينة أرل (Arles) على أيدي ضباط/مترجمين ومساعديهم المغاربيين، الذين يختارهم ليوطي بعناية كبيرة. إنهم يسهرون على معنويات الجنود وسلوكهم وعلاقاتهم مع المدنيين، وهم مكلَّفون أيضًا بتسوية مشاكلهم، وكانوا يراقبون رسائلهم. ومن الأكيد أن الرجال كانوا تحت مراقبة شديدة في أرل وأنَّ العيون تلاحقهم خارج المركز، إلا أنه كان يسمح لهم في الوقت نفسه بالذهاب إلى المقاهي العربية والمسجد. وكان هناك أئمة وفقهاء يَؤُمُّونهم عند الصلاة ويكتبون لهم رسائلهم. غير أن المراقبة كانت أشد في الجبهة، خصوصًا ابتداء من سنة 1915 في أعقاب موج الفرار من الخدمة[3]. مع ذلك، لم تشفع لهم

(1) ليوطي، هوبير: **حديث الفعل**، مرجع مذكور، ص 392.
(2) SHAT, 7N2103, 5 Moharram 1333, 23 Novembre 1914.
(3) البكراوي: **المغاربة في الحرب الكبرى**، ص 135.

التضحيات الجسيمة المبذولة، ولا الخسائر الفادحة التي تكبدوها، دفاعًا عن الأرض والراية الفرنسيتين، لمسح التمييز والتفاوت بين الجندي الفرنسي والجندي الأهلي في مجال الارتقاء إلى الرتب العليا والحق في منحة مالية ثابتة وفي الحصول على المعاش، والإجازات والرواتب. وكانت الآلام المعنوية لا تقل قسوة عن مثيلتها الجسدية، فالجندي المغربي، بالرغم من شجاعته، لم يكن يستطيع التأقلم مع المناخ القاسي في شرق فرنسا ولا مع ظروف هذه الحرب الحديثة. وخلّف المناخُ القارس والرطب ونوع الأكل غير المُلائم للجنود، ضحايا كثيرين (بفعل أمراض الصدر والرئتين والملاريا والحروق في الساقين).

وبعثت الآليات الحديثة من مدافع ثقيلة من كل الأحجام ورشاشات ودبابات وطيران، الرعب والذعر، في صفوف المحاربين الشباب وأحدثت فرارا من ساحة المعركة. وحدثت حركات رفض للسير وإعدامات فورية. غير أن الوحدات المغربية الأولى التي كانت أكثر تدريبًا وخبرة تأقلمت أكثر من المجندين الشباب، الذين تم تجنيدهم سريعًا وإرسالهم إلى الجبهة من دون تدريب كاف. واتضح أن محنة الخنادق كانت مأساوية؛ إذ كان على المغاربة الذين كانوا مُعتادين على المساحات الشاسعة والجو المشمس وحرية الحركة، أن يبقوا مُتجمدين طيلة أيام في عالم الخنادق المغلق، بلا شيء يقيهم من السيول واجتياح الفئران والخنافس. كانت الصدمة شديدة، وتركت ضراوة الحرب وبشاعتها وقسوتها وعنفها جروحًا في الأجساد والأرواح. لكن المقاتلين كانوا يشكون أساسًا من الوحدة والحنين، فرسائلهم كانت تعبر عن الحزن والكآبة؛ فعلى سبيل المثال كتب أحد المجندين "بينما اكتب هذه السطور تسيل دموعي غزيرة ويُضرم الشعور بالوحدة لهيبًا حارقًا في صدري"[1]. وكتب جندي آخر يقول: "أعدُّ الأيام وأنا أذرف الدمع ليلاً ونهارًا، لكن الأيام والليالي تتوالى عليَّ متثاقلة، فلنسلِّمْ أمرنا لله. إنه امتحان يبعث به إلينا فلنرضَ به"[2].

---

(1) SHAT, 7N2107, *Contrôle de la Correspondance des Combattants Marocains*, Janvier, Mai, Juin 1917.

(2) Ibid.

مع ذلك، كانت الحرب بالنسبة لهم عنصرًا رئيسيًّا للتطور وتغيير الـــذهنيات. وقاد هذا الشعور لاحقًا إلى الرغبة في الاندماج في الجيش الفرنسي الذي اعتُبر أكثر عدلاً من النظام الاستعماري القائم في المغرب. ومن الأكيد أن تأطير هؤلاء الرجال عن قرب والمناخ الأبوي السائد ساهما بقوة في إذكاء تلك الرغبـــة في الانـــدماج، واحتكَّ الجنود المغاربة في الجبهات برجال من آفاق شتى من فرنسيين ومغـــاربيين وأفارقة وبريطانيين وأميركيين... فنشأت بينهم عُرى تضامن عميقـــة في المعـــارك والآلام المشتركة قرَّبت بينهم. وتابع كثير من المحاربين دروسًا في اللغة الفرنسية في المراكز الاستقبال وقرأوا نصوصًا وطالعوا صحفًا. يُضاف إلى ذلك اتصالهم المتكرر بالسكان المدنيين في مدن أرل وبوردو وسات وخلال الرحلات التي يقومون بهـــا عندما يكونون خارج الخدمة، وخاصة في المستشفيات. وأينمـــا ذهبـــوا كـــانوا يُستقبَلون أفضل استقبال ويُصفق الناس لهم، وحيثما مرُّوا تُرمى علـــيهم الـــورود. كانوا يسمونهم: "السيد" (Monsieur) وكانوا يُدعون إلى زيارة البيوت. هكـــذا تطورت عاداتهم شيئًا فشيئًا فعند الخروج للفسحة صاروا يلبسون مثل الفرنســـيين ويرتدون الزي الأوروبـــي ويعتمرون الطربوش. وخلال الحرب، تفوَّقت صـــورة فرنسا الحانية والمضيافة على النظام الاستعماري في المغرب الذي هو أكثـــر قمعًـــا وتمييزًا. كما كانوا مفتونين أيضًا بإمكانات المستعمر وقوته التقنية وطرقه في التنظيم والتسيير. وشدَّدت جميع التقارير العسكرية على اهتمام الجنود بالتكوين العسكري واستخدام الأسلحة وشغفهم الخاص بالأسلحة العصرية وأعمال الهندسة التقنيـــة؛ فاصبحوا مستعدين ومؤهلين لتعلم أية حرفة، وفعلاً تحول الكثير منهم إلى ســـائقين وميكانيكيين وخراطين؛ فالأذهان تطورت بلا شك، والإقامة في فرنسا كانت لهـــا ادن اثار أساسية.

كانت سنوات الحرب الأربع أساسية بالنسبة للمغرب؛ إذ شارك للمرة الأولى عشرات الآلاف من الشباب المغاربة، الذين ارغموا على مغادرة قراهم الصـــغيرة، مشاركة مباشرة في حرب عالمية. وحازت أعمالهم إعجاب الجميع، حتى الألمـــان الذين لقبوهم "بخطاف الموت" (ألفونس جوان). وكتب وزير الحرب ميلران برقية إلى ليوطي في التاسع من نوفمبر/تشرين الثاني 1914، قال فيها: "أنا عائد من جبهة

الجيوش وحصلت على شهادات كثيرة تبرز بسالة القوات المغربية، وأنا سعيد بـأن أرجو منك أن تنقل إلى أسرهم رضاي على الحماسة والصبر والشجاعة التي ما فتئ المُجنَّدون المغاربة يظهرونها خلال المعارك الدائرة حاليًا"[1].

وامتدح المقدم موريس قائد الفيلق الأول للمشاة المغاربة هـؤلاء الأخيرين الذين شاركوا في استعادة دوومون (Douaumont) في 1916؛ فكتب "لقد أثبتوا أن لديهم أقوى الميزات الهجومية مثلما لديهم الميزات الدفاعية، وضربوا مثلاً رائعا للصلابة والحميَّة والشجاعة والثبات تحت وابل من القصف الكثيف"[2]. أمَّا النقيب ألفونس جوان فاندهش لـ "رُوحِ التضامن الرائعة والحميَّة والوقفة الشامخة في مرمى النار" لدى رجاله[3]، مُضيفًا "من الآن فصاعدًا لا شيء يصمد أمام الاندفاع الهادر للشياطين المُرتَدِين جلابياتهم"[4].

وحظي عدَّة جنود بالتنويه العسكري بصفة فردية مـن أجـل مشـاركتهم البطولية في المعارك. كان هذا حال محمد بن هاشمي الذي كُرِّم بهـذه العبـارات: "خلال معركة السادس من أكتوبر/تشرين الأول 1915 (الهجوم على "سوم بـي" في شومباني) أعاد إلى ساحة المعركة في مناسبتين مجموعات من الرجال من سرايا مختلفة بعدما فقدوا قادتهم. وبعد لحظات قليلة أُصيب بشظية في فخـذه الأيسـر إصابة عميقة، إلا أنها لم تمنعه من مواصلة القتال بشراسة إلى أن تم نقلـه بعـدما خارت قواه نتيجة الدماء التي نزفت منه".

ويمكن ضرب أمثلة كثيرة من هذا القبيل، لكن إقامتهم في فرنسـا طبعتـهم بلونها الخاص في جميع المجالات، مثلما كان الشأن أيضًا للعمال المُرسَلين إلى فرنسـا "وهما صنفان من المتشبِّعين كثيرًا بروح العصر"[5]. وقد التقط ليوطي جيـدًا هـذا

(1) Ibid., 3H93, Ordre du Jour No. 5039, 9 Novembre 1914, Guerre à Lyautey; et As Saâda, des 15 et 16 Novembre 1914. Les Archives du SHAT, Fourmillent d'exemples d'éloges, de citations à l'ordre de la légion d'Honneur, d'attribution de médailles militaires, de Croix de guerre…

(2) Ibid., 26N857, J.M.O., 4e Bataillon Marocain

(3) Juin (Capit. A.), p. 8.

(4) Ibid., p. 12.

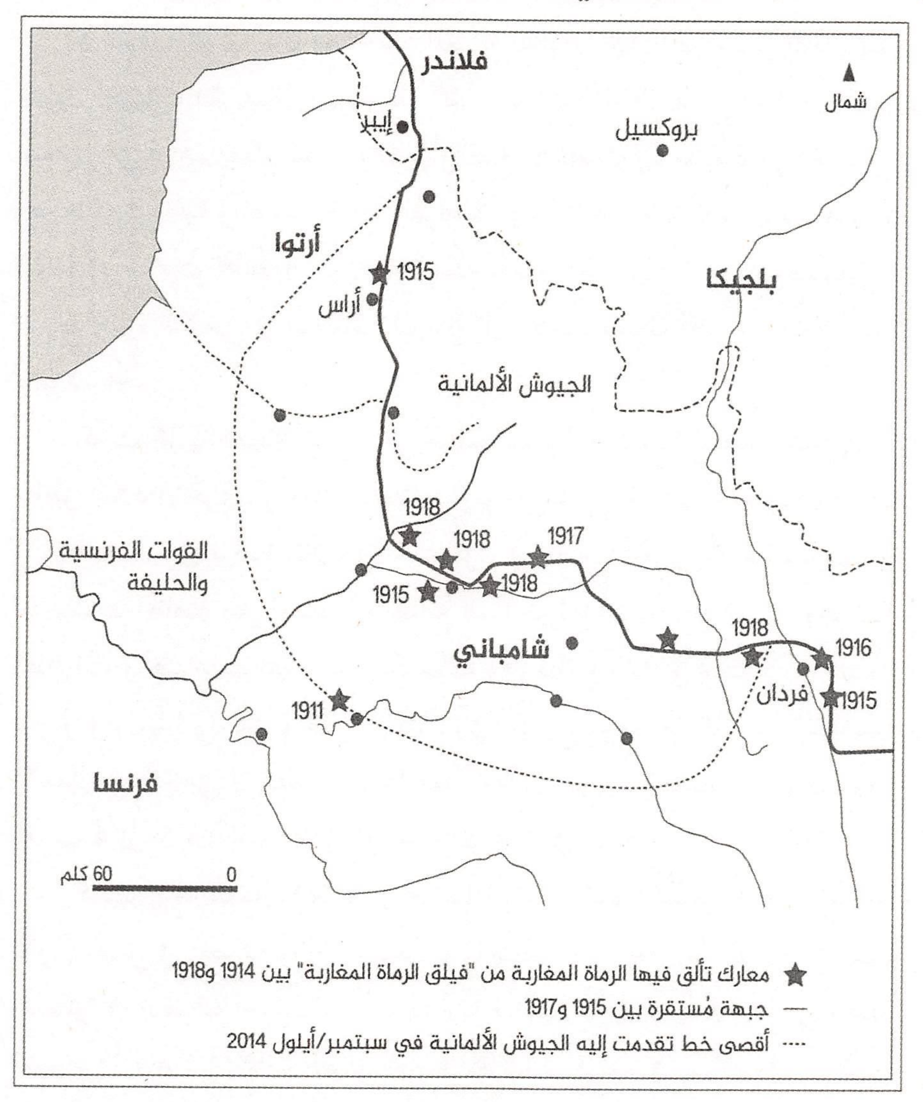
(5) Rivet, Daniel: *Lyautey et l'Institution du Protectorat Français au Maroc, 1912-1925*, L'Harmattan, 1988, T2, p. 256.

التغيير في الرُّوح والذهنية؛ إذ قال: "زادت الحرب الطارئة من نقاط الاتصال، فقد ذهب الآلاف من المغاربة إلى فرنسا وأوروبا، وهم لم يُقاتلوا فيهما جنبًا إلى جنب مع قواتنا فحسب، ولكنهم أقاموا أيضًا في مدننا وتعلموا اللغة الفرنسية وقرأوا وسمعوا ثم عادوا إلى المغرب مُحملين بأفكار جديدة (...). وكل هذه التأثيرات تنتشر في شعب هو الأذكى والمؤهَّل للفعل بين شعوب شمال إفريقيا..."[1].

ووجد الكفاح الوطني المغربي بشكل واضح في هذا بُعدًا عسكريًّا حديثًا؛ فالكثير من المحاربين العائدين من الجبهة إلى بلدهم سيقومون بدور أكثر فعالية في المقاومة الشعبية وفي حرب الريف التحريرية.

(1) Lyautey: *Lyautey l'Africain*, Tome 4, note du 18 Novembre 1920 dite du «Coup de Barre», pp. 25-26.

الرُماة المغاربة في الحرب العالمية الأولى (1914-1918)



الخيالة المغاربية على جبهة الشرق (1917–1918)

المصدر: قسم الوثائق التاريخية لجيش البر في فانسان 903 N 26

د- تزويد فرنسا بالعمال والمواد الزراعية والغذائية

في الوقت الذي كان فيه الجنود المغاربة يبذلون جهدًا أكبر من طاقتهم في مختلف الجبهات الفرنسية والأوروبية، كان عشرات الآلاف من أبناء وطنهم المُبعدين من قراهم بفعل البؤس والظلم والقمع الاستعماري، مدعوِّين للعمل في الضيعات الزراعية والمصانع الحربية الفرنسية. وبدأ الاهتمام بالمغرب يزداد منذ بداية 1915 إذ ساهمت المحاصيل الزراعية السيئة وتفقير الجماهير القروية والحرفيين في تسريع وتيرة التشغيل في الوظائف المدنية، التي كانت مقبولة أكثر من التجنيد في صفوف الجيش.

كانت غالبية العمال تنحدر من منطقة سوس، ثم توسع التجنيد تدريجيًّا إلى مناطق البلاد الأخرى، وخاصة تافيلالت ونواحي فاس ومكناس وتادلة ودكالة والرحامنة... وفي فرنسا كان هؤلاء يُشغَّلون في المصانع الحربية التابعة للدولة وفي المؤسسات الخاصة مثل المسابك ومصانع الذخيرة ومخازن المدفعية ومصانع الطائرات والصناعات التعدينية والكيميائية وفي قطاع البناء وحمَّالين في موانئ بوردو ومرسيليا وتولون والهافر، وكذلك في المزارع. وعموما كان يتم تشغيلهم في الأعمال الشاقة التي لا تتطلب تأهيلاً مهنيًا مقابل أجور منخفضة لا تتجاوز في الغالب 4 إلى 5 فرنكات مقابل 10 ساعات عمل في اليوم.

كانت إقامة العمال المغاربة في فرنسا أساسية لأنهم اكتشفوا من خلالها للمرة الأولى العمل في المصانع والعالم المُمكنن، واختلطوا مع رجال من آفاق مختلفة، وناضلوا في صفوف أحزاب سياسية يسارية فرنسية مثل الحزب الاشتراكي والحزب الشيوعي[1]. هكذا نشأت الطبقة العاملة المغربية في فرنسا في سياق الحرب الكبرى وعاشت تجربة النقابات والنضال الاجتماعي. وفي المقابل تطور أيضًا سلوك العمال المغاربة؛ إذ اكتسبوا أفكارًا جديدة ورُوحًا جديدة. وتسارعت الهجرة المغربية التي

---

(1) أرشيف غرفة تجارة مرسيليا، مذكرة حول استخدام العمال المغاربيين في ميناء مرسيليا.
Archives de la Chambre de Commerce de Marseille (A.C.M.), ML 4.2.7.3.2., note sur l'emploi de la main-d'œuvre nord-africaine dans le port de Marseille, rédigée par Augustin Bernard, Marseille, 23 Décembre 1918.

كانت محدودة قبل 1914. فتزايد عددهم بتطور مراحل الحرب حيث بلغ أربعين ألفَ عاملٍ في 1918 [1]. وهو رقم مرتفع خصوصا أن المستعمر لم يستطع بعدُ بسط سيطرته على جل التراب المغربي. ففي أثناء الصراع العالمي الأول انطلق مسار الهجرة المغربية نحو فرنسا، والذي سيتخذ بُعدًا أكبر في العشرينات من القرن الماضي، ليبقى بعد ذلك مستمرًا بلا انقطاع.

لقد فعل المغرب أكثر من ذلك بكثير؛ إذ قدم لفرنسا المُتحارِبة مساعدة اقتصادية على نفس ذاك المستوى من الأهمية والغزارة والتنوع؛ إذ ساهم في تغذية فرنسا بإرسال كميات كبيرة من المواد الزراعية الأساسية التي تنتجها الأراضي المغربية من حبوب ولحوم وبيض وأصواف وخشب... إضافة إلى الأموال والمواد المنجمية. وإجمالاً، أرسل المغرب إلى فرنسا خلال الحرب أكثر من 8 ملايين قنطار من المنتوجات الزراعية.

وشكّل المغرب، بلا شك، خزانًا ضخمًا لفرنسا من الموارد البشرية والاقتصادية من كل الأنواع خلال سنوات الحرب الأربع. وألقى ثقل المجهود الضخم المبذول بعبئه على الشعب المغربي الذي عانى من انقطاع مواد الاستهلاك الأساسية، من قمح وسكر وشاي وقهوة وصابون وشمع...، ومن التضييقات وبطاقات التموين والارتفاع المهول للأسعار والجوع والأوبئة. وأقرَّ المقيم العام ليوطي بأن "جميع الاحتياط من الحبوب أُرسل من دون حساب من أجل الاستجابة للطلبات المُلحة، وباتت مخازن الحبوب فارغة"[2].

وتسبَّب الانقطاع المستمر لمواد الاستهلاك الأساسية في ارتفاع الأسعار، وهو مناخ زادت من تفاقمه المضاربات والبيع في السوق السوداء. وأشارت المصادر الرسمية منذ بداية الحرب إلى غلاء كلفة المعيشة، فمثلاً ارتفع سعر القمح من 20 فرنكًا للقنطار قبل الحرب إلى 68 فرنكًا في الأول من يناير/كانون الثاني 1920. كما زادت أسعار المواد الأخرى مثل البيض والخضروات. أمَّا أزمة السكر فكانت أخطر لأنها تؤثّر في المغاربة جميعًا، المشهورين بكونهم مستهلكين كبارًا للشاي الحلو

(1) البكراوي: المغاربة في الحرب الكبرى، ص 149.

(2) Lyautey: *Lyautey l'Africain*, Tome 4, p. 91.

بالنعنع. وفي مكناس على سبيل المثال ارتفع سعر قالب السكر من 1.30 فرنك في 1914 إلى 4.27 فرنك في 1917، أي أنه تضاعف أربع مراتٍ في ثلاث سنواتٍ. فعانى السكان من ندرة جميع المواد الاستهلاكية الأساسية من حبوب وسكر وشاي وزيت وحليب وزبدة وصابون...

كل هذه التضحيات من أجل مقابل تافه تقريبًا، فقد كان للمغرب إسهام فعال في الحرب، إذ ساعد فرنسا وحلفاءها على كسب النصر. وبالتالي، ففرنسا تحملت أعباء ديْن تجاه الشعب المغربي، فهل سيُقر المسؤولون الفرنسيون الدَّيْن الذي في ذمتهم بعد نهاية الحرب؟ وهل سيفي ليوطي بالوعود التي قطعها إزاء المغاربة في مجال التربية والصحة والتخفيف من الضرائب والحريات الأساسية وإشراكهم في إدارة شؤون بلدهم؟

في الحقيقة لم يستفد الشعب المغربي بعد نهاية الحرب، بأي مكسب سياسي أو اجتماعي - اقتصادي من الجهود الجبارة والتضحيات التي بذلها، ولم تُقطع أية خطوة لإشراك الشباب المغربي في إدارة شؤونه. بل لم ينل المغرب حتى شرف أن يكون ممثَّلاً في مؤتمر السلام أسوة بالبلدان المغاربية الأخرى والسعودية والأمراء الهنود والدويلات المرتبطة بالتاج وبقية المستعمرات البريطانية. فعلى العكس من ذلك، تمت المحافظة على الوضع القائم، مع تقوية وتعميق الهيمنة الاستعمارية وسط هشاشة قصوى لدى الجماهير الريفية والحضرية. لذا كانت خيبة أمل المغاربة عقب الحرب عميقة ومرارتهم وشعورهم بالضيم كبيرين؛ ما جعلهم يتجاوبون مع الأفكار والشعارات الوطنية.

هـ- الحرب كعنصر حاسم في تطوير الأفكار وتغيير الذهنيات واكتساب الوعي المناهض للاستعمار

وفعلاً كان المغرب، بعد الحرب، واقعًا تحت تأثير التيارات الفكرية والتحررية التي اجتاحت العالم وأسهمت بقوة في يقظة الوعي الوطني. وقد أسفرت الحرب أيضا عن انهيار الإمبراطوريات المتسلطة والمستبدة، وانتصار الديمقراطية والليبرالية. كما ساهمت في انحدار أوروبا العجوز وفقدانها مَجدَها وهيمنتها لصالح قوى

جديدة ترفض الاستعمار، وهي أولاً الولايات المتحدة ومعها مبدأ الرئيس ويلسون عن حق الشعوب في تقرير مصيرها، وهو المبدأ الذي أثّر تأثيرًا كبيرًا في الوطنيين المغاربة. وكذلك الشأن بالنسبة للثورة البلشفية في1917 ومعاداتها الجوهرية للإمبريالية الاستعمارية. وكانت أيضًا هناك حركة النهضة العربية وتنامي الحركات القومية في المستعمرات الفرنسية والبريطانية وفي البلدان العربية الإسلامية مثل مصر وسوريا ولبنان... التي أعلنت خيارها الوطني وصاغت مطالبها المتعلقة بالاستقلال، وكذلك الحركة القومية التركية التي أطلقها مصطفى كمال. فجميع هذه التيارات الفكرية وهذه العناصر كان لها تأثير مؤكد على المثقفين والشباب المتعلم وكل الأوساط المستنيرة في المدن الكبرى المغربية. وكتب ليوطي في هذا الصدد "ظلّت النخبة المغربية وعائلات التجار الكبار والموظفين السامين في المخزن، من خلال اتصالاتها بالأوروبيين والسكان الجزائريين والتونسيين، وكذلك من خلال قراءة الصحف والمجلات، على علم حقيقي بالأحداث. ومن جهة أخرى كان العلماء، وخاصة علماء جامعة القرويين في فاس، والمثقفين والشخصيات الدينية يتراسلون بشكل مستمر مع شخصيات من المشرق والآستانة حيث سبق لهم أن أقاموا فيها، وكانوا يطالعون الصحف العربية وحتى تلك التي كانت محظورة في المغرب"(1).

وتابع كثير من وجوه تلك النخبة الحضرية عن كثب المذاهب الإصلاحية في المشرق بواسطة الصحف، وخاصة مجلة "المنار"، التي أسّسها رشيد رضا في القاهرة سنة 1887، وكانت تعُدُّ مشتركين كثرًا في المدن الكبرى، وخاصة فاس(2). وانتشرت بسرعة في المغرب كتابات زعماء الإصلاح والسلفية والعروبة وأفكارهم، وأثّرت بقوة في عقول الشباب الطلابي في "القرويين" والمدارس الفرنكو إسلامية، وشملَت بعض المنتمين لفئات المخزن العليا والتجار... وكان البعض من ذلك الشباب، الذين كان يتوجس منهم ليوطي كثيرًا، والمنحدرين من فاس

(1) Lyautey: *Lyautey l'Africain*, Tome 4, p. 103.

(2) الوزاني، محمد حسن: **حرب القلم**، مؤسسة محمد حسن الوزاني، فاس 1982، ص 13.
انظر كذلك:
Cagne, J: «Presse et Salafisme au Maroc au Début du XXe Siècle», Dar Al-Niaba, No. 7, 1985, p. 1 et s.

والرباط وسلا وتطوان... يُتابعون دراستهم في جامعة القرويين بفاس، وفي الجامعات العربية في المشرق (القاهرة ودمشق وبيروت...)؛ حيث كانوا يتلقون ثقافة عربية إسلامية. فيما كان آخرون يترددون على مدارس أبناء الأعيان وثانويتي مولاي إدريس في فاس ومولاي يوسف في الرباط، حيث تُلقّن ثقافة مزدوجة. ولقد تخرج من هاتين المؤسستين الجيل الأول من الطلاب الذين كانوا ينتمون في الغالب لعائلات ثرية من التجار والموظفين السامين الذين أُرسلوا بعد ذلك إلى فرنسا لاستكمال دراستهم[1].

لقد ظل التعليم الذي أحدَثتهُ سلطات الاحتلال نخبويا وقليل الانتشار، لم يستفد منه جل أبناء الشعب المغربي. أمّا التعليم العالي فغير موجود. ولهذا، شجّع العلماء الإصلاحيون أمثال بوشعيب الدكالي ومحمد العربي العلوي على إنشاء مدارس حرة. وابتداءً من سنة 1919 أسَّس أحمد مكوار بالفعل مدرسة سيدي البناني في فاس[2]. وظهرت مدارس أخرى في المدن الكبرى، وركّزت مناهجها على التراث الثقافي الإسلامي والتاريخ والجغرافيا... وهكذا برزت في حدود سنة 1920 شبيبة متعلمة وطموحة "تشعر بأنها تعيش وتريد أن تكون فاعلة بعدما ذاقت طعم التعلم..." كما يقول ليوطي[3]. أمّا الذين أتموا دراستهم فتطلعوا للإسهام في تسيير شؤون بلدهم، إلا أنهم اصطدموا بصخرة الواقع الاستعماري. حيث كانوا محل شكوك وكانوا يُهمشون ويبعدون؛ مما أثار استيائهم وسخطهم، فانضموا إلى صفوف الحركة الوطنية الناشئة، وعملوا على تأطيرها وقيادتها. وبرز من بين هؤلاء بشكل خاص علال الفاسي ومحمد حسن الوزاني وأحمد بلافريج... وقد شاركوا ابتداء من أكتوبر/تشرين الأول 1920 في حركات الاحتجاج والمظاهرات التي اندلعت ضد هشاشة الأوضاع المعيشية والضرائب الجديدة التي فرضتها الإدارة

(1) بكراوي، محمد: "في مدرسة الوطنية"، زمان، العدد 17، مارس/آذار 2012، ص 66 وما يليها.

(2) دمس، جون: **حركات المدارس الحرة بالمغرب 1919-1970**، ترجمة سعيد معتصم، الدار البيضاء 1991، ص 36.

Damis, John: *Harakât al-Madâriss al-Hourrâ bi al-Maghrib*, 1919-1970, traduit par Saïd Moatassim, Casablanca, 1991, p. 36.

(3) Lyautey: Lyautey l'Africain, Tome 4, p. 29.

الاستعمارية، وخاصة الضريبة المهنية[1]. وانتقلت تلك الحركات التي انطلقت من الرباط وسلا، سريعًا إلى المدن الكبرى. واستثمر الوطنيون ذلك من أجل تنظيم اجتماعات وصياغة عريضتين سُلِّمتا إلى السلطان وللمقيم العام، واللتين شكّلتا برنامجًا حقيقيًّا للمطالب الأولى التي تطالب بمنح دستور والقيام بإصلاحات في التعليم والزراعة والحريات السياسية: حرية الصحافة والاجتماع...، وهي مطالب معتدلة عموما[2]. لكن لم يُنفذ أي شيء من تلك المطالب، وأكثر من ذلك، واجهتها السلطة الاستعمارية بعنف واعتقلت الوطنيين الذين تزعموا الحركة.

كان المسار قد انطلق ولن يتوقف أبدًا، غير أنه كان يحتاج إلى التنظيم وتوحيد عمله وامتلاك لائحة مطالب متجانسة. فكان على الوطنيين الشبّان بعد تخويفهم بفعل القمع المفروض على البلاد في 1921 أثناء حرب الريف، أن ينطووا على أنفسهم ويعملوا في السرية. وبالفعل بدأت تتكون منذ سنة 1920 خلايا سرية وحلقات تجمع المثقفين في فاس والرباط وتطوان...[3] لطرح ومناقشة المشاكل المغربية والعربية الإسلامية والدولية، مثل النهضة العربية والقومية العربية والتركية، وفيها تُقرأ الصحف والكتب وتُناقَش أيضًا، وتُعد مسرحيات حول مسائل وطنية. وباشروا بشكل خاص نشاطًا مكثفا للتأصيل في مختلف مناطق البلاد وعملاً دعائيًّا وطنيًّا لدى الجماهير، من بينهما أنشطة موجهة للشبيبة المدرسية وإنشاء مدارس حرة وإعطاء دروس ليلية للكهول... وأكّد محمد حسن الوزاني، الذي قدّم معلومات ثمينة عن تلك الحقبة غير المعروفة جيدًا، أن أول جمعية سرية تشكّلت في الرباط مع بدايات حرب الريف، على أيدي مجموعة من الوطنيين، كانت تحمل اسم "حماية الحقيقة". ويُعطي المؤلف قائمة بأهم أعضاء تلك الجمعية وغالبيتهم من أبناء الأعيان والبورجوازيين والوجهاء الذين تولّى بعضهم قيادة الحركة الوطنية

---

(1) الوزاني (محمد حسن): حياة وجهاد، مذكور الجزء الأول، ص 249 وما يليها، وكذلك: علال الفاسي، مرجع مذكور، ص 131.

(2) الوزاني: مرجع مذكور، ص 237، وكذلك: ليوطي الإفريقي، مذكور الجزء الرابع، ص 29.

(3) الوزاني: مرجع مذكور الجزء الأول، ص 359، وكذلك: شارل أندري جوليان: "المغرب في مواجهة الإمبرياليات"، ص 158.

وهم أحمد بلافريج ومحمد اليزيدي ومحمد حسن الوزاني ومكي الناصري وغيرهم.

وازدهرت سريعًا حلقات وجمعيات مشابهة في المدن الكبرى الأخرى، من بينها خاصة جمعية "المغرب الجديد" التي كان أعضاؤها على صلة وثيقة بعبد الكريم الخطابي، الذي طالب منذ 1923 بالاستقلال الكامل للمغرب[1]. كما استخدمت الحركة الوطنية جمعيات قدماء تلاميذ المدارس الإعدادية والثانوية، التي تكونت أولاها في ثانوية مولاي إدريس بفاس سنة 1919[2]. ثم تأسست جمعيات أخرى في مدن مختلفة. وأُنشئت أيضًا جمعيات رياضية وثقافية وكشفية، وكذلك حركات شبابية تنشر الدعاية الوطنية.

لذا، لم تواجه الحمايةُ المقاومةَ المسلحة في المرتفعات والجبال والنضال السياسي في المدن الكبرى فحسب، بل اصطدمت أيضًا طوال الحرب بكفاح سياسي قاده من خارج المغرب هذه المرة، وطنيون مغاربة من بينهم الشيخ محمد العتابي الوجه المنسي من الكفاح ضد الهيمنة الاستعمارية. وقد أقام طويلاً في تركيا ومصر وألمانيا وسويسرا والسويد، وكافح بصفة نشيطة في إطار اللجان المغاربية التي أُنشئت في سويسرا وكذلك إلى جانب مغاربيين آخرين، وبصفة خاصة التونسي باش حامبة، الذي كان يُدير مجلة "المغرب" وشكيب أرسلان زعيم النزعتين العروبية والإسلامية. ونشر العتابي مقالات عدَّة وألقى خطبًا دافع من خلالها عن القضية المغربية أمام الدوائر الدولية. وكان أول وطني مغربي طالب بالاستقلال الكامل للمغرب في خطاب عنوانه "صوت من المغرب" ألقاه في ستوكهولم في نوفمبر/تشرين الثاني 1917أمام المؤتمر الإسلامي للسلام الذي ضمَّ زعماء وطنيين عربًا ومسلمين[3]. لقد كان بلا شك أب الوطنية المغربية. ومثلما أكد جيلبار مينيي بتميُّز: "يجوز أن نعتبر حرب 19141918- بمثابة تقويم هجري

---

(1) الوزاني: مرجع مذكور، ص 300.

(2) Marty, Paul: *Le Maroc de Demain*, Comité de l'Afrique française, Paris, 1925, p. 172.

(3) بكراوي، محمد: "محمد العتابي الزعيم المجهول للحركة الوطنية المغربية"، زمان، العدد 30 مايو/أيار 2013، ص 62 وما يليها.

للحقبة الوطنية الحديثة"[1]. وينطبق هذا القول على المغرب أكثر من سواه لأن تلك الحرب عجّلت بتطور المجتمع المغربـــي. وبدت الوطنية المغربية الحديثة ابتداءً مـــن 1920 حركةً مكتملةً يقودُها الجيل الأول من الوطنيين الشباب. و لم يعد الكفـــاح عسكريًّا فقط ولا قبليًّا أو محليًّا، بل تضافر مع نضال سياسي نشيط في داخل البلاد وخارجها لكي يُصبح حركة وطنية حقيقية منذ 1921 مع حرب تحرير الريف، التي قادها المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابـــي.

(1) Meynier, Gilbert: l'Algérie Révélée, la Guerre de 1914-1918 et le Premier Quart du XX^{S} siècle, Libr. Droz, Genève, 1981, p. 626.

سير الأحداث

عرفت الحرب العالمية الأولى معاركَ عسكرية كبرى سواء في البلاد العربية أم خارجها سنكتفي هُنا بأبرزها، مع الإشارة إلى الأحداث السياسية التي سبقت اندلاع الحرب وتلك التي تخلّلتها، بالإضافة لأهم نتائجها وخاصة على صعيد العالم العربي.

1911

بداية الغزو الإيطالي لليبيا التابعة للسلطنة العثمانية.

1912

30 مارس/آذار:

- إطلاق يد فرنسا في احتلال المغرب بموجب معاهدة فاس في مقابل تخليها عن مصر لبريطانيا.
- الإمبراطورية العثمانية تتخلّى عن ليبيا بموجب معاهدة "أوشي" مع إيطاليا.

1913

يونيو/حزيران: المؤتمر العربي الأول ينعقد بقاعة الجمعية الجغرافية في باريس بحضور مثقفين وسياسيين من المشرق العربي ويطالب بحكم ذاتي في إطار الدولة العثمانية.

1914

27 مارس/آذار: المقاومة الليبية التركية تنهزم أمام الإيطاليين في ليبيا.

28 يونيو/حزيران: اغتيال ولي عهد الإمبراطورية النمسوية - المجرية في سراييفو.

23 يوليو/تموز: الإمبراطورية النمسوية - المجرية تُوجه إنذارًا إلى صربيا.

29 يوليو/تموز: قوات الإمبراطورية النمسوية - المجرية تجتاح صربيا.

1 أغسطس/آب: ألمانيا تُعلن الحرب على روسيا.

4 أغسطس/آب:

- القوات الألمانية تجتاح بلجيكا، وبريطانيا تُعلن الحرب على ألمانيا.
- فرنسا تُعلن التعبئة العامة في الجزائر.
- هزيمة ثقيلة لروسيا أمام الألمان في تانينبارغ (Tannenberg).
- البريطانيون يتراجعون في بلجيكا بعدما احتووا التقدم الألماني في معركة مونس (Mons).

سبتمبر/أيلول:

- الألمان يتراجعون عن التقدم نحو باريس بعد معركة المارن.
- الروس يحاصرون القوات النمسوية - المجرية في برزميسل (Przemysl).

أكتوبر/تشرين الأول: "السباق نحو البحر"... الألمان من جهة والبريطانيون والفرنسيون من جهة ثانية يسعى كل منهم للالتفاف على الآخر، فيجدون أنفسهم على خط مُتواصل من الخنادق على طول الجبهة الغربية.

4 نوفمبر/تشرين الثاني:

- السلطنة العثمانية تدخل الحرب وتُعلن انضمامها إلى ألمانيا.
- المُدمِّرة الأسترالية (HMAS Sydney) تُغرق السفينة الحربية الألمانية إمدن (Emden).
- الألمان يُفشلون اجتياحًا بريطانيًّا لمستعمراتهم في شرق إفريقيا في معركة تانغا (Tanga).
- الجنود البريطانيون والألمان يُعلنون هدنة غير رسمية بمناسبة أعياد الميلاد، وسط جمود في الجبهة الغربية.

ديسمبر/كانون الأول:

- بريطانيا تُرسل حملة عسكرية إلى الإسكندرية "لحماية مصر من أي هجوم عثماني".
- بريطانيا تُعلن حمايتها على مصر وتُسقط السيادة العثمانية عنها.

1915

مارس/آذار:

- انطلاق الهجوم البحري للحلفاء على مضيق الدردنيل.
- روسيا تستولي على برزميسل.
- البريطانيون يُهاجمون الألمان على الجبهة الغربية في نوف شابيل (Neuve Chapelle).
- قادة الحركة العربية في بلاد الشام والعراق من أعضاء جمعيتي العهد والعربية الفتاة السريتين يُقرِّرون القيام بالثورة.

أبريل/نيسان:

- إيطاليا تُوقِّع على معاهدة لندن وتقبل بالانضمام إلى الحرب في معسكر الحلفاء.
- المقاومة الليبية تُحقِّق نصرًا كبيرًا على القوات الايطالية في معركة قرب قصر "أبو هادي" في خليج السدرة.
- قوات الحلفاء تنزل بضفاف مضيق غاليبولي.
- الألمان يستخدمون الغازات السامة خلال معركة إيبر (Ypres) شمال فرنسا.

مايو/أيار:

- الأمير فيصل بن الحسين يُسلِّم مطالب الثوار العرب إلى والده لتكون أساسًا لمفاوضاته مع بريطانيا.
- القوات البريطانية تسيطر على العمارة بعد احتلال البصرة.

- غواصة ألمانية تُغرق سفينة الرُكاب البريطانية لوزيتانيا (Lusitania).
- أول غارات ألمانية على لندن.

21 أغسطس/آب: المجلس العسكري العُرفي (التركي) في عالية بلبنان يحكم بالإعدام على القافلة الأولى من الشباب العرب.

سبتمبر/أيلول:

- القيصر نيكولا الثاني يتسلم قيادة الجيش الروسي.
- بداية عمليات المقاومة العسكرية ضد فرنسا في جنوب تونس بقيادة خليفة بن عسكر والتي استمرت إلى 1918.

أكتوبر/تشرين الأول:

- قوات الحُلفاء تنزل في سالونيكا باليونان.
- بلغاريا تدخل الحرب إلى جانب ألمانيا.
- أكتوبر – نوفمبر/تشرين الأول – تشرين الثاني: الجيش النمسوي المجري يسحق قوات صربيا.

1916

فبراير/شباط: الألمان يُهاجمون القوات الفرنسية على جبهة فردان في معركة استمرت 300 يوم، وكانت الأطول والأكثر قتلاً في سنوات الحرب.

26 أبريل/نيسان:

- استسلام القائد البريطاني، الجنرال تاوسند، للقوات العراقية – العثمانية في كوت العمارة بعد حصار استمر 147 يومًا.
- دبلن تشهد انتفاضة عيد الفصح.

6 مايو/أيار: المجلس العسكري العُرفي يحكم بالإعدام على القافلة الثانية من الشباب العرب.

16 مايو/أيار: التوقيع على اتفاقية سايكس – بيكو التي قسّمت العراق وبلاد الشام إلى خمس مناطق نفوذ.

31 مايو/أيار:

- الأسطولان الألماني والبريطاني يخوضان معركة غير حاسمة في غوتلانـــد قبالة سواحل الدانمارك.
- هزيمة السُّلطان علي دينار آخر سلاطين دارفور في واقعة برنجية تحـــت نيران المدفعية البريطانية ويُضطر إلى ترك العاصمة الفاشر.

يونيو/حزيران: هجوم بروسيلوف الروسي ينجح في اختراق القوات النمسوية - المجرية في بولندا.

1 يونيو/حزيران: انطلاق الثورة العربية ضد الدولة العثمانية من مكة.

1 يوليو/تموز: الحلفاء يهاجمون الألمان في اليـــوم الأول مـــن معركـــة ســـوم (Somme) شمال فرنسا.

أغسطس/آب: رومانيا تدخل الحرب في صف الحلفاء لكنها تُهزم بسرعة.

سبتمبر/أيلول: مرسوم فرنسي يأمر بتجنيد جميع الجزائريين الذين وُلدوا قبل 1890.

نوفمبر/تشرين الثاني: السنوسيون يُعلنون الجهاد ضد بريطانيا ويبدؤون هجومًا على مصر التي كانت تحت السيطرة البريطانية.

ديسمبر/كانون الأول: ديفيد لويد جورج يُصبح رئيسًا للوزراء في بريطانيا.

1917

يناير/كانون الثاني: الجنرال الفرنسي نيفال (Nivelle) يُطلق هجومه المُدمِّر.

فبراير/شباط: الثورة في روسيا تُطيح بالقيصر نيكولا الثاني.

14 مارس/آذار: القوات البريطانية تحتل بغداد بعد انسحاب القوات العثمانية منها.

أبريل/نيسان:

- الولايات المتحدة تدخل الحرب.
- القوات الكندية تستولي على جسر فيمي (Vimy) شمال فرنسا.
- انتفاضات في الجيش الفرنسي في أعقاب فشل هجوم نيفال.
- اتفاق تحالف بين بريطانيا والحركة السنوسية في ليبيا بعد هزيمة الأخيرة عسكريًا.

يونيو/حزيران:

- القوات البريطانية تسيطر على قمة مسينا في بلجيكا.
- القاذفات الألمانية تقصف لندن.

يوليو/تموز:

- حملة كيرنسكي تُخفق في تحقيق أهدافها، وقد كانت آخر هجوم روسي في الحرب.
- الشريف حسين بن علي أمير مكة يبدأ اتصالاته ومراسلاته مع السير هنري مكماهون المندوب السامي البريطاني في القاهرة.

أكتوبر/تشرين الأول:

- هجوم بريطاني في باسشيندال شمال فرنسا.
- القوات النمسوية – المجرية تهزم الإيطاليين في كابوريتو (Caporetto).
- اندلاع الثورة البلشفية في روسيا.

2 نوفمبر/تشرين الثاني:

- وزير خارجية بريطانيا آرثر بلفور يُقدِّم وعدًا لليهود بإقامة وطن قومي لهم في فلسطين.
- البريطانيون يستخدمون الدبابات لأول مرة في الحرب على نطاق واسع في هجوم على الألمان بمدينة كامبراي (Cambrai) الفرنسية.

24 نوفمبر/تشرين الثاني: صحيفة إزفستيا الروسية تنشر نصوص اتفاقية سايكس – بيكو.

9 ديسمبر/كانون الأول: القوات البريطانية بقيادة الجنرال اللنبي تدخل القدس وتنتزعها من الأتراك.

19 ديسمبر/كانون الأول: وزارة الحربية البريطانية تقرر إيفاد بعثة صهيونية إلى فلسطين برئاسة حاييم وايزمان لبحث خطوات تنفيذ وعد بلفور.

1918

يناير/كانون الثاني: الرئيس الأميركي، وودرو ويلسون، يُعلن نقاطه الأربع عشرة من أجل السلام.

مارس/آذار:

- بدء هجوم الربيع الألماني (أو معركة القيصر).
- معاهدة برست ليتوفسك (Brest-Litovsk) تُكرِّس انسحاب روسيا من الحرب.

مايو/أيار:

- انتشار أعمال المقاومة التي نفَّذها المصريون عصيانًا لأوامر السلطات والتي كانت مقدِّمة لمشاركة الفلاحين الواسعة في ثورة 1919.
- الجيش العربي يُنفِّذ عملية القنفذ التي أدَّت لتدمير 25 جسرًا من سكة حديد الحجاز.

4 يونيو/حزيران: حاييم وايزمان يلتقي الأمير فيصل بن الحسين في معسكر وهيدة قرب العقبة.

يوليو/تموز: صد التقدم الألماني نحو باريس في مستوى نهر المارن.

أغسطس/آب: البريطانيون يشنُّون هجومًا في أميان (Amiens)، ويدفعون الألمان إلى ما وراء خط هندنبورغ (Hindenburg Line).

سبتمبر/أيلول: الفرنسيون والأميركيون يشنُّون هجومًا على المواقع الألمانية في منطقة ماز أرغون (Meuse-Argonne).

أكتوبر/تشرين الأول:

- قوات الثورة العربية بقيادة فيصل تدخل دمشق بعد انسحاب العثمانيين منها وتُبرم اتفاق هدنة مع الأتراك.
- نجاح الهجوم الإيطالي على القوات النمسوية - المجرية في فيتوريو فينيتو.
- القوات البريطانية تهزم القوات العثمانية في معركة مجيدو شمال القدس وتغزو فلسطين.

7 أكتوبر/تشرين الأول: نزول القوات الفرنسية على الساحل السوري وتقسيم بلاد الشام إلى ثلاث مناطق عسكرية.

نوفمبر/تشرين الثاني: القيصر الألماني فيلهالم الثاني يتخلّى عن العرش والألمان يتوصلون إلى اتفاق سلام مع قائد قوات الحلفاء المارشال فردينان فوش (Marshal F. Foch).

11 نوفمبر/تشرين الثاني:

- استسلام الدولة العثمانية.
- الاتفاق بين القوى المتحاربة على الهدنة واختفاء الإمبراطوريات الثلاث: الألمانية والروسية والنمسوية - المجرية والدولة العثمانية من الوجود.

16 نوفمبر/تشرين الثاني: إعلان الجمهورية الطرابلسية في غرب ليبيا بقيادة مجلس رباعي.

نوفمبر/تشرين الثاني: القوات البريطانية تحتل الموصل رغم اتفاق الهدنة بين المحور والحلفاء.

1919

يناير/كانون الثاني:

- افتتاح مؤتمر السلام في باريس.
- الأمير فيصل بن الحسين يشارك في المؤتمر بوفد عربي.
- الأمير خالد الجزائري يترأس وفدًا يُشارك به في مؤتمر الصلح ويُقدِّم عريضة مطالب لرئيس المؤتمر.

مارس/آذار: اندلاع ثورة 1919 في مصر التي نادت بإنهاء الاحتلال البريطاني.

7 أبريل/نيسان: السلطات البريطانية تُضطر للإفراج عن سعد زغلول ورفاقه وتسمح لهم بالسفر إلى أوروبا.

19 أبريل/نيسان: الرئيس الأميركي ويلسون يعترف بالحماية البريطانية على مصر.

28 يونيو/حزيران: ألمانيا تُوقّع على معاهدة فرساي.

1 يوليو/تموز: توقيع وثيقة صلح بين إيطاليا والطرابلسيين لإنهاء الحرب التي بدأت في 1911.

13 نوفمبر/تشرين الثاني: سعد زغلول يُؤلّف وفدًا لتمثيل مصر في مؤتمر الصلح في باريس مهمته السعي بالطرق السلمية إلى استقلال مصر استقلالاً تامًّا.

1920

الفرنسيون يحتلّون سوريا ويطردون فيصل الذي سُمِّي ملكًا عليها.

انعقاد مؤتمر سيفر (Sèvres) في ضواحي باريس بين الحلفاء والدولة التركية لتحديد مصير الولايات العثمانية والاتفاق على توزيعها على المنتصرين في الحرب.

اندلاع صدام بين السلطان العثماني محمد السادس والحكومة التركية المؤقتة الرافضة لمعاهدة سيفر ما أدّى إلى إعلان الجمهورية ومعاودة المفاوضات مع الحلفاء.

1922

انتصار القوات التركية بقيادة مصطفى كمال باشا على اليونانيين.

24 يوليو/تموز 1923

انعقاد مؤتمر لوزان الذي تمخّض عن معاهدة جديدة ألغت السابقة وكانت آخر الاتفاقات الناتجة عن الحرب العالمية الأولى.

المعاهدة اعترفت بالسلطة الجديدة في أنقرة برئاسة مصطفى كمال وأعادت ترتيب الحدود بما ردَّ لتركيا أراضيها في الأناضول مقابل التخلي عن ولاياتها العربية السابقة وقبرص.